الدكتور محمد الجوادي

صانع النصر



■ الطبعة الثالثة ■

سيرة حياة المشير
أحمد إسماعيل

ج
جهاد للنشر والتوزيع

الدكتور محمد الجوادي

صانع النصر
سيرة حياة المشير أحمد إسماعيل
(١٩١٧-١٩٧٤)

الطبعة الثالثة



جهاد للنشر والتوزيع

صانع النصر

سيرة حياة المشير أحمد إسماعيل

(١٩١٧-١٩٧٤)

الكاتب:

د. محمد الجوادى

الطبعة: الثالثة ٢٠٠٥

الناشر: دار جهاد

٣٦ ش اسماعيل أباظة - لاظوغلى

ت: ٧٩٦٤٧٨٣

تنفيذ الغلاف: كامل جرافيك. ٢٤ ش فوزى رماح. المهندسين

رقم الإيداع: ١٣٨٥٣/ ٢٠٠٢

الترقيم الدولى: ISBN 977-5684-76-5

صانع النصر
سيرة حياة المشير أحمد إسماعيل
(١٩١٧-١٩٧٤)

الإهداء

إلى روح المغفور له الأستاذ عاطف حواس

إنسانا نبيلا وأخا كريما

د. محمد الجوادى

مقدمة الطبعة الثالثة

لاشك أن من أسعد اللحظات فى حياة المؤلف أن يكتب مقدمة طبعة ثالثة لكتاب من كتبه، بيد أن الحقيقة فى حالة كتابنا هذا ترتبط بموضوع الكتاب وهو المشير أحمد إسماعيل، ومع أن هذا الكتاب قد تحلى بالتدقيق والتحقيق فى كل ما قدمه عن حياة هذا القائد الفذ وإنجازاته الباهرة فى صنع النصر الوحيد فى تاريخنا المعاصر، فإنه كان بمثابة ضوء نافذ بدد بعض التقصير فى وفاء حق هذا الرجل الذى يمثل نموذجاً بارزاً للذين يعملون فى صمت ويؤدون ما عليهم باقتدار دون أن يرفعوا صوتاً يتحدث عن مجد أو يطالب بحق. ولأن شعبنا وفى وأبى فإنه يحتفظ لصانع النصر بمكانة سامقة فى وجدانه، وهى مكانة لاتزال تترسخ مع الأيام.

وكل ما أستطيعه أن أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنى عند حسن ظن قرائى بى، وأن يديم علىّ نعمه، وهى كثيرة، وأن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بغيرها.

نوفمبر ٢٠٠٤ **محمد الجوادى**

مقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله سبحانه وتعالى، وأشكره جلّ فى علاه أن مكننى من أن أكتب هذا الكتاب على هذا النحو، وإذا جاز لى أن أعبر عن شيء فى مستهل هذه المقدمة فإنى أعترف بتقصيرى فى الدفع بالكتاب للنشر على الرغم من مقاربة مخطوطته للاكتمال منذ سنوات، وها قد آن الأوان لأنتهى من هذه المقدمة ولأدفع بالكتاب إلى المطبعة ..

كان المشير أحمد إسماعيل على موضوع هذا الكتاب علماً فذاً من كفاءاتنا النادرة تميز بالإنجاز وتميز كذلك بالزهد فى الأضواء وفى التحزب والسير مع الأهواء. وخير ما ينطق بكفاءة هذا الرجل أن كل مصرى وكل عربى يستطيع فى سهولة ويسر أن يتحدث عن استراتيجية الحرب مع إسرائيل من منظور ما، وأن يكرر فكرة أن عبور الممرات كان كفيلا بالوصول إلى القدس، وأن الوصول إلى القدس كان كفيلا بالوصول إلى واشنطن.. أو أن المسيرة الخضراء كانت تستطيع أن تقتحم إسرائيل... وأن... وأن... ومع هذا كله فإن الحرب الوحيدة الناجحة أو النصر الوحيد ـ على حد تعبيرى ـ لم يتحقق إلا بقيادة أحمد إسماعيل.



ومن العجيب أن سلفى المشير أحمد إسماعيل فى منصب القائد العام وخلفيه قد كتبوا مذكراتهم (الفريق أول محمد فوزى والفريق أول محمد أحمد صادق ثم المشير الجمسى والفريق أول كمال حسن على) وكذلك فعل رئيسا الأركان اللذان عملا معه وهو قائد عام (الفريق الشاذلى والمشير الجمسى نفسه) وكذلك فعل

القائدان اللذان عمل هو معهما كرئيس للأركان (الفريق أول مرتجى والفريق أول محمد فوزى) كتب هؤلاء القادة الستة من المذكرات ما يكفى لتخليد آلاف القادة... ومع كل احترامى وتقديرى لهم ولكفاءتهم وللمناصب التى تولوها على مدى نصف قرن من الزمان فإنى أرى أن مذكرات المشير أحمد إسماعيل غير المكتوبة أو غير المنشورة كانت أقوى. لأنها تتضح من كل سطر فى الواجب المدرسى يكتبه ذلك الفتى فى مدرسة بورسعيد [غرب القناة] أو فى مدرسة العريش أو شرم الشيخ [شرق القناة] وهو بين أهله وعلى أرض وطنه !!

وقد لقىّ دور هذا الرجل، ولايزال يلقى، كثيرا من التجاهل الذى يكاد يصل إلى الإهمال المتعمد وقد بلغ هذا التجاهل قدراً لم أكن أصدق وقوعه، ثم أحسست به أبلغ ما يكون الإحساس بالحقائق التى لا يملك المرء أمامها إلا الدعاء بالهداية من عند الله لأنصار تلك القوالب التى لم يتضح أمامها نور الحق فى تقدير الدور المتميز الذى قام به هذا القائد المصرى العظيم.



كان أحمد إسماعيل - رحمه الله - صنديدا من صناديد العرب، فى زمن عزت فيه الصناديد من أمثاله.

وكانت عظمة أحمد إسماعيل من نوع نادر فى الزمن الذى نعيشه، نوع لا يعلن عن نفسه أبدا، فإن اضطر إلى أن يعلن عن عظمته أنقص منها بينما هو لا يحب لها إلا الكمال.

وكانت حياة أحمد إسماعيل جهادا متصلا ليس فيه مجال لكسلٍ أو استرخاء.

ولم يكن النصر الذى حققته القوات المسلحة بقيادة أحمد إسماعيل فى السادس

من أكتوبر عام ١٩٧٣ بمثابة أول أمجاده العسكرية، لكنه كان تتويجا لهذه الأمجاد التى أرادها الله تكريما لحياة رجل من المجاهدين المخلصين، ذلك أن أحمد إسماعيل، ويا للمصادفة، كان هو نفسه قائد جيش الدفاع عن الجبهة فى أعقاب يونيو عام ١٩٦٧، وكان هو نفسه قبل ذلك القائد الذى تسلم بورسعيد بعد عدوان عام ١٩٥٦، وكان هو نفسه قبل هذا مشاركاً مع هيئة المفاوضات التى عقدتها الثورة مع البريطانيين وبعدها أصبح قائداً للكتيبة السابعة مشاه وبهذه الصفة تسلم أول معسكر تخلى عنه البريطانيون بمقتضى المعاهدة، وهو معسكر الشلوفة، وقبل هذا وذاك كان قائد الدفاع عن رفح والعريش فى عام ١٩٤٨، وكان قبل ذلك وبعد كل ذلك وفى أثناء كل ذلك جنديا من خيرة الجنود المصريين، وقائدا من صفوة القادة العرب.

وقد أنشأ أحمد إسماعيل الصاعقة، كما شارك فى إنشاء القوات البرية، كما أنه هو الذى نظم الجبهة بعد ١٩٦٧ فى جيشين: الثانى والثالث، وتولى قيادتهما إلى أن استتبت أمورهما.



وأحمد إسماعيل واحد من النوادر الذين تدرجوا فى مواقع القيادة العسكرية رتبة رتبة، ودرجة درجة، وموقعا موقعا، وتشكيلا تشكيلا، وهو أمر نادر، وبخاصة فى الحقبة التى قضاها أحمد إسماعيل فى قواتنا المسلحة، ولكن أحمد إسماعيل كان هو الآخر رجلا نادرا.

وقبل أن يلقى الرجل ربه بقليل، صدرت مجلة الجيش الأمريكى وقد وضعت صورته ضمن خمسين من كبار قادة العالم العسكريين الذين أضافوا إلى

استراتيجيات عالمنا المعاصر، بيد أننا لو أعدنا النظر فى هذا الأمر بعد مضى سنوات عديدة على رحيل أحمد إسماعيل لاكتشفنا أن مكانة الرجل فى التاريخ العسكرى على مستوى العالم لا تزال أكبر من هذا بكثير، ذلك أنه كان القائد الذى عزف أروع سيمفونية كتب لها الخلود فى تاريخنا المعاصر وفى تاريخ العلم العسكرى أيضا .

توفى أحمد إسماعيل فى السابعة والخمسين من عمره، لكن كثيرا من الذين يشاهدون صوره لا يصدقون أن الرجل كان لا يزال فى هذه السن، وكأنما كانوا يتصورون أن يجدوا فى سنه ما يوازى جلائل أعماله، وعظمة انتصاراته، ولكن ملامح وجه الرجل كانت مع هذا تصدق ظنهم، ولكن يبدو أن الفتوة الحقيقية كانت تسرى فى دمه على الدوام.

والذين يسعون إلى المجد يسلكون إليه طرقا شتى، وقد اختار أحمد إسماعيل لنفسه أعظم هذه الطرق: الإجادة والمثابرة على الإجادة، فقد ظل طيلة حياته يتقن كل عمل يتولاه، ويعمل على أن يتلافى كل تقصير مهما كلفه ذلك الحرص من وقت وعرق وصحة وجهد، كان مجدا فى دراسته، وكان متفوقا فى عمله، وبلغ الأمر به في ذلك الشأن أنه تقدم قبل حرب ١٩٤٨ لامتحانين فى وقت واحد: الأول امتحان الالتحاق بكلية أركان الحرب، والثانى امتحان مسابقة لاختيار ضابط مصرى واحد لبعثة عسكرية فى أمريكا، ونجح فى الامتحانين وكان ترتيبه الأول فى المسابقة، لكنه آثر الالتحاق بكلية أركان الحرب، وترك بعثة أمريكا للثانى فى الامتحان.

ولما كان أحمد إسماعيل قائدا للكتيبة السابعة مشاة، حققت هذه الكتيبة تفوقا

رائعا على كتائب الجيش الأخرى، وكانت كتيبته تسمى «الكتيبة ذات العلمين» تعبيرا عن تعدد الجوائز التى حصلت عليها.

وفى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان الرئيس السادات يتحدث فى مؤتمر صحفى عقده فى دمشق فسأله واحد من رجال الصحافة: هل سيعزل أحمد إسماعيل، ولم يكن الصحفى يعتمد فى سؤاله على أخبار أو شائعات، وإنما كان يعبر عن خبرته بالسلوك الذى سيطر على ساسة القرن العشرين بعزل القواد العسكريين بعد انتصارهم، واستنكر الرئيس السادات على الصحفى سؤاله، وأتبع استنكاره بقوله: إن الأمة العربية لم تنجب مثل أحمد إسماعيل لا فى معلوماته العسكرية، ولا فى رباطة جأشه خلال الحرب !



والواقع أنه لم يكن فى تاريخنا الوطنى كله من خرج إلى النور القوى الأخاذ على حين فجأة مفاجئة للجميع، وبقىّ فيه بقوة ثابتة واثقة، على نحو ما خرج هذا الرجل العظيم.

وقد ظهر أحمد إسماعيل فى النور، وبقى، وسوف يبقى فيه أبدا، مهما حاول بعض الناس على اختلاف مواقفهم، أن يقللوا من شأن حرب أكتوبر أو ما بعدها أو ما قبلها، ومهما تقادم الزمن، ومهما تغايرت التحالفات. فنصر أكتوبر هو «النصر الوحيد» فى التاريخ العربى المعاصر، وهذه هى الحقيقة، ولك أن تتصورها كيفما شئت، لكن تصورك لا يغير من أمرها شيئا.

تبقى حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى الوجدان العربى بمثابة لحظات فساعات فأيام مهدت لعصر من المجد لم يكن أهله يترقبونه إلا بعد حين، فجاءتهم هذه الحرب المجيدة بمجد عال مفاجىء غير متوقع ولا منتظر ولا مأمول، وفاجأتهم بهذا

المجد جنود ملحمة رائعة رزقوا من أهل القيادة بثلة من أصحاب اليمين، وقد تعاون هؤلاء على عملهم وعزفوا جميعا لحن هذه الحرب فى آن واحد، فاجتمعت قوتهم بعضها إلى بعض، فى قوة من النظام والتنظيم ضاعفت من قدر وقيمة إنجاز القوات، وتلاشت كل الأساطير الإسرائيلية حين بزغ نور الحق أو حين بزغ نور قوة الحق فى سيمفونية رائعة كان كل أصحابها على اختلاف مواقعهم وآلاتهم قد تضافروا وتآزروا من أجل الفوز.

وكان المايسترو الذى قاد عزف هذه المجموعات المتآزرة هو ذلك الرجل الهادىء الصامت الساكن إلا من إصبع يضبط به ذلك التناسق الذى لا يمكن للعزف أن يتم بدونه، وقد كان هذا القائد بالاضافة إلى تحليه بصفات المايسترو الصامت الذى لا يملأ الدنيا صياحا أو ضجيجا وإنما يملؤها عزفاً، كان أيضا نموذجاً للقائد الصابر الذى لم يرتفع صوت ادائه إلا حين أتيح له شعاع الأمل الجسور.



كان أحمد إسماعيل نموذجا للكفاءة، تعمل طويلا من دون أن تقفز إلى المواقع الأولى، ولا تحاول أن تلفت النظر إلى إنجازها أو أحقيتها فى هذه المواقع الأولى، وقد كان من حسن حظ هذا الوطن الذى نعيشه أن وجد فيه فى الجيل السابق عدد كبير جدا من هؤلاء المجيدين الذين كانوا يجمعون إلى هذا الخلق فى الإجادة والدأب على التجويد أنهم كانوا يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.. وكان هذا من حسن حظ هذا الوطن، وإن لم يلق هؤلاء جميعا تقديرا خيرا من ذلك التقدير العظيم الذى أتاهم به الله - وآتانا - فيما أحرز أحمد إسماعيل من النجاح فى قيادة القوات المسلحة فى نصر أكتوبر، وقد يوافقنى القارئ - على رأيى القائل إن نجاح أحمد إسماعيل

لم يكن نجاح فرد، ولكنه كان نجاح خلق، وكان نجاح جيل قد لا يظفر الوطن بمثله بعد ذلك.

لم يكن أحمد إسماعيل مخترعا، ولا زعيما، ولا سياسيا، ولا أول دفعته، ولا أعلم قومه، ولم يكن جبارا، ولا ديكتاتورا، ولا معبودا جماهيريا، ولا صاحب دعوة.. لكنه مع ذلك حقق بنجاح وفى هدوء أقصى ما يمكن تحقيقه من الأعمال العظيمة، ونال من العظمة ما فاق به كل هؤلاء جميعا، وقد كان ما حقق الرجل من هذا كله فوق كل ما يمكن لمحلل أن يتخيله، وربما يلجأ بعض ذوى الغرض إلى إنكار قيمة مثل هذا الفضل أو إنكار القدر أو إنكار السبب والنتيجة، ولكن الذين يؤمنون بأن الإخلاص يصنع أعظم المعجزات، لا يقعون فى مثل هذا، والذين يبحثون فى تراث الجماعات الإنسانية السابقة يجدون قولا يقول: ما أعظم الخير الذى يمكن صنعه فى العالم، لو رغب كل قادر على الخير عن إسناد الفضل إلى نفسه.. وقد يكون فهم هذا القول مدخلا إلى فهم سر عظمة رجل، قد لا يكون صاحب لحن النصر مائة فى المائة، وقد لا يكون صاحب أى دور فيه إلا الدور الذى من دونه لم يكن لحن النصر ليعزف على هذه الصورة.. أعنى دور المايسترو.



وبعد، فإن المؤلف قد لا يجد حرجا أن يقول: إن الذى دفعه إلى هذا الكتاب، وإلى كتاب آخر عن البطل الشهيد الفريق أول عبد المنعم رياض، أمر صعب، وليس من شك أن من أصعب الأمور على النفس، وبخاصة إذا كانت تنشد الإنصاف، أن تفجع غير مرة، حين تفاجأ كثيرا فى الجيل الحاضر بمن لا يعلم ما هو واجب عليه (وله) أن يعلمه من أمر نصر وطنه الذى لا يزال يهز التاريخ

هزا، ومن أمر قادته، ومن أمر حروبه، مع أنه لابد لنا جميعاً أن نتسلح بالقدر الكافى من المعرفة العامة الكفيل بأن نميز بين الحق والباطل، فيما نرويه ونتناقله عن تاريخنا، وأنه لابد لنا أن نكف عن الترحيب بالباطل الذى تركناه ينتشر فى الخارج، ويتسرب إلى الداخل، فيتلقاه بعضنا مشوها، يظنونه البهريز، وهو السم الزعاف.

والحق أن نفوس أجيالنا الجديدة تواقة إلى أن تعلم، وإلى أن تخلص فى حكمها على الأمور، وهى تريد أن تقرأ فيه من دون أن ينتابها الشعور بالملل من «الإنشاء» والألفاظ المؤدلجة، حتى وإن انتابها الشعور بالملل من تعاقب الحقائق الجافة وراء بعضها..

وقد يكون هذا هو ما فى هذا الكتاب، وما ليس فيه.



وأخيراً: فهذا كتاب عن رجل عظيم، أردت به أن يسد فراغا فى المكتبة العربية، وأن يوثق تاريخ فترة من أروع فترات حياتنا، بل هى أروعها جميعا، وأردت به أن أُوَفّى الرجل بعض حقه على الأجيال التى فتحت أعينها فشهدت أروع انتصارات الجيش المصرى العظيم الذى قاده أحمد إسماعيل إلى النصر الوحيد.

والله، سبحانه وتعالى، أسأله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن ينفعنى بما علمنى، وأن يرزقنى التقى والهدى والعفاف والغنى، وأن يغفر لى ذنوبى وسيئاتى، وهى كثيرة.

القاهرة، أغسطس ٢٠٠٣ — د.محمد الجوادى

1

حياته

ولد المشير أحمد إسماعيل فى الرابع عشر من أكتوبر سنة سبع عشرة (١٩١٧)، لأم من حى السكاكينى، وأب من حى باب الخلق، وقد ترقى الأب فى سلك البوليس حتى صار مأمورا للإدارة بأقسام الشرطة، ثم استقر فى القاهرة سنة ١٩١٤ مأمورا لضواحى العاصمة.

وكان للمشير أخوان وخمس أخوات، فأما الأخ الأكبر فهو الدكتور محمد فؤاد، وكان مديرا عاما بوزارة الصحة إلى أن أحيل إلى التقاعد، وكان يكبر المشير باثنى عشر عاما، فكان المشير ينظر إليه كوالد، وأما الأخ الثانى فهو اللواء محمود أنيس، وكان يصغر المشير بثلاثة أعوام.



ولما انتهى من دراسته الابتدائية فى عابدين، التحق بمدرسة شبرا الثانوية، فأظهر تفوقا فى الدراسة، ومهارة فى لعب كرة القدم، ولم يلبث أن كان واحدا من

فريق الكرة بالمدرسة، ثم حصل على البكالوريا سنة ١٩٣٤ فتقدم يبتغى اللحا بالكلية الحربية، فلم تقبله الكلية، فحط رحاله فى كلية التجارة، ولكنه كان يذهد إلى الكلية الحربية كل حين لاعبا فى فريق التجارة حين تقام المباريات بين فريق الحربية والتجارة، فكأنما كان فى التجارة وعينه على الحربية، إلى أن فتحت الكلي الحربية أبوابها فى السنة التالية، وتقدم صاحبنا فلم يكن حظه فى المرة الثانية خير من حظه فى الأولى، فمضى فى دراسته حتى اجتاز السنة الثانية فى كلية التجار بنجاح، وتقدم إلى الحربية فلم يواته الأمل للمرة الثالثة، فعاد ليتلقى دروس السن الثالثة فى كلية التجارة حتى فتحت الكلية الحربية أبوابها فى عصر وزارة الوفد فى ربيع سنة ١٩٣٧ فقبلت أحمد إسماعيل فى السابع عشر من مارس طالبا بير طلابها.



تجلى حب أحمد إسماعيل للعسكرية منذ كان طفلا فى السابعة من عمره، حيث كان يعيش مع أسرته قريبا من قصر عابدين، فكان من عادته أن يخرج عصر كل يوم فينتظر طابور حرس الملك تتقدمه الفرقة الموسيقية العسكرية وهى تطوف بميدان عابدين حتى شارع حسن الأكبر فيمشى خلفها مقلدا خطوات الجنود، حتى كان ذات يوم نسى فيه الطفل الصغير نفسه، ولم يلتفت لسيارة كانت تمر بسرعة بالقرب منه، ولم يتنبه السائق أن وراء هذا الطابور، الذى انتظره حتى عبر، طفلا صغيرا، وصدم صاحبنا وكُسرت ساقه اليسرى فنال بهذه الإصابة - على حد تعبيره فيما بعد - أول وسام على إيمانه بالعسكرية.



وعرف صاحبنا المغفور له الرئيس السادات فى مدرسة شبرا الثانوية سنة ١٩٣١

حيث جمعهما البعد عن لهو الصبا، والاعتداد بالنفس، ثم كان السادات شاويشا على أحمد إسماعيل وجمال عبد الناصر وهما طالبان فى الكلية الحربية، لأن الحظ كان قد واتاه فى الالتحاق بالكلية الحربية قبلهما بسنة، وتخرج أحمد إسماعيل فى الكلية الحربية فى يوليو سنة ١٩٣٨، فبعث به إلى منقباد التى سبقه إليها الرئيس السادات، وفى منقباد كانا ينامان فى حجرة واحدة من ثكنات الكتيبة الرابعة مشاة، ثم انتقل الرجلان معا إلى السودان، وجمعهما الجيش مرة أخرى فى الصحراء الغربية، ثم فى سيناء قبيل الثورة.



فى أول يوليو سنة ١٩٣٨ تخرج أحمد إسماعيل فى الكلية الحربية برتبة ملازم، فعمل ضابطا للاستطلاع، وقائدا لفصيلة فى الكتيبة الرابعة مشاة المتمركزة حينئذ فى منقباد، وعرف صاحبنا وهو ملازم القائد المصرى الكبير عزيز المصرى، الذى أعجب به وتوسم فيه الخير وشمله بتوجيهاته فى ذلك الوقت.

وفى أول مايو سنة ١٩٤٠ رقى أحمد إسماعيل إلى رتبة ملازم أول وظل فى عمله حتى اختير فى السادس والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٠ قائدا لسرية بلواء الأساس، ثم مدرسا بمدرسة الأسلحة والذخيرة فى التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٤١، وفى أثناء ذلك منح رتبة اليوزباشى (النقيب) فى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٤٢.

وبعد تخرجه بسبع سنوات بالضبط اختير اليوزباشى (النقيب) أحمد إسماعيل فى أول يوليو سنة ١٩٤٥ ليشغل منصب أركان حرب الكتيبة الثانية مشاة، ولم يتم الرجل فى هذا المنصب سنتين حتى اختير فى العشرين من يونيو سنة ١٩٤٧ مدرسا بمدرسة المشاة، ثم ترقى لرتبة الصاغ (الرائد) فى السابع من يوليو سنة

١٩٤٨، وتولى قيادة سرية فى رفح فى السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٤٨ وبعد ذلك بقليل اختير أركان حرب لواء مشاة فى أول إبريل سنة ١٩٤٩.



وفى أثناء هذا كان أحمد إسماعيل قد اختير ليكون واحدا من أعضاء بعثة تدريبية فى دير ياسين بفلسطين، وكانت الحكومة الإنجليزية هى القائمة على أمر هذه البعثة، لكن هذا لم يكن حائلا بين أحمد إسماعيل وبين احتلال موقع الأولية على زملائه من المصريين والإنجليز معاً.

وسافر أحمد إسماعيل بعد هذا فى دورة تدريبية إلى إنجلترا عاد منها بعد أن اجتاز هذه الدورة بنجاح قبيل حرب سنة ١٩٤٨.

شارك أحمد إسماعيل فى حرب سنة ١٩٤٨ مشاركة فعالة وكان عمله بالقرب من الحدود المصرية الفلسطينية، وأتيح له التميز فى الأداء فى هذه الحرب، وقد أقام خطا دفاعيا حصينا فى رفح كان محل اهتمام ودراسة القيادات ا لعسكرية بعد الهدنة، وكذلك قاد أحمد إسماعيل الدفاع ضد الهجوم الصهيونى على العريش.



وما إن انتهت هذه الحرب حتى التحق أحمد إسماعيل بكلية أركان الحرب، وتخرج فيها سنة ١٩٥٠ وقد أصبح بلغتنا يحمل درجة الماجستير فى العلوم العسكرية، وكان ترتيبه الأول، وفى يمينه شهادة تقدير لكونه أحسن طالب.

وفى الحادى عشر من فبراير سنة ١٩٥١ وقبل أن يمضى ثلاث عشرة سنة فى الخدمة حصل أحمد إسماعيل على رتبة البكباشى (المقدم)، ويُختار هذا البكباشى مدرسا بكلية أركان الحرب التى كان قد تخرج فيها عن قرب، وظل أحمد إسماعيل فى عمله هذا حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

وفى أعقاب قيام الثورة مباشرة اختير أحمد إسماعيل لتولى أركان حرب فرقة مشاة فى السادس من أغسطس سنة ١٩٥٢، ولكنه أعيد بعد ثلاثة أسابيع فى أول سبتمبر سنة ١٩٥٢ للتدريس فى كلية أركان الحرب.



وبعد عام من قيام الثورة أسندت إلى أحمد إسماعيل قيادة الكتيبة السابعة مشاة وذلك فى السابع من سبتمبر سنة ١٩٥٣، وتهيأ له من خلال هذا الموقع القيادى أن يشارك فى أهم الأحداث التى شكلت مستقبل هذا الوطن، إذ اختير عضوا فى لجنة المفاوضات العسكرية مع بريطانيا سنة ١٩٥٤، كما اشترك فى إتمام صفقة الأسلحة التشيكية سنة ١٩٥٥، ثم ها هو ذا يختار ليتولى بعد وصول الصفقة تكوين أول تشكيل مقاتل وفق عقيدة القتال الشرقية.



وفى اليوم الأول من يناير سنة ١٩٥٥ حصل أحمد إسماعيل على رتبة العقيد، وفى ذلك العام كان العقيد أحمد إسماعيل قد فكر وهو يومئذ قائد الكتيبة السابعة مشاة فى إنشاء نواة الصاعقة المصرية، واختار لها مجموعة من أبرز ضباط الرتب الصغيرة وأكثرهم إيمانا وجرأة وتفوقا فى العلوم العسكرية دراسة وتطبيقا، ووجه الرجل الدعوة لهؤلاء الضباط على حفل إفطار فاخر فوق سد عال فى أبو عجيلة اسمه «سد الروافع» وارتدى الضباط أفخر ما عندهم من الثياب، وكانت المفاجأة التى أعدها قائد الكتيبة لهؤلاء تدريباً عنيفاً للصاعقة، إذ كان ذلك الإفطار وهميا، وبدلا منه أصدر القائد التعليمات أن يقفزوا من علو ٢٥ مترا بكامل ملابسهم الرسمية فى الماء، وهكذا كانت نشأة نواة الصاعقة فى القوات المسلحة، وقامت الصاعقة فى العام نفسه بهجمات خاطفة على العدو الإسرائيلى بتخطيط من العقيد أركان حرب أحمد إسماعيل على.

وفى الثانى من إبريل سنة ١٩٥٦ عهد إلى أحمد إسماعيل بقيادة اللواء الثالث مشاة، وكان هذا اللواء من الألوية المتمركزة فى سيناء، وقبل أن تمضى شهور شارك أحمد إسماعيل بلوائه هذا فى التصدى للعدوان الثلاثى حين وقع فى التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٥٦، واستطاع أحمد إسماعيل أن يتقدم بلوائه حتى وسط سيناء، واشتبك فى عدة معارك تصادمية مع العدو، ثم صدرت التعليمات له بالتوجه إلى مدينة بورسعيد، وكتب له الله أن يكون هو القائد الذى يتسلم مدينة بورسعيد بعد ما خرج منها آخر جندى أجنبى، وقدر لأحمد إسماعيل أن يكون بمثابة القائد المصرى الذى رفع علم مصر على بورسعيد فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٥٦.

وفى هذه الحرب تأكدت موهبة أحمد إسماعيل فى صعيد آخر حين مارست قوات الصاعقة (التى كان قد أنشأها فى العام السابق) عملياتها ضد العدو الإسرائيلى فى معارك بورسعيد على أعلى درجة من الكفاءة والاقتدار.



وما إن انتهت حرب سنة ١٩٥٦ حتى التحق أحمد إسماعيل بأكاديمية فرونز العسكرية فى روسيا، وتخرج فيها سنة ١٩٥٧ مشهودا له بالكفاءة والامتياز، ورقى إلى رتبة العميد فى اليوم الأول من يناير سنة ١٩٥٨، ثم عاد إلى التدريس حيث اختير كبيرا لمعلمى الكلية الحربية فى الحادى والثلاثين من مارس سنة ١٩٥٩، وأتيح له أن يواصل مهمة إعداد الجيل الجديد من الضباط المصريين فى الكلية الأم بعد أن قام بالتدريس من قبل فى ثلاث مدارس: مدرسة الأسلحة والذخيرة، ومدرسة المشاة، وكلية أركان الحرب.



واستمر العميد أحمد إسماعيل فى هذا الموقع من مواقع الأستاذية سنة ونصف

السنة، وبعدها اختير رئيسا لواحد من أقسام شعبة العمليات فى الثانى عشر من سبتمبر سنة ١٩٦٠، وهكذا أتيح للرجل أن يضيف إلى خبراته مجالا جديداً من مجالات التخطيط الميدانى.



وفى الخامس والعشرين من يونيو سنة ١٩٦١، تولى أحمد إسماعيل رئاسة أركان حرب المنطقة العسكرية الشرقية على سبيل النيابة، وفى أثناء ذلك منح رتبة اللواء فى اليوم الأول من سنة ١٩٦٢، ثم توالت المناصب القيادية على أحمد إسماعيل.

عين أحمد إسماعيل قائدا للفرقة الثانية مشاة فى السادس من يوليو سنة ١٩٦٢، فأعاد تشكيل هذه الفرقة على أحدث ما يكون التشكيل، فكان لمصر بها أول تشكيل مقاتل بالأسلوب الحديث، وقد ظهر أثر هذا التشكيل فى حرب السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣، إذ كانت هذه الفرقة التى استطاعت أن تدمر اللواء ١٩٠ بأكمله وأن تأسر قائده عساف ياجورى، ولم تكن هذه النتيجة مفاجئة لأحمد إسماعيل الذى كان لا يفتأ يقول إن هذه الفرقة فرقتى، وأود أن أرى جهدها فى هذه الحرب.



ثم أنشئت قيادة القوات البرية، وقد ذكرنا فى كتابنا «الطريق إلى النكسة» قصة إنشاء هذه القيادة بالتفصيل من خلال مذكرات الفريق أول عبدالمحسن كامل مرتجى وأسندت إلى أحمد إسماعيل مهام منصب رئيس أركان هذه القوات، وبقى متوليا لهذا المنصب حتى اختير فى الرابع عشر من مايو سنة ١٩٦٥ رئيسا لهيئة تدريب القوات البرية، وهو المنصب الذى كان أحمد إسماعيل يشغله حين قامت حرب سنة ١٩٦٧، أو حين وقعت نكسة سنة ١٩٦٧ لأن الحرب لم يتح لها فى الحقيقة أن تقوم إلا من جانب واحد.

بعد انتهاء الحرب أحيل أحمد إسماعيل إلى التقاعد وسرعان ما أعيد إلى الخدمة، وكلف بقيادة الجبهة كلها، وأصبح بعد قليل بمثابة ثالث قادة الجيش بعد كل من الفريق أول فوزى القائد العام والفريق عبدالمنعم رياض رئيس الأركان، وظل فى هذا الموقع من خلال منصبين كبيرين بعد قيادة الجبهة وذلك إلى أن استشهد عبدالمنعم رياض فخلفه فى رئاسة الأركان طيلة الفترة من مارس ١٩٦٩ وحتى عزل من منصبه سبتمبر ١٩٦٩.

وسنتناول حياته العسكرية وإنجازاته فى هذه الفترة فى باب كامل من هذا الكتاب.



ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى عزل فيها أحمد إسماعيل وحيل بينه وبين أداء واجبه الوطنى، فقد سبقتها محاولات أخرى لم تنته إلى مثل هذه النهاية.

وقد كادت أولى هذه المحاولات أن تنتقل بالرجل إلى السلك الدبلوماسى.. فمن الأدوار التى لعبها أحمد إسماعيل فى القوات المسلحة مجهوداته فى إنشاء القيادة العسكرية الأفريقية فى أوائل الستينات مع عدد من الثوار الأفارقة، وقد عقد لهؤلاء أول مؤتمر عسكرى فى القاهرة، ثم ابتعث أحمد إسماعيل إلى الكونغو مستشارا عسكريا للرئيس لولومبا فيما بين مارس وسبتمبر سنة ١٩٦٤، وكان الستار الذى اتخذ لصاحبنا هو أنه عضو فى البعثة الدبلوماسية لمصر فى الكونغو، فلما انتهت مهمة أحمد إسماعيل العسكرية، خير بين بقائه فى وزارة الخارجية سفيرا، أو عودته إلى الجيش، ففضل العودة إلى الجيش المصرى، على أن الذين خيروه كانوا يودون لو أغراه طعمهم فعمل سفيرا.. وقد كانت هذه هى أولى محاولات إبعاد الرجل.



وجاءت المحاولة الثانية فى المرحلة التى اشتد فيها الصراع بين عبد الناصر وعبدالحكيم عامر وشمس بدران سنة ١٩٦٦، وتقرر إيعاد أحمد إسماعيل إلى منصب كبير فى مؤسسة تعمير الصحارى، ولكن جمال عبد الناصر لم يوقع القرار وروى الواقعة لأحمد إسماعيل فى أعقاب النكسة.

وفى أعقاب حرب يونيو لم يبق أحمد إسماعيل خارج مواقع المسئولية إلا ثمانية وأربعين ساعة ريثما أعيد ترتيب الأمور فى القيادة، وعاد ليتسلم قيادة الجبهة، وليكون الشخص الثالث فى الجيش المصرى بعد القائد العام الفريق أول فوزى ورئيس الأركان اللواء عبدالمنعم رياض.

وكان الرئيس السادات فى يوغوسلافيا حين عزل أحمد إسماعيل من رئاسة الأركان، ويروى مرافقوه أنه لما علم بالنبأ عقب وهو حزين: لا حول ولا قوة إلا بالله.. خسارة والله.. إنه كفاءة عسكرية نادرة.



ولعل الرئيس جمال عبد الناصر نفسه أحس بأن قرار إعفاء أحمد إسماعيل لم يكن فى موضعه، وبخاصة أنه وقع هذا القرار وهو فى حالة صحية استدعت راحته التامة، فقرر لأحمد إسماعيل بعد فترة قصيرة من عزله معاش وزير.

ولم يكن هناك من سبب لهذه المحاولات المتكررة لإبعاد الرجل إلا أنه عسكرى ممتاز، وقيادى كفء، خال من نقط الضعف، ليس إلى السيطرة عليه من سبيل، وليس إلى احتوائه من منفذ، هدفه الأعلى خدمة وطنه دون تحيز إلى فريق أو تحزب إلى طائفة.



على أن الفترة التى ظل أحمد إسماعيل محالا إلى المعاش فيها، ومبعدا عن الخدمة، كانت من أهم فترات حياته، ذلك أن الرجل لم يخلد إلى الراحة بعد إجهاد

ولا إلى السكينة بعد جهاد، ولم يكف يوما عن التقصى والبحث فى المعارف العسكرية الجديدة وحوّل مكتبه فى منزله إلى غرفة عمليات، وأخذ يعد الخطط للقتال، وانتهى من وضع خطة جسورة للمعركة، وكان ينوى إرسالها إلى الرئيس جمال عبد الناصر، لكنه خشى أن تفسر هذه الخطوة على أنها طلب استرحام للعودة إلى الجيش، واحتفظ أحمد إسماعيل بالخطة فى درج مكتبه، وعبر لزملائه عن أمله فقال: «كل ما أطلبه هو أن يسمح لى بالعودة إلى الجيش لعبور القناة إذا وقعت الحرب»، وعبر لأسرته عن أمنيته فى أن يرتدى «الأفارول» ويذهب ليحارب، ولكن الله الكريم والعليم بخفايا الصدور حقق لأحمد إسماعيل أضعاف ما تمنى.



عاد أحمد إسماعيل فى ١٥ مايو ١٩٧١ إلى خدمة وطنه وعين مديراً للمخابرات العامة وبقى فى هذا المنصب قرابة عام ونصف حتى أكتوبر ١٩٧٢ .

وفى السادس والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٧٢ صدر قرار الرئيس بتعيين الفريق أول أحمد إسماعيل وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة الحربية، وأدى اليمين الدستورية، وبدأ مهامه فى الإعداد، وهكذا عاد الرجل الذى عزل وهو رئيس للأركان ، وخلف الفريق صادق فى منصب القائد العام والوزارة، وكان الفريق صادق نفسه قد خلفه من قبل فى رئاسة الأركان.

هكذا أسندت إلى أحمد إسماعيل مهام القائد العام للقوات المسلحة ووزير الحربية، وبدأ أحمد إسماعيل استعداده للحرب المجيدة التى شنتها القوات المسلحة المصرية والقوات المسلحة السورية فى أكتوبر ١٩٧٣ وسنتناول فى باب تالٍ من هذا الكتاب تفصيلات هذه الفترة..



فلما بزغ فجر السادس من أكتوبر قام أحمد إسماعيل من نومه فصلّى الفجر ثم صلى ركعتين أخريين لله، ثم ذهب إلى مكتبه فى وزارة الحربية كعادته، فصرّف الأمور الروتينية اليومية، وكأنما كان هذا اليوم كغيره من الأيام، وفى الحادية عشرة توجه مع اللواء حسن الجريدلى سكرتير عام الوزارة إلى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة فاتصل بقادة الفرق والجيوش والأسلحة جميعا، واطمأن من كل واحد منهم على أحوال قواته ومهماته وأسلحته.

وفى الواحدة والربع بعد الظهر دخل الرئيس السادات القائد الأعلى للقوات المسلحة يصحبه قائدها العام أحمد إسماعيل إلى غرفة قيادة العمليات، وبقى أحمد إسماعيل فى غرفة العمليات حتى السادس عشر من أكتوبر حين خرج ليستقل مع الرئيس السادات السيارة المكشوفة التى أقلتهما إلى مجلس الشعب حيث ألقى الرئيس خطابه التاريخى.

وفيما بين هذين اليومين أذهل الرجل معاونيه بصبره الذى لا ينفد، وابتسامته التى لم تغب عن وجهه حتى فى أحلك اللحظات، واكتشف القواد الذين عملوا مع أحمد إسماعيل فى هذه الحرب سر عظمة القائد الذى كان يرى دائما الفرق بين المغامرة والحرب.



هذا، وقد عقد مجلس الشعب المصرى جلسة فى التاسع عشر من فبراير سنة ١٩٧٤ لتكريم قادة القوات المسلحة وحضرها الرئيس السادات، وأعلن فيها منح رتبة المشير للقائد البطل أحمد إسماعيل على اعتبارا من السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣، وهكذا نال هذه الرتبة عن استحقاق وبعد أن تدرج فى الرتب المختلفة تدرجا طبيعيا، ولم يكن المشير كل ذلك فحسب، لكنه كان أول قائد عربى كبير فى العصر الحديث عبر الحياة الفانية إلى الحياة الباقية وهو منتصر.

وفى الرابع والعشرين من إبريل سنة ١٩٧٤ اختير المشير أحمد إسماعيل نائب لرئيس الوزراء فى الوزارة التى شكلها الرئيس السادات برئاسته.



وفى أوائل صيف سنة ١٩٧٤ سافر المشير أحمد إسماعيل للعلاج فى لندن بناء على نصيحة الأطباء المصريين، وقرر الأطباء الإنجليز أن يجروا له جراحة فى الرئة لإصابته بسرطان فيها، لكنهم أخفوا عنه الحقيقة وقالوا إنها عملية تيبس فى الرئة ويستحسن أن يحضر إجراءها زوجته أو ابنه، وسافرت زوجته وابنه الأكبر وتمت العملية بنجاح، وعاد أحمد إسماعيل فى الرابع والعشرين من أغسطس سنة ١٩٧٤، فقَبَّل جميع القادة الذين كانوا فى استقباله فى المطار، ثم عاود نشاطه وباشر مهام منصبه بكل جد وإخلاص، وكان يعمل أضعاف ساعات عمله قبل السفر، وكان يداوم على المرور على القوات فى مواقعها وعلى حضور المناورات والبيانات العملية، ولكن المرض عاوده مرة ثانية فى نوفمبر سنة ١٩٧٤، واشتد عليه المرض هذه المرة فقاوم الألم فى صبر وشجاعة، ولكن الأطباء نصحوه بالذهاب مرة ثانية إلى لندن، وسافر فى الثالث والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٧٤، ويشاء القدر أن يصاب بالتهاب رئوى عند وصوله إلى لندن، ثم كان من مضاعفات هذا الالتهاب حدوث سُدَّة فى الرئة بالإضافة إلى ما كان فى الرئة من ذى قبل، وأخذ المرض يشتد على البطل يوما بعد يوم، وكان الرئيس يتابع حالة المشير الصحية فى اهتمام وقلق بالغين، فلما كان يوم الثلاثاء أول أيام عيد الأضحى المبارك، أوفد الرئيس السادات الدكتور أشرف مروان والسيد فوزى عبد الحافظ إلى لندن ومعهما طائرة خاصة ليكونا فى صحبة المشير، وتحت تصرفه استعدادا لأى طارئ قد يتطلبه العلاج، وعرض الرئيس الأمريكى فورد أن يرسل أكبر أطبائه إلى لندن للإشراف على علاج المشير حتى إذا تقرر سفر هذا

الإخصائى من واشنطن إلى لندن فى صباح اليوم التالى، كان ملك الموت قد سبقه فصعد بروح أحمد إسماعيل إلى السماء فجر ثانى أيام عيد الأضحى المبارك الأربعاء الحادى عشر من ذى الحجة سنة ١٣٩٤هـ، الموافق الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٧٤.



وجاءت الطائرة فى ثالث أيام عيد الأضحى بجثمان البطل القائد الذى رزق الله مصر على يديه بأعز أعياد نصرها، فلما كان يوم الجمعة رابع أيام العيد خرجت جنازة الراحل العظيم من مسجد عمر مكرم بعدما أمَّ الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر المصلين. وبينما كانت جماهير القاهرة تشيع الراحل إلى مثواه الأخير كان المسلمون فى البقاع الأخرى يؤدون صلاة الغائب على روح هذا الرجل العظيم.

2

شخصيته

قدم أحمد إسماعيل نموذجاً بارزاً للشخصية العبقرية الهادئة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر فى مقابل زعامات كثيرة أجادت الحديث والخطاب وعرض الأفكار دون أن يرزقها الله بما رزق به أحمد إسماعيل من توفيق وصناعة للنصر.

ومن الواجب علينا أن نتأمل فى شخصية هذا الرجل والعوامل التى مكنته من أن يحرز ما أحرز فى حياته القصيرة على الرغم من بعده عن الأضواء، وعدم تصريحه باستهدافه للمجد أو تحقيقه له.

كان أحمد إسماعيل فى حياته جنديا، ولم تكن الجندية عنده إلا بذل الجهد من أجل تحقيق النصر، ولم يكن من الدين يدينون حياتهم على أن الجندية مغنم أو انتهاز فرصة لتحقيق مجد شخصى.

وكان طوال حياته إنسانا بسيطا يميل إلى البعد عن المظاهر، والترفع عن الصغائر، والإصرار على الهدف، والتفانى فى العمل، والشجاعة فى الحق.

كان عزوفا عن الوساطة،مشغوفا بنصرة الحق، راعيا لجنوده، يحرص على راحتهم ويعمل على تأمين مستقبلهم ورعاية أسرهم.

وكان رحمه الله شديد الاعتزاز بنفسه، وهو مع ذلك جم التوضع، سريع الألفة مع الناس.

وكان ميالا للضبط والربط، متمسكا بالتقاليد العسكرية والقيم الدينية محبا للصراحة والنظام دقيقا فى كل تصرفاته، ولم يكن أحمد إسماعيل ميالا للشهرة، ولم يحاول أن يسعى إليها فى أى من الأوقات، وكان دائما يفضل العمل الصامت دون إعلان، ولم يكن من عادته أن يتحدث عن سلبيات مَنْ سبقوه لكنه كان يقدم البديل بعمل ما يجب أن يكون، فإذا سئل قال إنه ليس من حقه الحديث فيما لا يخصه من أمور.

والخلاصة أنه كانت له من رجولته: قوة شخصية، ودماثة خلق، وصراحة فى الحق، وسعة فى الأفق.



أما فضل أحمد إسماعيل على الإعلام العربى وعلى العقل العربى ففضل لا يعدله فضل كثير من المفكرين والإعلاميين، ولو جمعت جهودهم إلى بعضها جميعا، ذلك أن هذا الرجل قد عبر بالإعلام العربى وبالفكر السياسى المعاصر، بالتالى، من مرحلة التضليل إلى مرحلة الصدق واليقين، وما بالك بالإعلام فى يونيو سنة ١٩٦٧ يصور للناس الهزيمة الساحقة التى وقعت فى اللحظات الأولى على أنها نصر مؤزر، ثم يمضى فينمى هذا النصر طيلة أيام خمسة، يزيد فى كل نشرة إخبارية من عدد الطائرات التى أسقطناها للعدو، ومن عدد الدبابات التى دمرناها للعدو، ومن عدد الجنود الذين أسرناهم وقتلناهم من العدو، بينما العدو مشغول عن ذلك كله لا بالحرب، وإنما بتوزيع الأسلاب والغنائم وتثبيت الأقدام والركائز.

أما جيشنا فى ستة أكتوبر ١٩٧٣ فيصدر البيانات بيانا تلو الآخر، يعبر عن

الواقع من وجهة نظر محايدة، لا تبدى فرحتها بنصر، ولا غرورها بقدرة، ولا زهوها بجولة، وإنما تلخص البيانات العمليات الحربية، معطية الحقائق كاملة، بل تقلل من حجم انتصاراتنا زيادة فى الدقة، حتى استمع المواطن العربى من إذاعاته إلى حجم انتصار يقل عما تصوره إذاعات الأعداء والدول الكبرى، وعندئذ أدرك الناس أن إعلامهم قد تحول إلى مرحلة أخرى رائدها الصدق، ويسودها الحق، وتبتعد عن الضلال والتضليل اللذين كانا يسيطران عليها من قبل.



ولم يطلب الجيش فى سنة ١٩٧٣ من إذاعاتنا أن تفرض على مسامع الجماهير الأغانى الوطنية ولا أناشيد القتال، وإنما ذهبت الإذاعات العربية ساعة بعد ساعة تأتى الناس بما اعتاده من برامجها فى الأيام العادية، حتى إذا جاء وقت إذاعة الأنباء أذيعت فى صوت لا تشع منه الحماسة الجوفاء، وإن شعت منه الحماسة التى تصل فى يسر وسرعة إلى القلوب الحساسة لحماسة النصر.



كان أحمد إسماعيل فى صباه جادا ميالا للصرامة والنظام، دقيقا فى كل تصرفاته، لا تشغله اهتمامات الفتيان من أضرابه، بل كان يبحث عن كتب التاريخ وسير قادة الإسلام ليقرأها، ولما كان فى دراسته الثانوية كان حريصا على اقتناء الكتب التى تروى قصص القادة العسكريين وحروب القرون الماضية، فإذا قرأ حرص على أن يسجل تعليقاته على قراءاته، ثم يناقشها مع شقيقه الأصغر وأقرانه.



كانت العدالة تجرى فى دماء أحمد إسماعيل، وكان حريصا على تطبيقها تطبيقا مطلقا لا تأخذه فى ذلك لومة لائم، ولا عتاب صديق ولا شعور عائلى، ولا عاطفة قرابة، ولا مصلحة خاصة، وكان لا يخرج عن التقاليد والإجراءات

العسكرية فيما يتعلق بنفسه وهو وزير، فلما مرضت زوجته وقرر الأطباء سفرها للعلاج بالخارج أرسلها إلى القومسيون الطبى حتى يتقرر ذلك رسميا، وفعل ذلك مع أخيه اللواء محمود أنيس، بل إنه تقدم بنفسه فى مرضه الأخير إلى وزارة الصحة، فلما تقرر سفره إلى الخارج رفض أن يتقاضى بدل سفر أو بدل علاج، ولم يكن - رحمه الله - يعلم أن هذا هو مرضه الأخير.

لم يعتمد أحمد إسماعيل فى حياته على الوساطة ولا المحسوبية، وكان حريصا، بقدر ما يمكن لبشر، ألا يكون هو معتمدا عليه فى هاتين الناحيتين، وقد ربى أولاده جميعا على مواجهة أمورهم بأنفسهم فهداهم الله إلى هذا الخلق المتين، فأصر ابنه الأكبر محمد أن يترك العمل فى جهاز المخابرات العامة حين عين والده مديراً للمخابرات العامة.

وكان فى قيادته حريصا على أن يزرع فى نفوس مرءوسيه احترام مبدأ تسلسل القيادة، ولم يكن يقبل أن تعرض عليه موضوعات عن غير الطريق القانونى، وهكذا أعطى لمرءوسيه ومعاونيه الإحساس بالبيئة العسكرية فى وقت كان مثل هذا الإحساس متراجعاً جداً.



وكان أحمد إسماعيل مثالا فى التواضع وإنكار الذات، فلم يكن يفخر بما يحق له أن يفخر به، ولم يكن حفيا بأن يكرر الحديث والفخر عما أداه، ولما سئل عن شعوره بعد حرب أكتوبر قال: إنه شعور الجندى الذى أدى واجبه.

وعقب بقوله: إنه كان مجرد أب لواضعى الخطط يستشيرونه عند اللزوم.

ولما انعقد مجلس الوزراء المصرى ليستمع من أحمد إسماعيل إلى تفاصيل المعركة حرص على أن يظهر كل أدوار القادة الصغار والكبار، وتجاهل فى عرضه الدور الذى أداه هو.. تحدث عن الجندى المصرى الشجاع المؤمن الجسور، ولم يتحدث بكلمة واحدة عن القائد العام، وقد فعل نفس الشىء فى ندوة نقابة

الصحفيين حول متغيرات أكتوبر، فكان يقول وهو يقدم معاونيه من قيادات الأسلحة التى أنجزت المعركة: «لسنا وحدنا الذين حققنا النصر، إنها معركة أسلحة مشتركة».

وعندما قام المشير بافتتاح معرض الغنائم الذى أقيم فى أرض المعارض بالجزيرة بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، قال: ليس من حقى أن أفتتح هذا المعرض، إنه من حق هذا الجندى الذى صاد أكبر عدد من دبابات العدو، وأفسح المشير المجال للجندى عبدالعاطى الذى عرف فيما بعد بلقب «صائد الدبابات»، وناوله المقص فقص شريط الافتتاح.

وفيما قبل حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم يكن أحمد إسماعيل يوافق على الإدلاء بأحاديث تليفزيونية أو صحفية، وكان يستنكر على الذين يطلبون منه مثل ذلك الطلب قائلا: «أتحدث عن ماذا؟».

ومن أبلغ ما قيل فى وصف تواضعه قول الأستاذ محمد زكى عبد القادر:

«وما عرفت رجلا رفعه تواضعه إلى أعلى الدرجات، ورفعه صمته فجعله حديث العاملين مثله، عسكريا من رأسه إلى قدمه، يدرك أن الكلام ليس صنعته ولكن العمل والجهد، ويؤمن أن الصمت نصف الطريق إلى النصر، ولم أعرف رجلا مثله خرج من الظلال إلى الضوء الباهر فى لمحة جزاء وفاقا للعمل الصامت والصمت العامل».



كان أحمد إسماعيل نموذجا للالتزام طيلة حياته العسكرية، والذين عاشروه فى مراحل مختلفة فى هذه الحياة لا يستطيعون أن يقدروا أن التزامه فى مرحلة منها كان يفوق التزامه فى مراحل أخرى، وإنما كان التزام الرجل من نوع مستمر سواء فى ذلك أزادت مسئولياته أم قلت، وسواء فى ذلك أحان وقت الجد والملاحظة أو لم يحن، ومن أمثلة هذا ما روته زوجته: إنه ذهب إليها يوما فقال: «إنى مضطر

للسفر فى مهمة رسمية مع مجموعة من الزملاء ولكن أرجوك لا تسأليني عن جهة سفرى لأن ذلك سر لا أستطيع أن أبوح به لأحد، وكل ما أستطيع قوله إنه سيأتيك شخص ليسلمك بعض الخطابات منى ويتسلم الرد منك». وظلت زوجته على هذا الحال أربعة أشهر حتى جاءتها مكالمة منه من موسكو، ساعتها فقط عرفت أن زوجها كان قد سافر للاتحاد السوفيتى.



كان أحمد إسماعيل يتمتع بقدرة هائلة على الصبر وتحمل المفاجآت، وكان يملك ابتسامة عريضة تضيع على أمهر المتقربين فرصة التقاط أى تعبير ينم عن حالته النفسية، ويبدو أنه دفع ثمنا لهذه القدرات من قدرته على تحمل أمراض القلب والرئة والسرطان، وكنت تراه قبل وفاته وهو فى السابعة والخمسين من عمره فتحسبه تعدى هذا العمر بكثير.



وكان أحمد إسماعيل على دراية تامة بجنوده ومواقعه، وقد ذكر الصحفى الإنجليزى «لويس هال» فى مقال من مقالاته المتعددة التى كتبها للصحف الإنجليزية عقب حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ أنه رافق المشير أحمد إسماعيل وهو يزور حصون خطوط بارليف، فوجده يعرف كثيرا من جنوده بالاسم، ويسألهم عن زوجاتهم وأبنائهم، ويقدمهم لمرافقيه من المراسلين على أنهم الأبطال الحقيقيون فى المعركة..



ومما يذكر أن أهل سيناء كانوا قد قدموا علم سيناء لأحمد إسماعيل تقديرا منهم لمعرفته التامة بأرضهم شبرا شبرا، ثم أذن الله أن يكون أحمد إسماعيل على رأس الجيش الذى رفع علم مصر على أرض سيناء.

ربما يجوز لى هنا أن أكرر فكرتى القائلة بأنه لو كان للقيادة المصرية العامة للقوات المسلحة أن تختار الرجل الذى يتولاها فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ لاختارت أحمد إسماعيل، فقد تجمعت فى هذا الرجل كل مؤهلات القيادة الحقة من خبرة وعلم وشخصية، وقد تناولت فى الفقرات السابقة أبرز الصفات التى كونت شخصية الرجل العسكرية، أما الخبرة فقد اكتسبها الرجل من تدرجه فى وظائف القيادة للوحدات والتشكيلات المختلفة منذ تخرجه وعمله فى القوات المسلحة كل هاتيك السنين، فقد عمل أحمد إسماعيل قائد فصيلة (يوليو سنة ١٩٣٨)، وقائد سرية (نوفمبر سنة ١٩٤٢)، وقائد كتيبة (سبتمبر سنة ١٩٥٣)، وقائد لواء (إبريل سنة ١٩٥٦)، وقائد فرقة (يوليو سنة ١٩٦٢)، وقائد الجبهة (يوليو سنة ١٩٦٧)، وهكذا كان الرجل كما يسمونه «رجل التشكيلات» لأنه كان على دراية تامة بنظم ومشكلات التشكيلات المختلفة من طول ما تمرس بالعمل فيها على اختلاف مستوياتها، أو بعبارة أدق فى جميع مستوياتها.



وبالإضافة إلى هذا عمل أحمد إسماعيل فى شعبة العمليات (سبتمبر سنة ١٩٦٠)، ثم تولى رئاسة هيئة العمليات للقوات المسلحة (إبريل سنة ١٩٦٨).

ولم يكن من الصعب على أحمد إسماعيل بعد هذا كله أن يتفهم طبيعة العمل فى هذه الهيئة، وأسباب القرارات والخطط التى تنتهى إليها، وعلاقتها بهيئات الأركان والأسلحة.

ومن ثم فقد كان أحمد إسماعيل قادرا على أن يشيع روح التعاون والتلاؤم بين آراء هيئة العمليات ورئاسة الأركان وقيادة الجيوش.



وعلى صعيد ثالث كان أحمد إسماعيل أركان حرب الكتيبة الثانية مشاة (يوليو

سنة ١٩٤٥)، وأركان حرب لواء المشاة (إبريل سنة ١٩٤٩)، وأركان حرب فرقة مشاة (أغسطس سنة ١٩٥٢)، وأركان حرب المنطقة العسكرية (يونيو سنة ١٩٦١)، وأركان حرب القوات البرية (يونيو سنة ١٩٦٤)، وتولى رئاسة أركان حرب القوات المسلحة (مارس سنة ١٩٦٩)، وهكذا سلك الرجل التسلسل الطبيعى فى القيادة والأركان على نحو أراده له الله، وخصه به، وليس سراً إن أحدا غير أحمد إسماعيل لم يظفر طوال خدمته بهذا التسلسل المنطقى فى كل التشكيلات.



وعلى صعيد رابع كان أحمد إسماعيل رئيسا لهيئة التدريب بالقوات البرية (مايو سنة ١٩٦٥)، ثم أصبح رئيسا لهيئة تدريب القوات المسلحة (يونيو سنة ١٩٦٧).

وهكذا تكونت لأحمد إسماعيل من هذه الخبرات المتتالية والمتعاقبة فى هذه المجالات المتوازية والمتكاملة حنكة عسكرية، جمعت خبرات القيادة والتشكيلات والأركان والعمليات والتدريب، من حيث سار الرجل فى هذه المناصب كما يصعد الرجل السوى السلم الطبيعى فيؤدى به إلى الوصول إلى هدفه من دون إرهاق ولا فشل.



أما علم الرجل العسكرى فقد نما يوما بعد يوم، فقد حصل أحمد إسماعيل على دورات تدريبية فى عامى ١٩٤٥ و١٩٤٨ أحرز فيها تفوقا ملحوظا، ولفت الأنظار إلى مهارته وقدرته، ثم تخرج فى كلية أركان الحرب، وزاد على ذلك ما حصله من علم حديث فى أكاديمية فرونز للعلوم العسكرية بالاتحاد السوفيتى، ثم توج ذلك كله بتخرجه فى أكاديمية ناصر للعلوم العسكرية.

على أن لأحمد إسماعيل مع العلوم العسكرية شوطا آخر حين اضطلع بتدريس هذه العلوم مرة تلو أخرى، فى مدرسة الأسلحة والذخيرة (ديسمبر سنة ١٩٤١)، وفى مدرسة المشاة (يوليو سنة ١٩٤٧)، وفى الكلية الحربية (مارس سنة ١٩٥٩)،

وقد تخرج على يد المشير أحمد إسماعيل فى هذه المعاهد العسكرية عدد كبير من رجال قواتنا المسلحة الذين ظلوا يذكرونه أستاذا متمكنا من مادته، قديرا على تقديمها فى أبسط إطار، ولم يكن أحمد إسماعيل يتخذ من فترات انتدابه للتدريس فرصة يخلد فيها إلى الراحة كما يفعل البعض، ولكنه كان يحرص على أن يتعمق الموضوعات التى كان عليه أن يدرسها لتلاميذه، وكان يجد فى هذا الدرس من أجل الدرس متعة أى متعة، ولم يكن فى هذا إلا صورة من صور الفطرة النقية الخالصة التى تسعى إلى العلم ما وسعها السعى.



ومن حديث المشير أحمد إسماعيل (وهو فى التقاعد) للأستاذ حسين قدرى فى كتاب هو والذين معه ننقل بعض الفقرات التى تصور تطور علاقته بالرئيس عبد الناصر، ومن المهم أن نتأمل فى الروح التى تحدث بها أحمد إسماعيل فى هذا الحديث عن عبدالناصر على الرغم من أنه كان «مجروحا» من تصرف الرئيس عبدالناصر باعفائه من منصبه كرئيس للاركان على الرغم من علاقتهما القديمة وزمالتهما الممتدة، وقد أدلى أحمد إسماعيل بهذا الحديث بعد وفاة عبدالناصر حين لم يكن يملك له نفعا ولا ضراً.

يحكى أحمد إسماعيل عن ليلة الثورة فيقول :

«وفى مساء ليلة ٢٢ يوليو عام ١٩٥٢، ليلة ٢٣ يوليو، كنا مجموعة من مدرسى كلية (أركان حرب) نسهر فى مبنى هيئة التدريب بكوبرى القبة لتصحيح أوراق إجابات طلبة الكلية الجدد : هو [أى الرئيس جمال عبدالناصر] وأنا و«محسن إدريس»، «السيد فهمى»، وآخرين.. وكلنا نرتدى الملابس المدنية : القمصان والبنطلونات، فقد كانت ليلة صيف حارة .. وفى حوالى الساعة العاشرة ليلا وجدنا «جمال عبد الناصر» يقوم فجأة من مكانة ويستأذن فى الانصراف لأنه يشعر بمغص كلوى وتعبان منه ولن يستطيع أن يستمر الليلة فى التصحيح!!.. وانصرف «جمال» وبعده استأذن عدد آخر من زملائه المدرسين كل واحد منهم

بعذر مختلف .. وقاموا بثورتهم فى تلك الليلة التى كانوا سهرانين معنا فيها حتى الساعة العاشرة ليلا دون أن نعرف أو يعرف رؤسائنا ما يدبرون».



ويحكى أحمد إسماعيل عن نهاية المفاوضات مع البريطانيين التى عينته الثورة عضوا فى الوفد المصرى فيها فيقول :

«وبعد نهاية المفاوضات وبدء تسلم المعسكرات الإنجليزية فى منطقة القنال، كنت ذلك الوقت قائدا للكتيبة السابعة المشاه برتبة المقدم «بكباشى» وفى منطقتى سيتم تسلم المعسكر (الشلوفة) أول معسكر نتسلمه من الجيش البريطانى .. وجاء «جمال عبد الناصر» ليرفع عليه العلم المصرى ، وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى رأيت فيها «جمال عبد الناصر» يبكى حين كان يقبل العلم المصرى قبل أن يرفعه على سارية المعسكر».

....

«وقبلها بليلة كان «جمال عبد الناصر» يبيت فى استراحة شركة البترول فى جبل عتاقة ، وسهر يضحك ويمزح معنا ، وكان فى سعادة لأنه استطاع أن يحقق الأمل الذى عاش من أجله ، وهو إجلاء الانجليز عن مصر بعد احتلال دام أكثر من ٧٠ عاما .. وفى تلك الليلة التفت إلى أحد القادة الكبار المرافقين له وسأله : «هو أحمد إسماعيل أترقى عقيد والا لسه؟» فأجابه :« أيوه ياأفندم اترقى.. والنشرة العسكرية حاتطلع بكره الصبح» فالتفت «جمال» ليقول لى ضاحكا :«أبسط ياعم وروح بأه إلبس عقيد» ، فقلت له وأنا أداعبه أيضا : «أنت بتسأل على النشرة علشانى» والا علشان تعرف سيادتك حاتترقى عقيد أمتى؟» .. وكان فى ذلك الوقت رئيسا للجمهورية...»».

ويشير المشير أحمد إسماعيل فى حديثه مع حسين قدرى إلى حرص الرئيس جمال عبدالناصر على مجاملته وحضور حفل زواج ابنته نرمين فيقول:

وكان الرئيس «جمال عبد الناصر» حريصا جدا على مجاملة زملاء دفعته ولا

يشعرهم بأنه انفصل عنهم .. فعند زواج ابنتى نرمين عام ١٩٦٦ أصررت على أن تدعو الرئيس «جمال عبد الناصر» لحضور فرحها، فكتبت له دعوة شخصية وتركت له تحديد موعد عقد القران فى اليوم الذى يجد نفسه غير مشغول فيه ، هذا إذا كان يوافق على حضور الفرح أصلا .. وأوضحت له أننى أعلم عظم مشغولياته ومسئولياته وأعذره مقدما إذا اعتذر .. وبعدها بأيام كنا فى المطار فى استقبال ضيف كبير ، فقال لى الرئيس: «طبعا حاحضر الفرح ياأحمد ياإسماعيل ، ولو ما كنتش عزمتنى كنت أزعل منك».. وحدد هو بنفسه اليوم بعد ذلك ، وكان يوم أربعاء ، قبله بـ ٢٤ ساعة فقط، فطبعت الدعوات فى يوم واحد ووزعناها كلها فى نفس اليوم .. ثم علمت أن الرئيس الجزائرى «هوارى بومدين» الذى كان يزور مصر فى ذلك الوقت ،سيلقى خطابا فى مجلس الأمة فى مساء نفس يوم الأربعاء الذى سيكون فيه فرح ابنتى ، فاستسلمت للأمر الواقع وهيأت نفسى لتلقى اعتذار الرئيس «جمال» عن حضوره الفرح ، وعذره معه طبعا .. ولكنه كان حريصا على وعده ، فبعد انتهاء «بومدين» من خطابه جاء الرئيس ليحضر فرح ابنة زميله ويشهد على عقد زواجها بنفسه .. ويبقى بيننا حوالى ساعة ونصف تحيط به كل القلوب التى أسرها تواضعه ورقته ولطفه ومجاملته .. واعتبرت أنا ، واعتبر كل الزملاء ، حضوره الفرح تكريما من الرئيس لكل زملاء الدفعة التى هو منها».



على أن أهم ما يتضمنه حديث أحمد إسماعيل لحسين قدرى عن علاقة المشير أحمد إسماعيل بالرئيس عبدالناصر هو ما يرويه المشير عن مشاعر الرئيس عبد الناصر يوم استشهاد عبدالمنعم رياض:

«... وأذكر حتى الآن أحد مواقفه الغريبة التى شهدتها بنفسى وكنت طرفا فيها: كان ذلك فى مساء ٩ مارس عام ١٩٦٩ ، اليوم الذى استشهد فيه الفريق أول «عبد المنعم رياض» فى جبهة القتال، وكنت أول من تلقى الخبر المؤلم ، فأبلغت به وزير الحربية الفريق أول «محمد فوزى» الذى كان فى ذلك الوقت يحضر اجتماع مجلس الوزراء برئاسة الرئيس «جمال» .. فجاء الفريق أول «فوزى» إلى القيادة

العامة للقوات المسلحة على الفور لنتباحث فى الأمر وفى الموقف ... وبعد لحظات فوجئنا بالرئيس «جمال عبد الناصر» يدخل علينا دون أى ترتيب سابق ودون إبلاغنا بنيته للحضور ، وبعد أن قدم لنا العزاء، واطمأن على شيء يتعلق بالجبهة وبتكريم الشهيد «رياض» التفت إلى ليقول : «أنت زعلان ليه ياأحمد ياإسماعيل ؟ رياض مات شهيد ، ودى أحسن موته يتمناها رجل عسكرى .. ومش المهم دلوقتى أننا نستسلم للحزن، المهم إننا ننتقم لاستشهاده »..



ومن أبدع ما يمكن فى تصوير شخصية أحمد إسماعيل أن ننقل فقرات من المقال الذى كتبه الاستاذ على أمين فى رثاء أحمد إسماعيل تحت عنوان «القائد الذى انتصر».

يقول الأستاذ على أمين:

«كنت أتمنى أن يعيش معنا بضع سنوات أخرى. فقد كان أول قائد مصرى منتصر منذ الملك «أحمس»! رمسيس الثانى كان «شاطرا».. حولت دعايته الممتازة هزائمه إلى انتصارات وهمية ! صلاح الدين لم يكن مصريا ! إبراهيم باشا كان ألبانيا ! ولكن أحمد إسماعيل كان مصريا مائة فى المائة. كان مصريا فى ذكائه ، وسرعة خاطره ، وخفة دمه .. وحبه للنكتة المصرية. وكان فلاحا مصريا فى وفائه ، وإخلاصه ، واعتزازه بأرضه . وكان فارسا... »، وإصراره على أن يسلط الأنوار على الذين اشتركوا معه فى صنع المعجزة وكان إنسانا مثاليا فى معاملاته، وتصرفاته ، وقراراته، وقال لى الرئيس السادات إن قوة شخصية أحمد إسماعيل ظهرت فى وقت مبكر .. وهو تلميذ فى الكلية الحربية . فقد توقع زملاؤه أن يصبح هذا الشاب فى يوم من الأيام قائدا ممتازا ،وقد كان محبوبا رغم حزمه ، وإصراره على تنفيذ الأوامر العسكرية واحترام التقاليد الحربية».



أما حياة الرجل الاجتماعية فقد كانت بلا شك من أهم العوامل التى ساعدته على النجاح فى حياته، بما هيأته له من الاستقرار النفسى، والراحة الوجدانية، وقد تزوج - رحمه الله - فى أوائل الأربعينات من السيدة سماح على الشلقانى، وكان والدها طبيبا فى الزمالك وقد توفى فى صباها، كما توفيت والدة أحمد إسماعيل فى صباه، فكان لزوجته بعد زواجهما بمثابة الأب والزوج، وكان له منها الزوجة والأم، وقد رزقهما الله بابنين وثلاث بنات هم: الدكتور محمد الذى ختم حياته الدبلوماسية بتولى منصب السفير المصرى فى سوريا، والسيدة سها زوج اللواء المعتز محمود أمين، والسيدة نيرمين زوج الدكتور أحمد عبد اللطيف رمضان الأستاذ بطب الأزهر، والدكتور محمود سيف إسماعيل الأستاذ بمعهد الأورام القومى بجامعة القاهرة، والسيدة دينا زوج الدكتور حسن القلا وكيل وزارة الصحة.

وكان المشير - عليه رحمة الله - لا يخص بيته إلا بالشطر الأقل من وقته، إذ كان حريصا على تناول الإفطار بين ضباطه وجنوده، وكان حريصا أيضا على أن يعود إلى وحدته بعد الغداء مباشرة، وكان كلما ترقى فى رتبته زاد من الوقت الذى يمضيه فى وحدته على خلاف زملائه، إلا أنه استطاع مع ذلك أن يسلك الطريق القويم فى معاملته لأبنائه عطفا وحنانا، وحزما وعدلا، وتربية وتعليما، وتوجيها وتقويما، فلما كانت آخر مرة سافر فيها إلى لندن للعلاج قال لهم وقد اجتمعوا فى وداعه: اعذرونى إذا لم أعطكم الوقت الكافى.. إننى أشكر أمكم أمامكم لأنها فهمت طبيعة عملى فاهتمت بكم وبتربيتكم أكثر منى، ولقد نجحت فى ذلك».

3

فكره العسكرى

ينبغى لنا أو علينا أن نبدأ هذا الباب بالتنبيه إلى حقيقتين مهمتين يرى القارئ صداهما فى كثير من أبواب هذا الكتاب.

- الحقيقة الأولى هى أن أحمد إسماعيل كان مؤمنا تمام الإيمان بضرورة الحرب التى قادها فى ١٩٧٣ ولم يكن مؤمنا أن من الممكن لبدائل الحرب (من دبلوماسية ومفاوضات ومساع) أن تحقق ما يمكن للحرب أن تحققه.
- الحقيقة الثانية هى أن أحمد إسماعيل بعد الانتصار وفض الاشتباك كان لايزال يؤمن بضرورة حرب أخرى وذلك خلافاً لما كان الرئيس السادات يعتقده من أن حرب أكتوبر هى آخر الحروب فى الصراع العربى الإسرائيلى.



أحب أن أبدأ بالحديث عن الجزئية الأولى من خلال تعبير تلقائى روته السيدة زوجه فى حوارها مع الأستاذة حنان حجاج (الأهرام العربى، ١٩٩٨) حيث قالت:

«منذ اليوم الأول لتولية وزارة الحربية وهو يستعد للحرب والجميع كانوا يعرفون هذا، وبالتحديد منْ يعرفون المشير جيداً ، أذكر على سبيل المثال أقاربنا الذين كان أول تعليق لهم عندما علموا بتوليه المنصب أن الحرب قادمة ولا مجال لأى شيء آخر، هو نفسه كان يرفض أى بديل آخر، وكان لا يخشى أن يقول هذا أمام السادات رغم العلاقة القوية بينهما وبين أسرة السادات وأسرتنا، كان يرفض أى اقتراح أو محاولة للتفاوض، وكان شرطه الأول أن تحدث معركة وننتصر فيها» .



والشاهد أن أحمد إسماعيل كان مؤمنا بضرورة قيام حرب يقاتل فيها الجندى المصرى قتالا حقيقيا ضد العدو ليسترد كرامته، وليرفع الشعب المصرى رأسه عاليا، بيد أن هذا لم يدفع الرجل إلى المخاطرة فى أية لحظة من لحظات الإعداد أو الحرب، فقد كان حريصا كل الحرص على سلامة قواته، وقد عبر عن ذلك بقوله:

«... كنت أعرف جيدا معنى أن تفقد مصر جيشها، إن مصر لا تحتمل نكسة ثانية مثل نكسة يونيو سنة ١٩٦٧ ، وإذا فقدت مصر جيشها فعليها الاستسلام لفترة طويلة» .



فى أثناء قيادة أحمد إسماعيل لحرب أكتوبر ، وفى القيادة العامة، وفى غرفة العمليات كان حرصه على سلامة قواته يغلب حرص بعض مساعديه على الانطلاق فى صحراء سيناء المكشوفة أمامهم.. ومهما قيل بعد ذلك فى هذا الأمر فإن الحقيقة سوف تبقى فى أننا استرددنا سيناء بفضل تلك الخطوات الحذرة المتريثة وأنه كان من الممكن أن نخسر حتى ما هو أعمق من القاهرة لو آثرنا الاندفاع.. وربما يلقى هذا القول كثيرا من عدم الرضا، ولكن الحقيقة التاريخية لا تحتمل المجاملات.

وهذا القول الذى كرره أحمد إسماعيل، هو فى حقيقة الأمر، قول يستحق عليه صاحبه من ثواب الله جل علاه، أضعاف ما يسعنا من تقدير وثناء.



وقد ظل هذا الإيمان يلازم أحمد إسماعيل حتى ما بعد خروجه من المعركة منتصراً، أو قل إنه كان يعبر عن سعادته بما استطاع تحقيقه فى هذا الصدد، فكان يقول:

«إننا حققنا انتصارا مضاعفا لأننى تمكنت من الخروج بقواتى بعد التدخل الأمريكى السافر فى المعركة، وكانت هذه القوات قادرة على الحرب واستمرار القتال، وثابتة فى مواقعها فى شرق القناة».

بل لقد كاد حرص أحمد إسماعيل على سلامة قواته يتحول عند بعض النقاد إلى مثار انتقاد، ولم يكن الرجل يقلل من قيمة رأى هؤلاء، ولكنه كان مصمما باستمرار على المحافظة على سلامة قواته، لأنه يعرف ضخامة الجهد الذى أعطته مصر لإعادة بناء الجيش، وهكذا استطاع أن يوفق بين ما بذل من جهد لا يمكن أن يتكرر بذله بسهولة، وبين تحقيق الهدف من العمليات، وفى هذه الموازنة التى استطاعها أحمد إسماعيل سر من أسرار عظمته، وسر من أسرار ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣.



ومما ينبغى لنا أن نؤكد عليه أن المشير أحمد اسماعيل ـ كان على خلاف الرئيس السادات ـ مقتنعا تمام الاقتناع بأن حرب أكتوبر ليست إلا حلقة من الصراع العربى الإسرائيلى وأن حرباً تالية لابد منها وقد روى مرافقوه فى زيارته الأخيرة للاتحاد السوفيتى أنه كان متعجلا لإتمام صفقات الأسلحة كى يتمكن من خوض هذه الحرب.

كان أحمد إسماعيل من أكثر المؤمنين بأن العرق يوفر الدم، ولهذا كان ميالا باستمرار إلى الإكثار من التدريب كما كان مهتما إلى أقصى مدى بالتربية الميدانية للأفراد وبلياقتهم للقتال، وكان حفيا بإجراء المناورات العسكرية من آن لآخر، وتجهيز مسرح العمليات والتدريب عليه، وتجربة كل خطة قبل تنفيذها مهما كلفت من وقت وجهد ونقد.



على أن أهم ملامح فكر أحمد إسماعيل العسكرى هو إيمانه بقيمة المقاتل وإعلاؤه من قيمته فوق قيمة السلاح وقد كانت هذه عقيدته طوال الفترة التى تولى الاعداد فيها لحرب أكتوبر المجيدة، فقد ظل طوال هذه الفترة يردد على مسامع أفراد العسكرية المصرية فى كل موقع أن السلاح بالجندى، وليس الجندى بالسلاح، ولم يكن غريبا ما أبداه هؤلاء الجنود من ضروب البطولة والفداء فى أثناء حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ حين وقفوا بأنفسهم وجها لوجه أمام الدبابات لا يخافونها وإنما يدمروها بالصواريخ التى كانوا يلقونها بأيديهم عليها.



وكانت مشكلة السلاح تفرض نفسها على أحمد إسماعيل يوماً بعد يوم فلم يحاول أن ينزلق إلى ما انزلق إليه بعض أسلافه من وعدٍ بتوفيره فى قريب عاجل أو اظهار غضبه من السياسات السوفيتية كما أنه لم يلجأ إلى الحديث عن الصعوبات التى تواجهه نتيجة نقص التزويد والتوريد، وإنما بدأ خطة طموحاً بناها على أن يستغل السلاح الموجود أقصى ما يكون الاستغلال، ووطّن نفوس مقاتليه على الاعتماد على هذا السلاح المتوافر لديهم من دون أن يبنوا خططهم على أسلحة تم التعاقد عليها ولم ترد بعد، وهكذا استطاع أحمد إسماعيل أن يفلت بالقوات المسلحة من أن تكون تحت رحمة أى صديق ولو كان فى حجم وقوة الاتحاد السوفيتى.

كان إيمان أحمد إسماعيل بضرورة الحرب لا يحده حد، وكان إذا لفت نظر جنوده إلى الوضع الدفاعي الذي اتخذه جيشنا عبر عن ثقته في أننا لن نخرج من هذه الحالة إلا بجهد القوات المسلحة، وكان الرجل دائم التعبير عن أمله في القضاء على ما أسماه «مرض الخنادق»، يقصد بقاء قواتنا المسلحة في وضع الاستعداد للدفاع، والهرب إلى الخنادق للاحتماء بها من وابل قنابل العدو.



وفيما قبل الحرب، حرص أحمد إسماعيل على تعيين القادة والرؤساء من الضباط الممتازين علما وخلقا من أولئك الذين تمرسوا في القيادات والوظائف حتى وصلوا إلى مراكزهم عن طريق العمل الجاد والخبرة المكتسبة.

ولم يكتف الرجل في اختياره للقادة بذلك فحسب، وإنما حرص على توفير روح الفريق في القيادة المصرية وعملها كطاقم واحد مترابط يكمل بعضه بعضا من دون حساسية ولا تناحر بين القواد بعضهم وبعض، ووفق الله الرجل لما أراد فكان هذا الترابط الكامل بين القيادات المشتركة دعامة أساسية في نجاح خطط العمليات وكفاءة تنفيذها بدقة في توقيتاتها المحددة.



وكانت لأحمد إسماعيل نظرة ثاقبة في اختيار القادة، ويكفي على سبيل المثال ما يجمع عليه المراقبون من اختياره للمشير الجمسي ليكون بمثابة مساعده الأثير، وقد كان المشير الجمسي قد وصل إلى منصب رئيس هيئة العمليات قبل عودة أحمد إسماعيل إلى القوات المسلحة، لكن أحمد إسماعيل فضلاً عن تمسكه به أعطاه من الصلاحيات والثقة ما جعله مؤهلا ليكون رئيس للأركان معه وليكون خليفته، ولم يكن غريباً أن الجمسي كان رئيسا للأركان في الجبهة عندما كان أحمد إسماعيل قائداً لها عقب حرب ١٩٦٧.

كذلك فقد حرص أحمد إسماعيل على تعيين وزير للانتاج الحربى مع تعيينه وزيراً للحربية وقائد عام للقوات المسلحة وكان هذا الوزير هو الفريق أحمد كامل البدرى.

وعلى مستوى قادة الإدارات الجيوش والفرق كان أحمد إسماعيل موفقاً إلى حد بعيد، وكان محظوظاً حين أتيحت لهذه المواقع قيادات كان قادراً على التعاون معها وكانت فى اختياراته لمحة إيمانية من لمحات الذين يتصرفون بالبصيرة، ومن ذلك ما يرويه اللواء فؤاد عزيز غالى فى حديثه للأهرام العربى (١٩٩٨) حيث يقول:

«عندما تولى المشير أحمد إسماعيل وزارة الدفاع كان قد صدر قرار بنقلى من قيادة الفرقة ١٨ التى كنت أتولى قيادتها من عام ١٩٧٠، لأشغل منصب مساعد قائد الجيش الثانى، لكن فى أول اجتماع للمشير معنا كقادة فوجئت به يقول لى: «يافؤاد أنا أعرف أنك لا تنفذ قرار نقلك كمساعد لقائد الجيش الثانى، أنت مكتوب على وجهك القنطرة، وأنا لن أتركك إلا بعد أن تحررها».

«وقد قال لى المشير إسماعيل هذا الكلام وهو يعلم أننى من القادة الذين أمضوا مدة خدمتهم كاملة فى التشكيلات الميدانية من ملازم ثان إلى رتبة لواء وقضيت ٢٢ عاما فى سيناء، كنت أتردد خلالها ذهابا وعودة على مدينة القنطرة، وجمرك القنطرة، الذى كان موجودا فى ذلك الوقت».



وكان أحمد إسماعيل يحرص على أن يشارك جنوده فى حياتهم العسكرية، وكان كثيرا ما يزور معسكراتهم ومناطق تجمعهم حتى فى المواقع الأمامية الخنادق والملاجئ تحت الأرض، وكان يصرُّ على أن يشارك الجنود طعامهم

الذى يأكلونه فى الميدان دون تمييز، وكان يبدى اهتماما كبيرا بملابس الجنود ومهماتهم ويتأكد من وصولها لهم فى الأوقات المحددة، ويوصى بزيادتها وتطويرها عند الحاجة، وكثيرا ما كانت الشئون الإدارية تستأثر بفترات طويلة من وقته ولكنه كان مهتما بها مقدرا أهميتها ومثنيا دائما على جهود رجالها، أما المرضى والمصابون فكانوا يحظون بزيارته وعنايته وتوصياته واهتمامه بعلاجهم فى الخارج متى اقتضى الأمر ذلك، ولم يكن ذلك كله إلا تطبيقا منه للمبدأ الذى آمن به من أن **الجندى المقاتل هو أثمن سلاح فى المعركة.**



لم يقيد أحمد إسماعيل نفسه بمفهوم من مفاهيم الحرب التقليدية، ولا بالآمال الطموحة فى الحرب الشاملة التى تبيد وترمى فى البحر، ولا بالحرب القاضية التى لن تترك رجلا فى إسرائيل على قيد الحياة، إنما كان يضع فى ذهنه واعتباره عاملا أخطر من هذه العوامل هو عامل «الزمن»، وكان الرجل يصدر فى تقديره لعامل الزمن عن مشاركة الرئيس أنور السادات فى فهم عميق لكل أبعاد المعركة والموقف مع إسرائيل، وأمام العالم.

وكان الرجلان فى تقديرهما لعامل الزمن ينظران بثاقب نظريهما إلى الحالة المتجمدة التى وصل إليها الموقف العربى، وهى الحالة التى سميت باللاحرب واللاسلم، ولم تكن خطورة هذه الحالة تكمن فى عملية الاستنزاف المستمرة الناشئة عنها، ولا فى حالة القلق المترتبة عليها فحسب، وإنما كان الأمر الأهم والأخطر فى هذه المشكلة، هو احتمال استمرار هذه الحالة على ما هى عليه، وعندئذ تتجمد القضية العربية، ويضيع الحق العربى تبعا للأمر الواقع، ويأخذ الاحتلال الإسرائيلى شكلا طبيعيا بالتقادم.



كان لا بد إذاً من كسر حالة الجمود هذه، ولم يكن هذا ليتأتى من دون حرب،

ولم يكن هناك خلاف على هذه الفكرة، ولكن الخلاف تركز وتكرر حول إمكاني
قيامنا بهذه الحرب، هل نستطيعها أو لا؟

وكان الرئيس السادات مؤمنا كل الإيمان بأننا نستطيعها، ونستطيع الإعداد لها وكان أحمد إسماعيل - كما قال الأستاذ مصطفى أمين - هو ذلك الرجل الذى رأى النور مع أنور السادات فى أحلك ساعات الظلام، كان هو الرجل الذى آمن بنظري أنور السادات العجيبة «بأن شجاعة الجندى المصرى ممكن أن تعوض مصر عم ينقصها من الأسلحة، وأن كل أسلحة الدنيا لا تنصر الأرواح الضائعة، فكان ندا «الله أكبر» سلاحا له قوة الدبابات والطائرات والصواريخ.



ونحن ندرك مما يرويه المشير الجمسى فى مذكراته كيف تمتع أحمد إسماعيل برؤية عسكرية واضحة منذ الأيام الأولى لتوليه القيادة العامة للقوات المسلحة ووزارة الحربية، فقد كان كما ذكرنا واعياً لقيمة السلاح المتاح ومقدرته حتى وإن كان هناك سلاح أكثر تقدماً منه، كما كان واعياً لأن توضع الخطط لتتناسب مع السلاح المتاح والإمكانات المتاحة من أجل تحقيق الهدف المطلوب.. وهى فلسفة بسيطة وسهلة، ولكن أحداً من المدعين الكثيرين الذين تناولوا هذه الفترة لا يحبذها وإنما يحبذ البدء بالخطط والطموح والانتظار حتى تتوافر لها إمكاناتها، ومن ثم ندور فى حلقة مفرغة كلما توافرت الإمكانات فاجأنا التقدم العلمى بما هو أكثر تقدما:

يقول المشير الجمسى فى مذكراته:

«وفى حديثه [الضمير يعود على المشير أحمد إسماعيل] معى خلال هذه المقابلة، كان مقتنعا بأن فى يدنا سلاحاً، وسلاحاً جيداً، إلا أن المناخ العام شكك فى حجمه وشكك فى نوعيته. واستطرد قائلاً: «إننى أعترف بأن هناك أسلحة ومعدات أكثر تقدما عما لدينا فى بعض التخصصات ولكن من قال إن السلاح

الذى فى يدنا انعدمت مقدرته لأنه غير كفء أو غير متطور؟. إن من يقول ذلك يستهدف عن قصد إيجاد ذريعة لعدم القتال ».

....

«وعلى أى حال ، ومهما كانت الأسباب ، فإنه يجب أن نراعى عند تخصيص المهام للقوات أن تتناسب وطبيعة الأسلحة والإمكانيات المتاحة لنا ، وأن نضع الخطط التى تكفل لنا أحسن أداء لأسلحتنا ومعداتنا».

....

«وباختصار شديد يمكن أن نضع أفضل الخطط حسب الظروف والإمكانيات المتاحة لنا ، ويمكن بتلك الخطط أن نحقق مهامنا القتالية».



على هذا النحو لخص المشير الجمسى فلسفة المشير أحمد إسماعيل كقائد عام، ومن الواضح أن الجمسى مقتنع تمام الاقتناع بجدوى هذه الفلسفة وبأثرها فى تحقيق كفاءة القوات المسلحة وقدرتها على تحقيق الهدف المطلوب منها.



ويشير الجمسى فى مذكراته إلى بيان وجهة نظر المشير أحمد إسماعيل ووجهة نظره هو فى تعاون الجبهات العربية فى القتال فيقول:

....

«وانتقل [الحديث يعود على المشير أحمد إسماعيل] بحديثه عن الجبهة السورية وقال: « لقد هالنى ماقيل عن عدم إمكانية تحقيق أى تعاون أو تنسيق بين سوريا ومصر. إن البلدين يشكلان فكى كماشة تطبق على العدو كالبندقة ، وتستطيعان شل حركته. وهما دولتان عربيتان بينهما تاريخ بعيد مشترك ، وتاريخ قريب

ممتد، وتربطهما اليوم مصالح واحدة ، ويجمعهما معا هدف واحد. والإنسان العربى فى سوريا مثله مثل الإنسان العربى فى مصر: كفء وقادر على البذل والعطاء ... لماذا إذن تلك الهواجس والشكوك ؟».



كان أهم شيء يتمناه أحمد إسماعيل بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، هو أمله فى أن يرى العرب وقد أصبحت لهم قاعدة صناعية حربية واسعة تعزز أمنهم فى عالم تسوده الوحوش، وقد مات أحمد إسماعيل وهو يود لو رأى طائرة عربية ودبابة عربية، وسلاحا عربيا، وقد كرر الرجل للصحفيين مرة بعد مرة قوله إنه كله أمل فى أن يقتنع الجميع بأهمية سرعة تحقيق هدف إقامة قاعدة الصناعة الحربية العربية إزاء الإيقاع السريع المتطور للعالم.



وقد لا يمكن لنا فى مثل هذا الباب الإحاطة بجوانب كثيرة من مكونات فكر أحمد إسماعيل العسكرى، ولكننا نستطيع أن ندرك مدى ما كان هذا الفكر يتميز به من خلال ما نقرؤه فى مذكرات القادة الذين كانوا قريبين منه فى أثناء إدارته للمعارك.

ومن المهم أن نتأمل على سبيل المثال بإمعان مدى الولاء والحب الذى يدين به المشير الجمسى للمشير أحمد اسماعيل فهو حريص على أن يذكر فضله وجهده فى أثناء الحرب وقبيل اندلاعها مع أنه كان فى وسعه أن ينسب بعض هذه المواقف الشجاعة والمحنكة إلى نفسه أو إلى مجموعة القادة أو أن يتجاهل دور أحمد اسماعيل كلية ، ولكن الجمسى بما يتميز به من خلق رفيع وعسكرية ملتزمة يضرب لنا المثل الرائع فى الولاء والوفاء والانتماء.

كذلك فاننا نجد اللواء عبدالمنعم خليل فى كتابه «فى قلب المعركة» وهو يتحدث عن المشير أحمد إسماعيل بحب حقيقى ، ولكنه يضيف إلى صورة شخصيته

المرسومة فى تصورنا، بعض الرتوش المهمة، فهو يراه قد تعلم وعلمته الأيام والأحداث التى سبقت بحيث أصبح محنكاً (جداً) بما فيه الكفاية، كما أنه يشير إلى مدى الانضباط الذى كان عليه وإلى جهده فى المرور على التشكيلات فى مرابضها وساحات التدريب، وكيف كان القائد العام قدوة لقادة التشكيلات فى جميع الأفرع وهو يقول:

«... أما القائد العام [أى المشير أحمد إسماعيل] فقد وضع كل خبراته فى المعاونة مع حوارييه ومرءوسيه فى رسم الخطة، التى تحقق للقائد الأعلى أكبر قدر من الثقة فى قدرته على إدارة دفة الإعداد للقتال وتنفيذ المخطط المحدد حسب القدرات والإمكانيات المتاحة، فقد تعلم وعلمته الأيام والأحداث التى سبقته، قبل جلوسه على رأس القيادة العامة للقوات المسلحة الانضباط فى تنفيذ الأوامر والتوجيهات الأعلى».

«وبدأ القائد العام فى المرور على التشكيلات فى مرابضها وساحات تدريبها، للتأكد من تفهم الجميع للواجبات المكلفين بها، وكيفية تنفيذها بعناية، وسار على نهجه قادة التشكيلات والوحدات فى جميع أفرع القوات المسلحة».



ويخصص اللواء عبدالمنعم خليل فى كتابه ملحقاً للحديث المختصر عن المشير أحمد إسماعيل [وقد فعل هذا أيضاً مع كل من الفريق أول عبدالمنعم رياض، والفريق أول محمد فوزى، والفريق أول محمد أحمد صادق، والفريق سعد الشاذلى، والفريق عزيز المصرى، واللواء عباس عبدالحميد، واللواء على عبد الخبير، واللواء عبد الرحمن فهمى، والعميد أحمد حمدى].

ويعطى عبدالمنعم خليل لهذا الملحق الذى لخص به وجهة نظره فى أحمد إسماعيل عنواناً فى فهرس الكتاب: «رجل دخل التاريخ» ولك أن تقارن هذا بعنوان الحديث عن صادق والشاذلى «رجال أحبوا مصر» أو على عبدالخبير «رجال وهبوا

حياتهم فى حب مصر، أو رياض وفوزى ،من قادة مصر المعاصرين، أو عزيز المصرى وعباس عبدالحميد ،رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه،.

ويدلنا اختيار هذا العنوان على مدى تقدير عبدالمنعم خليل للمشير أحمد إسماعيل وإن كان هذا العنوان قد ورد فى فهرس الكتاب فقط ولم يرد فى صلب الكتاب.



ويحرص اللواء عبدالمنعم خليل فى حديثه عن أحمد إسماعيل أن يورد القصة التالية:

،فى جلسة المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ٤ مارس ١٩٧٥، تكلم الرئيس السادات عن معركة أكتوبر وعن المشير أحمد إسماعيل على بعد وفاته قائلاً:

،هذا أول اجتماع بعد المعركة وبعد فقد المشير أحمد إسماعيل يهمنى أن أقرر أن هذا الرجل فى عمله وما أداه وما تحمله كان مثالا للجندى المصرى ومثالا للمعنى الجديد للعسكرية المصرية، وكان يؤمن بالمقاتل المصرى حيث فقد الكثيرون الثقة، فى فترة ما، فى قدرة المقاتل المصرى أو المقاتل العربى بصفة عامة. أما أحمد إسماعيل فمن أكتوبر ١٩٧٢ إلى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ إلى ما بعد المعركة إلى أن توفى، كان مثالا حيا للجندى المنضبط المؤمن بالمقاتل المصرى، وإننى أحيى ذكراه فى هذه المناسبة ونحن نجتمع بدونه.

نقف دقيقة تحية لذكراه.

وقرأنا الفاتحة على روحه،

ثم يردف اللواء عبدالمنعم خليل بقوله:

،وكان القائد العام للقوات المسلحة المصرية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ضابطا ملتزما بالانضباط العسكرى، فمنذ حياته العسكرية الأولى، سلك طريق الالتزام

وهو يوزباشي [نقيب] رئيس عمليات الكتيبة الثانية مدافع الماكينة المشاة، وهو مدرس في مدرسة المشاة وكلية القادة والأركان، والكلية الحربية، حيث شغل منصب كبير المعلمين، ثم في قيادته لوحدات المشاة وتشكيلاتها، إلى أن وصل إلى منصب قائد الجيش الثاني بعد نكسة ١٩٦٧، ثم رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية إلى أن نحاه الرئيس عبدالناصر من منصبه بعد حادث الزعفرانة».



ومع أن اللواء عبدالمنعم خليل لا يبدو متعلق الوشائج بأحمد اسماعيل أو مع أنه لا يعبر (كالجمسي في مذكراته) عن أنه (أي أحمد إسماعيل) كان بمثابة القائد الوحيد في ذلك الوقت الكفيل بقيادة الجيش المصري إلى الحرب فإنه في الحقيقة يثبت للفريق أحمد إسماعيل ماهو أهم من هذا كله وهو وضوح الرؤية منذ مرحلة مبكرة جداً من توليه المنصب:

يقول عبدالمنعم خليل:

«قال الفريق أول أحمد إسماعيل على وزير الحربية والقائد العام الجديد في أول لقاء له مع قادة القوات المسلحة يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٢:

«نحن نأخذ توجيهات من القيادة السياسية لا تقبل المناقشة، ونحن لا نملك المعارضة في مثل هذه الأمور، فنحن عسكريون فقط، ويجب أن نفهم أن واجبنا حماية مصر ودراسة العدو أمامنا، وقيادة جنودنا ومعرفة مشاكلهم والسيطرة عليهم».

ومع هذا يحرص عبدالمنعم خليل - لأسباب بروتوكولية في الغالب - على أن يذكر للقارئ مخالفته لأحمد إسماعيل فيما ذهب إليه من أن سلفه الفريق صادق كان ينزع إلى عدم القتال حيث يقول:

وفى نهاية الحديث قال - أى أحمد إسماعيل - إن الفريق صادق كان مكلفاً ببعض المهام ولم ينفذها، وهناك نزعة فيه إلى عدم القتال ونحن عسكريون نؤمر فننفذ. ومن وجهة نظرى (أنا عبدالمنعم خليل) أمام الله والتاريخ أن الفريق أول صادق كان راغباً فى القتال، ولم يظهر لنا منه خلاف ذلك».



وبالاضافة إلى القادة العسكريين فإننا نلاحظ أن أبرز رجال الدولة المعاصرين لأحمد إسماعيل ينطلقون فى تقييمهم لشخصيته وفكره من بدايات إيجابية، وعلى سبيل المثال فإننا نجد محمد حافظ اسماعيل فى مذكراته «أمن مصر القومى فى عصر التحديات» وهو لا يتحدث عن المشير أحمد اسماعيل إلا بفخر حقيقى على الرغم من أن الرجلين على ما يرويه الفريق عبدالمنعم خليل فى مذكراته «فى قلب المعركة» كانا محل اختيار السادات كفرسى رهان ليختار أحدهما وزيراً للحربية، وعلى الرغم من أن أحمد إسماعيل كان الخلف الثانى (وليس التالى) لمحمد حافظ إسماعيل فى رئاسة المخابرات (تولى المنصب فيما بينهما أحمد كامل) ولكن المشاعر الوطنية والرؤية المنصفة لحافظ إسماعيل تجعله يتسامى إلى الحد الذى يثبت فيه لكل صاحب فضل فضله، ومع أن محمد حافظ إسماعيل فى موضع من مذكراته سنتناوله فى الفقرة التالية مباشرة ينتقد فى هدوء سياسة أحمد إسماعيل فى الأيام التالية من حرب أكتوبر إلا أن هذا الانتقاد الهادىء لسلوك ما لا يؤثر على تقديره للمشير أحمد إسماعيل، وهو يقول :

«... ولقد عرفت الفريق إسماعيل منذ عشرين عاماً عندما كان طالبا فى كلية أركان الحرب ، حيث اكتسب تقدير هيئة التدريس لما لمسته فيه من حسن تقديره للمواقف وترتيب مواجهتها، فرشحته ليكون على رأس زملائه عن استحقاق. وفى الأعوام التالية ، أصبحت للفريق إسماعيل خبرات ميدانية هامة . انتهت بقيادته لقوات جبهة السويس عام ١٩٦٧ ، إلى أن عين رئيساً لهيئة أركان الحرب . كما

كان الفريق إسماعيل جنديا من قمة رأسه حتى أخمص قدمه ، الأمر الذى أكسبه ثقة الرئيس وأعاد الاستقرار إلى علاقات القيادة السياسية والمؤسسة العسكرية .. وفى داخل هذه المؤسسة ».



بقيت نقطة مهمة فى الحديث عن فكره العكسرى، ذلك أنه حتى وفاة المشير أحمد إسماعيل فى ديسمبر ١٩٧٤ لم تكن الكتابات عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد بدأت فى الازدهار ولا الانتشار، ولهذا فاننا لا نجد فى المكتبة العربية كتبا كثيرة شارك أحمد إسماعيل فى تأليفها أو مراجعتها أو حتى بتقديمها، حيث تستطيع أن تكون بعض الملامح عن فكره من خلال ما يصرح به فى المقدمات أو التصديرات التى تعكس وجهة نظر القادة الكبار وملامح فكرهم بطريقة ما، ولعل أبرز الكتب القليلة التى صدرت فى الفترة القصيرة التى عاشها أحمد إسماعيل بعد تحقق النصر هو كتاب مذكرات عادل يسرى، وقد كتب أحمد إسماعيل مقدمته، وقد اقتصرت هذه المقدمة على فقرة بسيطة معبرة بدقة ومتحسبة وحذرة بما ينبىء عن طبيعة خلق هذا المشير العظيم:

«هذا الكتاب يحكى بأسلوب سهل وبسيط قصة حرب أكتوبر ١٩٧٣ من خلال قيادة كاتبه العميد أ.ح. عادل يسرى.. لقد كان كاتبه قائداً لإحدى الوحدات التى اقتحم بها القناة فى الموجات الأولى. فكاتبه عاش معركة الإعداد للمعركة كاملة.. وقاتل فى معارك أكتوبر ١٩٧٣ بشرف وبطولة وفقد ساقه أثناءها. ويعتبر هذا الكتاب من أهم المؤلفات العسكرية التى كتبت عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ على مستوى أحد أبطالها من قادة الوحدات، تلك الحرب التى صنع الإنسان المصرى أمجادها، والتى تأكد أثناءها أن مساندة الشعب لقواته المسلحة أثناء القتال من أهم أسباب النصر».

4

ما بين ١٩٦٧ و١٩٦٩:
قائداً للجبهة
ورئيساً لهيئة العمليات
ورئيساً للأركان

أحب أن أبدأ هذا الباب بأن أوكد على عقيدتى فى أن أمجد سنوات حكم الرئيس جمال عبدالناصر كانت هى تلك السنوات ما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٠ حين واجه الواقع والحقائق وبذل جهده من أجل إزالة آثار العدوان.

وأنتقل من هذا مباشرة لأشير إلى رأيى الذى كررته فى أن حرب الاستنزاف كانت بمثابة ميدان التجريب الذى هدى قيادتنا إلى شن حرب أكتوبر بالطريقة التى شنت بها..

وأنتقل من هاتين الفكرتين المهمتين لأشير إلى أن دور أحمد إسماعيل وفضله فى هذه الفترة كان من أهم الأدوار وأمجدها على الإطلاق، وهو فضل لم ينتبه إليه أحد فى ظل الحديث الدعائى عن هذه الفترة الذى يصفها بما ليست فى حاجة إليه لأنها كانت فترة مجيدة من فترات تاريخنا، وقد حفلت بالإنجازات الهادئة التى لم تكن فى حاجة إلى ألفاظ براقة لاتزال هذه الفترة تُظلم بها دون أدنى مبرر إلا محاولة لفت النظر عن المجد العظيم الذى حققه جيشنا الباسل فى أكتوبر ١٩٧٣ .

وقعت النكسة على نحو ما نعرف فى يونيو ١٩٦٧ وتأثر أحمد إسماعيل بالطبع أشد التأثر، وانعكس ذلك على نفسيته وسلوكه وعلاقاته، فكان يرفض الخروج إلى أى مكان حتى تزول آثار الحرب، وتولى أحمد إسماعيل قبل مضى شهر على النكسة قيادة الجبهة فى أعقاب الحرب، فأسس أول خط دفاعى فى الضفة الغربية لقناة السويس، وقاد أولى المعارك وأكبرها بعد حرب يونيو فى رأس العش والجزيرة الخضراء، وشارك فى وضع خطة إغراق المدمرة إيلات، وكان لإغراق هذه المدمرة أكبر الأثر فى رفع الحالة المعنوية للمقاتلين والشعب على حد سواء، ولم تكن معركة رأس العش فى الواقع إلا بداية تطويرنا للبناء، ذلك أنه كان يدرك تمام الإدراك مدى معاناة الجيش من حالة نفسية صعبة مردها أنه لم يأخذ فرصته ليقاتل فى يونيو سنة ١٩٦٧ ، وكان لا يفتأ يؤكد أن الجيش المصرى لم يهزمه اليهود فى ٥ يونيو، وإنما هزمه الذين أرسلوه إلى المذبحة بغير خطة وبغير استعداد، وحدث أن الرئيس جمال عبد الناصر اتصل به ذات مرة وقال له إن الأمم المتحدة ترجو أن نوقف الضرب، واستمهل أحمد إسماعيل الرئيس الراحل قائلا: «أمهلنى ساعتين حتى نتم معركتنا، وبعدها نوقف الضرب».

كان اللواء أحمد إسماعيل قد تولى رئاسة هيئة تدريب القوات المسلحة أيضا فى الرابع عشر من يونيو سنة ١٩٦٧ حين أعيد تشكيل القيادة بعد النكسة مباشرة، ولكنه لم يمكث فى هذا المنصب إلا أسبوعين ريثما تمت إعادة تنظيم القوات المسلحة بعد الحرب، وأسندت إليه فى أول يوليو سنة ١٩٦٧ قيادة المنطقة العسكرية الشرقية وقيادة الجبهة.



ومما نحبذ تكرار الإشارة إليه أن أحمد إسماعيل كان فى طليعة القادة الذين تمكنوا من أن يحولوا الفشل الذريع الذى وقع فى يونيو ١٩٦٧ إلى بدايات نجاح وبشائر صمود ونصر، ولم يكن هذا النجاح فى مثل هذا التحويل إلا نتيجة

لاستيعاب الأخطاء عقب حدوثها دون تبرير ودون تحميل للخطأ بغير ما يحتمل، وفي هذا الصدد فأنى أود للقراء أن يعودوا خطوتين للوراء ويطالعوا معى ما يرويه المشير الجمسى فى مذكراته عن طبيعة الأوضاع التى كانت تسيطر قسراً على القيادة فى الفترة السابقة على حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ حيث يقول:

«... ودارت مناقشة بين اللواء أحمد إسماعيل والفريق أول مرتجى أمامى فى مركز القيادة المتقدم عن دور هذا المركز فى الحرب ، وانتهت المناقشة إلى أن هناك قائداً عاماً واحداً هو المشير عامر ، وأن إدارة الحرب تتم بواسطة القيادة العامة ، وبالتالى ليس مطلوباً منا أن نتخذ القرارات التى قد تؤثر على خطة القيادة العامة ، ولا أن نصدر تعليمات لأننا غير قادرين على متابعة تنفيذها ، وليس لدينا قوات احتياطية نؤثر بها على المعركة لأن قيادة الجيش الميدانى تقود جميع قوات سيناء ، ولذلك فإن المركز قد فتح ليعمل منه القائد العام المشير عامر عندما يصل إلى سيناء للقيادة والسيطرة فى بعض المواقف أثناء إدارة العمليات كما هو معروف».

و يستأنف الجمسى حديثه فى هذه الجزئية فيطلعنا على حقيقة الفهم العسكرى الجيد (وغير المجدى فى ذات الوقت) الذى دارت من خلاله مناقشات الفريق أول مرتجى مع اللواء أحمد إسماعيل حول دور المركز المتقدم، وإنا بدا نفهم أن المناصب الكبرى الكثيرة التى قد تضفى على أصحابها أهمية لا تضمن فى النهاية نجاحاً فى معركة ولا نصراً فى حرب، بل على العكس فإنها قد تصيب القيادة والحركة بكثير من التشويش، ومن الطريف أن الفريق أول مرتجى واللواء أحمد إسماعيل كانا واعيين تماماً لمثل هذا، ومع هذا فقد تقبلا هذا الوضع الشاذ على فرض أنه سيكون للمركز الذى يجمعهما دور ما فى مرحلة متقدمة حين يأتى إليه القائد العام الكبير المغوار ليدير منه بعض المعارك!! إلى هذا الحد كان هؤلاء القادة المحترفون يكادون يؤمنون بأن فى إمكان عبدالحكيم عامر أن يقود معركة أو

حربيا؟ وهل أصابتهم الغشاوة فجعلتهم يظنون أن العلم العسكرى قد يتأتى للمشير لأنه مشير فحسب دون أن يكون قد درس وتدرب وجدد معلوماته؟

ثم يضعنا الجمسى أمام الحقيقة المرة وهو يعترف بخلاصة ما حدث وما انتهى إليه الاستعداد للحرب وكيف ظل مركز القيادة المتقدم بلا عمل ذى قيمة أو فعالية على الرغم من - وهذا من غرائب القدر ومن سخرياته - أنه كان يضم يومها أكبر قائد فى القوات البرية المصرية (وهو الفريق أول عبدالمحسن مرتجى) ويضم كذلك القائد العام الذى تحقق النصر على يديه فى حرب ١٩٧٣ (وهو المشير أحمد إسماعيل)، فضلاً عن الجمسى نفسه!:

«... وللحقيقة والتاريخ لم يمارس مركز القيادة المتقدم خلال الفترة من وقت إنشائه حتى انتهاء الحرب عملاً ذا قيمة أو فعالية ، بل إن أهم وأخطر القرارات التى اتخذت أثناء الحرب - الانسحاب العام من سيناء - صدرت عن القائد العام إلى قائد الجيش الميدانى (لا يذكر الجمسى اسمه ولكنه كان هو الفريق صلاح محسن)، وجرى تنفيذه دون علم مركز القيادة المتقدم ودون الاستعانة برأى الفريق أول مرتجى فى هذا القرار أو طريقة تنفيذه».



ونعود إلى الحديث عن أحمد إسماعيل بعد ما أصبح قائداً للجبهة يلملم قواتنا المسلحة الموجودة فى الخطوط الأمامية فنجده وقد ضرب المثل والقدوة لمساعديه من القادة فى التقشف والتحمل، فاتخذ لنفسه وهو «قائد الجبهة» مكتبا ميدانيا صغيرا داخل ملجأ بسيط، واستطاع من هذا الموقع أن يبذل جهده فى إعادة بناء القوات المسلحة، فجمع شتات القوات المنسحبة من سيناء، وأعاد تنظيمها وتدريبها وتسليحها، فى الوقت نفسه الذى استطاع فيه مواجهة العدو ومنعه من التمادى فى عدوانه.

ومن أفضل ما يمكن أن يروى فى تصوير دور أحمد إسماعيل نفسه فى إعادة بناء الجيش المصرى بعد هزيمة ١٩٦٧، ما يرويه الفريق أول محمد فوزى بشىء من الإنصاف فى أكثر من موضع فى مذكراته وعلى سبيل المثال فإنه يقول :

«كان أول عمل ميدانى أقوم به بعد معركة يونيو مباشرة هو الإسراع فى تجميع وتنظيم وحدات صغيرة بأسلحة فردية ودفعهم إلى منطقة القناة، حيث قام اللواء أحمد إسماعيل الذى عين قائداً للمنطقة بتوزيع هذه الوحدات بأسلحتها الفردية وما أمكن تجميعه من الأسلحة المعاونة لوحدات المشاة مثل الهاونات والرشاشات المتوسطة والثقيلة، ثم تكونت كتائب مشاة لكل كتيبة قائدها، وتمركزت على الشاطئ الغربى لقناة السويس وبدأت فى حفر الخنادق وإعداد حفر الأسلحة. وتطور هذا العمل بعد أسبوعين إلى تجميع الكتائب إلى ألوية مشاة ، وكانت الصعوبة فى استكمال أسلحة الدعم المعاونة لها من مدفعية ميدان وهاونات ثقيلة ودبابات مشاة، ثم دفع معدات وخامات كثيرة إلى المنطقة لإنشاء المواقع والتحصينات، وظهرت حصيلة هذا الجهد الشاق من القيادة العامة فى القاهرة والقيادة المحلية فى المنطقة التى تمركزت قيادتها فى منتصف المنطقة تقريباً فى «القصاصين». وكانت مهمة الفريق عبدالمنعم رياض رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة فى ذلك الوقت، هى متابعة هذا الجهد يومياً والمرور على الوحدات التى أخذت فى تدعيم تمركزها فى المنطقة ».



وحين يتحدث الفريق أول محمد فوزى عن نشاط البعثة العسكرية السوفيتية وجهدها فإنه يحرص على الإشادة بدور قائدين مصريين هما عبد المنعم رياض وأحمد إسماعيل ويقول :

«وبوصول أول بعثة عسكرية سوفيتية بقيادة الجنرال لاشنكوف الذى ما لبث أن لحق به المارشال زخاروف رئيس هيئة أركان حرب القوات السوفيتية فى يوليو

١٩٦٧، والجهود المركزة التى بذلاها بمعاونة الفريق رياض واللواء أحمد إسماعيل، أمكن إرسال أسلحة الدعم التى وصلت إلى مصر من موانيها البحرية والجوية رأساً إلى منطقة القناة، حيث تم استكمال حاجة ألوية المشاة من الأسلحة المعاونة وأسلحة النيران، كما استكمل تجهيز الفرقة الرابعة المدعومة كأول احتياطى مدرع كامل فى المنطقة، ، ثم بدأت قيادة المنطقة تضع وتنسق خطة النيران فى المنطقة كلها، بعد أن اطمأنت على خطط نيران اللواءات المشاة التى عاونتها وحدات كاملة من المدفعية (الميدان) ووحدات الهاون الثقيل.

كانت السيطرة الكاملة من قيادة المنطقة على مواجهة ١٧٠كم وبعمق ٦٠كم عملية صعبة، فأصبح من الضرورى النظر فى إعادة تنظيم القوات فى المنطقة بشكل آخر يحقق سلامتها وقدرتها الدفاعية على صد أى عدوان عليها من إسرائيل، وتطورت قوات النسق الأول الدفاعى فيما بعد إلى قوات جيشين ميدانيين كاملين توزع مهماتهما على نفس المواجهة مع ازدياد عمقها وتكثيفها. وبدأت المواجهة تأخذ شكلها وحجمها... كما قسمت هذه المواجهة إلى مناطق رئيسة ومناطق فرعية واستكملت السيطرة الميدانية وبدأت قوات المواجهة نشاطها الإيجابى مع العدو».

«ولم ينتهِ شهر نوفمبر عام ١٩٦٧ إلا وكان أول نسق دفاعى غرب القناة مع احتياطى مدرع قليل قد تم إنشاؤه وتمركزه وزال خطر التهديد باحتمال استغلال العدو لنجاحه فى يونيو ١٩٦٧ لعبور قناة السويس وتهديد القاهرة».



ويتحدث المشير الجمسى فى مذكراته عن بعض تفاصيل الدور المجيد الذى قدر له أن يلعبه فى إعادة بناء القوات المسلحة بعد حرب ١٩٦٧، وكيف أن المشير أحمد إسماعيل نفسه هو الذى اختاره ورشحه لهذا الدور مع أنه - مازال حتى كتابة

هذه المذكرات - لايدرى لماذا أبعد أحمد إسماعيل فجأة ولماذا أعيد فجأة ، ولكنه يروى لنا بأمانة وتجرد ما يتعلق به هو شخصيا فيقول :

«وبدأ الظلام ينقشع قليلاً ، وأخذت الأمور تستقر تدريجيا فى القوات المسلحة ، وأعيد اللواء أحمد إسماعيل للخدمة وتعين قائداً للمنطقة العسكرية الشرقية (جبهة قناة السويس) بدلا من الفريق صلاح محسن ، وهى القيادة التى كانت تقود كل قوات القناة قبل أن يشكل منها الجيش الثانى والجيش الثالث فيما بعد. ولم يكن واضحاً لى سبب إحالته للتقاعد وسبب إعادته للخدمة بفاصل زمنى قصير بين القرارين» .

....

«حضر أحمد إسماعيل إلى مكتبى ، وكانت روحه المعنوية تبدو مرتفعة فى الظاهر، ولكن تبدو عليه المرارة فى الداخل ، وكان لنا حديث قصير عن الهزيمة المريرة التى لحقت بالقوات المسلحة ، وأنه آن الأوان لبداية جديدة حتى تجتاز الدولة والقوات المسلحة الكارثة التى لحقت بنا» .

«أخذ يحدثنى عن مسئوليته الجديدة التى يتحملها - قائد جبهة القناة - فى تلك المرحلة الصعبة ، وطلب منى قبول العمل معه ، رئيس أركان جبهة القناة ، لنعمل معاً بنفس روح التعاون التى كنا نعمل بها معاً فى قيادة القوات البرية قبل الحرب» .

«اعتذرت له شاكراً متمنياً له التوفيق ، وموضحاً له أنى قدمت استقالتى من الخدمة وإنى فى انتظار القرار بشأنها ، وإذا لم تقبل الاستقالة سيجدنى معه فى جبهة القناة» .

«وبعد فترة قصيرة صدر قرار وزير الحربية بتعيينى رئيساً لأركان الجبهة . غادرت القاهرة متوجهاً إلى منطقة القناة ، قطعت الرحلة بالسيارة مفكراً فى أحداث الحرب العالمية الثانية وما فيها من أمثلة عن جيوش هزمت ثم استعادت

قوتها وانتصرت، وتركز تفكيرى فى الحروب السابقة بين مصر وإسرائيل والصراع العربى الإسرائيلى بإيجابياته وسلبياته».

ويتحدث المشير الجمسى عن طبيعة العمل الذى استغرقه واستغرق قائده اللواء أحمد إسماعيل فى هذه الظروف الصعبة وغير التقليدية فيقول:

«.. دخلت قيادة الجبهة لأجد اللواء أحمد إسماعيل يجلس وحيداً على كرسى ميدانى من الخشب ، وأمامه مجموعة من الخرائط على منضدة خشبية ، داخل كشك خشبى صغير تحت مجموعة من الأشجار ، بينما ضباط هيئة القيادة موزعون فى الخنادق المخصصة للعمل فى أماكن متباعدة. تلاقت أعيننا ، وفاضت المشاعر ، وجلسنا نتحدث عن الموقف العسكرى فى الجبهة وتحليل أعمال ونوايا العدو المنتظرة، وسرعة إعادة بناء القوات وتدريبها لمواجهة عدو مغرور بتفوقه العسكرى والنصر الذى حققه فى حرب يونيو لأخطاء سياسية وعسكرية ارتكبناها وليس لعمل غير عادى قام به».



وقد نجح المشير الجمسى فى مذكراته فى أن يقدم عرضاً رائعاً لمرحلة الدفاع السلبى التى أعقبت هزيمة ١٩٦٧ ، وقد حقق الجمسى النجاح فى هذا العرض بفضل استغلاله لعقله المرتب فى عرض الأحداث العسكرية الثلاثة فى إطار فلسفى موحد، فهو يرى فى رأس العش معركة برية ناجحة، ثم فى ضربة الطيران المصرية فى ١٤ يوليو عملا جوياً ناجحاً، ثم فى تدمير المدمرة إيلات بالصواريخ سطح/ سطح عملاً بحرياً متميزاً يضاف إلى العملين الأولين لكى يقدم صورة جديدة للمقاتل المصرى بعد ١٩٦٧ :

«لقد كانت هذه المعارك الثلاث وهى معركة رأس العش فى أول يوليو بالقوات البرية ، ومعركة القوات الجوية يومى ١٤ ، ١٥ يوليو ، والمعركة البحرية يوم ٢١ أكتوبر ١٩٦٧ ، إثباتا عمليا على صمود وتصميم قواتنا المسلحة بأفرعها الثلاثة

ـ برية وجوية وبحرية ـ على القتال ، الأمر الذى رفع الروح المعنوية للمقاتلين فى هذه الظروف الصعبة التى كانت تعيد فيه الوحدات تنظيم نفسها ، وتتخذ أوضاعاً دفاعية بالقليل المتيسر من الأسلحة فى ذلك الوقت ، ولم تكن استكملت إنشاء الخطوط الدفاعية غرب القناة ، لقد بدأت هذه المعارك الثلاث بأعمال عدائية من جانب العدو الذى أصابه الغرور ، ولكن النتيجة كانت ذات فائدة كبيرة لقواتنا من الناحية المعنوية تفوق الناحية المادية التى حققتها بنجاح».



وها هو الفريق مدكور أبو العز يحكى باسترسال [ودقة فى الوقت نفسه] تفصيلات ماحدث من معارك جوية بديعة فى يوليو ١٩٦٧ ، وسوف نفاجأ بأن القائد العام الفريق أول محمد فوزى كان ضد مبدأ قيام القوات الجوية بأى هجوم، وأنه رفض طلب قائد الجبهة اللواء أحمد إسماعيل تدخل القوات الجوية فى الحرب. ومع هذا فإن الفريق مدكور أبو العز يثبت فى هذه المذكرات أن أحمد إسماعيل اتصل به مستغيثاً رغم علمه بأن القائد العام لم يوافق له على طلبه بتدخل القوات الجوية، [ولنترك إلى حينٍ وصف مدكور أبو العز لأحمد إسماعيل بالاهتزاز والارتباك وهو يطلب الطلب، ذلك أن مدكور كان مستاء من موقف وقفه معه أحمد إسماعيل بعد ذلك فى عهد السادات وهو مدير للمخابرات العامة]:

«... ومن الصباح الباكر يوم ١٥ يوليو عام ١٩٦٧ كانت تصلنى الأخبار بهجوم شرس قامت به القوات الإسرائيلية على مواقعنا على طول جبهة القتال من بورسعيد حتى السويس، ولما لم تصدر أوامر من القائد العام للقوات المسلحة المصرية للتصدى لهجمات القوات الإسرائيلية الغاشمة، فقد قمت بالاتصال به مستفسراً عن عدم صدور الأوامر إلى القوات الجوية بالتدخل، فأخبرنى بأن الموقف وقتئذ لا يتطلب تصعيد المعركة بتدخل القوات الجوية».

«فآثرت الانتظار إلى حين، وحين انتهت محادثتى مع الفريق أول محمد فوزى

طلبنى اللواء أحمد إسماعيل وكان قائد جبهة القتال وشرح لى الموقف وأفهمنى خطورته «إذا لم تتدخل القوات الجوية فوراً، أحطته علماً بالحديث الذى دار بينى وبين القائد العام، وسألته لماذا لم تتصل به؟ فأجاب بأنه اتصل به وطلب منه تدخل القوات الجوية لكنه رفض الاستجابة إلى طلبه».

«كان اللواء أحمد إسماعيل فى حديثه مهتزاً أشد الاهتزاز، مرتبكاً أشد الارتباك، وكان كثير الإلحاح فى طلبه بتدخل القوات الجوية، الأمر الذى جعلنى أمام الموقف شديد الحساسية الذى شرحه اللواء أحمد إسماعيل، أقرر الاستجابة له، ولم يكن أمامى قرار غيره، فسألنى: وماذا أفعل لو أصر القائد العام على عدم تدخل القوات الجوية فى تلك المعركة؟ أجبته بأننى سوف أتصرف وسوف أتدخل».

«قمت على الفور بالاتصال تليفونياً بالقائد العام وأبلغته بحديث اللواء أحمد إسماعيل معى، وقلت له: إن ما سمعته من اللواء أحمد إسماعيل لا أستطيع معه أن أبقى لحظة واحدة فى موقعى دون أن أتدخل، وسوف أتدخل فى هذه المعركة ولن أدخر جهداً حتى آخر طلقة وآخر رجل».



ثم يروى الفريق مدكور أبو العز أنه أمر بإقلاع الطائرات بأقصى مجهود مستطاع، ومعنى هذا ببساطة شديدة أنه لم يدخر وسعاً فى تلقين إسرائيل الضربة التى تستحقها، وفى إتاحة الفرصة كاملة لرجاله لكى يثبتوا جدارتهم:

«لم يكن أمام القائد العام من بديل إلا الموافقة على إشراك القوات الجوية، فأصدرت الأوامر بإقلاع الطائرات بأقصى مجهود مستطاع».

ويتحدث مدكور أبو العز عن معنويات الطيارين المصريين فى ذلك الهجوم فيقول:

«كان الطيارون وأطقم الطائرات متعطشين إلى معركة يستطيعون منها أن يثبتوا

براءتهم من جور الاتهام بأن القوات الجوية كانت سبب الهزيمة، ذلك الاتهام الظالم الذى أشعل فتيله الفريق أول محمد فوزى القائد العام للقوات المسلحة تقرباً للرئيس جمال عبدالناصر وشهوة فى الحقد، فكان الطيارون على أحر من الجمر لخوض معركة جديدة يثبتون فيها براءتهم من جور الاتهام».

«كانت الروح المعنوية لجميع أفراد القوات الجوية من كل التخصصات عالية، فكانت التشكيلات الجوية مكثفة متعاقبة، تهجم على طول جبهة القتال فى شرق قناة السويس وتضرب فى عنف وبتركيز مواقع القوات الإسرائيلية وخطوط إمداداتها، تعاونها أسلحة القوات البرية المختلفة، فاشتعلت نيران المعركة وأصيبت القوات الإسرائيلية بخسائر فادحة فى الأرواح والمعدات، وأسقط عدد غير قليل من الطائرات الإسرائيلية لم يحدث أن أسقط عدد مثله من قبل».



ويبدو الفريق مدكور أبو العز فى غاية الفخر بالنتيجة التى حققتها الضربة الجوية فى ١٥ يوليو ١٩٦٧، وهى نتيجة لم تحدث منذ حرب ٥ يونيو ١٩٦٧، فقد اجتمع مجلس الأمن واستجدت إسرائيل فى ذلك الاجتماع وقف إطلاق النار، ولأن مدكور أبو العز رجل حكيم، وقد حقق هدفه من الضربة التى قادها فإنه يذكر أنه أعطى الرأى بالموافقة على وقف إطلاق النار:

«وفى مساء يوم ١٥ يوليو عام ١٩٦٧ وحوالى الساعة الثانية عشرة مساء اتصل بى الفريق أول محمد فوزى تليفونياً يخبرنى أن مجلس الأمن مجتمع وقتذاك ويطلب من مصر بناء على طلب إسرائيل وقف إطلاق النار، وكان منطوق القائد العام «إن إسرائيل تستجدى وقف إطلاق النار» ويستطلعنى الرأى فى قبول الطلب أو رفضه، وأضاف إن مجلس الأمن منتظر رد مصر بشأن طلب إسرائيل وقف إطلاق النار».

«ولما كانت المعارك تُخطط لهدف معين وفى وقت معين وبحجم معين من

القوات والمعدات، وتنفذ بطريقة معينة لتحقيق الهدف منها، ولما كان كل ذلك قد تم كما تريد قواتنا المسلحة، فقد أعطيت الرأى بالموافقة على وقف إطلاق النار».



ومع هذا فإن مدكور أبو العز لا يخفى - فى عبارات مريرة واضحة الدلالة والمعنى - ضيقه من غمط القيادة المصرية حقه وحق القوات الجوية فى هذه الضربة، ونحن نعرف أن هذه الضربة الجوية لم تسجل فى وسائلنا الإعلامية بهذا الاسم، وإنما سجلت على أنها معركة «رأس العش» مع أن المعركة شىء آخر مواز لهذه الضربة، وقد رأينا فى مذكرات المشير محمد عبدالغنى الجمسى دقته فى وصف النجاحات الثلاثة على حد تصنيفه الضربة الجوية، ومعركة رأس العش وإغراق السفينة إيلات، لكن الكتابات الصحفية الموجهة فى ذلك الوقت لم تكن تريد أن تكون بدقة المشير الجمسى ولا بإخلاص الفريق مدكور أبو العز، ويبدو أن هذا كان مقصودا عن عمد، ولنقرأ هذا المعنى الذى يعبر عنه مدكور أبوالعز حيث يقول:

«ساءنى كثيراً أن قياداتنا السياسية والقيادات العليا للقوات المسلحة حينما تتكلم عن هذه الضربة فإنها لا تذكر الدور العملاق الأساسى فى هذه المعركة الذى قامت به القوات الجوية، فتراهم يلقبون المعركة بـ«رأس العش».

....

«لست ممن ينتقصون من دور أى مقاتل فى معركة - كغيرى - إذا كتبت عن وصف معركة حربية أو ذكرت نتائجها، لكننى أعترض على كل مَنْ يتجاهل عن عمد أو ينتقص من الدور العملاق والأساسى فى هذه المعركة الذى قامت بها القوات الجوية».

«فكم قرأت لقيادات كبيرة وهى تتحدث عن معركة رأس العش، ولم يذكر أحد منهم دور القوات الجوية، وكان أساسياً فى هذه المعركة».

«إن ذلك شيء يؤسف له أشد الأسف، فالأحق حينما تذكر معركة الخامس عشر من يوليو عام ١٩٦٧ أن تسمى بضربة الردع الجوى، وليست بمعركة رأس العش».

«إن الذين يتجاهلون القوات الجوية فى هذه المعركة أو فى غيرها وهم للأسف الشديد مسئولون كبار، قد جاوزوا الحقيقة فى كتابة التاريخ».

....

«وكم يؤسفنى أشد الأسف أن أسمع من أحد كبار ضباط القيادة العامة للقوات المسلحة وقتذاك [ولا يصرح مدكور أبو العز باسمه وربما كان هذا الضابط هو أحمد إسماعيل نفسه] حينما ذكرنى بضربة الردع الجوية فى الخامس عشر من يوليو عام ١٩٦٧ التى قامت بها القوات الجوية المصرية، وكيف وقف القائد العام أمامها صامتاً محاولاً إنكار ما قامت به القوات الجوية من دور عملاق فى هذه المعركة، مما دعا هذا الضابط الكبير أن يسأله عما إذا كان قد اتصل بى ليعبر عن تقديره لما قامت به القوات الجوية فيه؟ فلما علم أنه لم يتصل حمله على الاتصال بى تليفونياً رفعاً للروح المعنوية للقوات الجوية ففعل وقام القائد العام بالاتصال بى».



كان المراسلون العسكريون المصريون يزورون الجبهة فى ذلك الوقت بصفة دورية، وفى إحدى هذه الزيارات ظل أحمد إسماعيل، وهو قائد للجبهة، يستمع إليهم فى صبر وأناة، ولم يكن حديثهم ليتعدى عبارات اليأس يتبادلون تكرارها واحدا بعد آخر، فلما انتهوا مما قدروا عليه من حديث اليأس الذى استمع إليه صاحبنا حتى النهاية، قال لهم:

«إنكم تعبرون عن أنفسكم، ولا شأن لجنودى باليأس والتشكيك لأن واجبنا وقدرنا أن نجتاز الهزيمة ونحقق النصر لأمتنا، لأن الجندية هى الرجولة أولا، وهى البذل والعطاء ثانيا، والنصر بعد ذلك مؤكد».

ثم التفت أحمد إسماعيل إلى جنوده وقال:

«على كل منكم أن يحاسب نفسه دائما: هل أديت عملى ؟ ولا يكفى هذا بل عليه أن يسأل نفسه هل تفوقت فى عملى ؟ بهذا المقياس فقط يمكن أن نجتاز هذه الهزيمة، ونهزم عدونا».

ولم تكن هذه النغمة، التى تحدث بها أحمد إسماعيل فى ذلك اليوم، من النغمات السائدة فى هذه الفترة، كما أنها لم تعد إلى الوجود إلا حين تولى أحمد إسماعيل نفسه منصب القائد العام فى أكتوبر ١٩٧٢، ولعل خبرة المراسلين العسكريين باداء هذا الرجل فى ١٩٦٨ هى التى جعلتهم يستبشرون بتعيينه قائداً عاما فى ١٩٧٢ على حين لم يكن الرأى العام المصرى (والعربى بالتالى) يدرك من حقائق الأمور وطبائعها إلا النزر اليسير.



وقد عبر الرئيس السادات عن جهود أحمد إسماعيل فى هذه الفترة بأبلغ عبارة حين قال فى بيان رياسة الجمهورية الذى نعاه فيه:

«لقد كان أحمد إسماعيل على فى أيام الهزيمة قائد خط الدفاع الأخير، وكان فى أيام النصر قائد خط الهجوم الأول».



ثم تولى أحمد إسماعيل رئاسة هيئة عمليات القوات المسلحة فى الخامس عشر من إبريل سنة ١٩٦٨، فأشرف على تخطيط عمليات الاستنزاف الرئيسية ووضع أول خطة عسكرية لقصف خط بارليف بالمدفعية الثقيلة على طول الجبهة، وهكذا بدأت مرحلة الاستنزاف فى معاركنا ضد العدو.



وظل أحمد إسماعيل يعمل رئيسا لهيئة العمليات أحد عشر شهراً مع الفريق (أول) عبد المنعم رياض رئيس الأركان، والفريق أول محمد فوزى وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة، حتى اختار الله عبد المنعم رياض إلى جواره مع الشهداء فى التاسع من مارس سنة ١٩٦٩، واختير أحمد إسماعيل رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة المصرية، وبحكم منصبه اختير أمينا عاما مساعدا للجامعة العربية للشئون العسكرية، وواصل الرجل فى موقعه الجديد ما بدأته القيادة المصرية من قبل بمشاركته من إعداد وتجهيز لقواتنا المسلحة، واستمرت معارك الاستنزاف معبرة أروع تعبير عن روح مصر الأبية التى لا تهزم، وجاءت معارك العمق التى أراد العدو بها أن يبين عن مدى طول يده، فأبانت له مصر عن صمود رائع.



وكان الرجل طوال هذه الحرب يظل ساهرا فى مكتبه لساعة متأخرة من الليل، انتظارا لعودة أفراد الدوريات التى كانت تعبر قناة السويس وتهاجم مواقع العدو، فإذا اطمأن إلى عودتهم بكامل عددهم ذهب فنام قرير العين مستعدا ليوم آخر من الجهاد، وإذا علم أن واحدا من هؤلاء الجنود قد استشهد عاد إلى منزله ومعه الألم والقلق والحزن على هذا الجندى، ولم يكن القريبون منه يعرفون شيئا يحزنه ويؤثر فى نفسه مثل سماعه لخبر استشهاد جندى من جنوده.



وكان أحمد إسماعيل يشجع ضباطه وجنوده على الابتكارات والتفكير فى طرق جديدة للهجوم والدفاع، ومن أهم الابتكارات التى تبناها الرجل فى أثناء هذه الحروب فكرة «المواقع الهيكلية» وهى الفكرة التى كانت من أفكار عبقرى العسكرية المصرية عبد المنعم رياض، وقد نجحت هذه الفكرة نجاحا كبيرا، وصارت مصيدة لهجمات العدو وغاراته، وأهدرت قيمة كثير من ضرباته.

ولكن أحمد إسماعيل لم يبق فى موقعه كرئيس للأركان أكثر من ستة شهور، وكيف له أن يبقى فى مثل هذا الموقع فى ذلك الوقت الذى برزت فيه على السطح التعصبات، وتنافست مراكز القوى على إبراز مقدرتها على الحل والربط، واستصدر وزير الحربية قرارا من الرئيس جمال عبد الناصر بعزل أحمد إسماعيل وتعيين اللواء محمد أحمد صادق رئيسا للأركان، ونشرت الصحف اليومية هذا القرار صباح يوم الجمعة التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٩٦٩ ، وعلى الرغم من أن أحمد إسماعيل لم يكن معروفا يومها لجماهير الشعب، إلا أن كثيرا من الناس بدءوا يتساءلون فيما بينهم عن سر هذا القرار، وتصدى صحفى مرموق للتعليل فذكر أن السبب فى عزل رئيس الأركان يرجع إلى أنه سحب قوات من فوق ضفاف البحر الأحمر للتدريب، فجاءت إسرائيل بعدد من جنودها استطاعوا العبور إلى الضفة الغربية، والحق أن أحمد إسماعيل كان بريئا من هذه التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب. وعلى الرغم من هذا، فإن الأقلام التى ذهبت تؤرخ لأحداث هذه الفترة، لم تجد ما يمنعها من أن تروى هذه الرواية، التى ثبت أن ليس لرئيس الأركان فيها وزر على الإطلاق، ولكن مأساة تاريخنا المعاصر أن الخلود كثيرا ما يكون من حظ الروايات الأولى، التى يسكت عنها المظلومون فيها، لأنه ليس للرد بالحق عليها سبيل، فى أوقات لا يكون فيها مكان إلا لصوت واحد!



وربما كان من المهم هنا أن نناقش موقف الفريق أول محمد فوزي من إعفاء أحمد إسماعيل والشاهد أن الفريق محمد فوزى لا يجد حرجاً فى أن يروى فى مذكراته قصة خروج رئيس أركان حرب الجيش المصرى (أى الشخص الثانى بعد الفريق فوزى نفسه) أحمد إسماعيل من منصبه، وهى القصة التى تنم بما لا يقبل الجدل عن مدى العصبية التى كان يعانيها الرئيس عبدالناصر فى تلك الفترة ،

وهى عصبية غير قادرة على القيادة والإنجاز، وعلى الرغم من أن القصة كما يرويها الفريق فوزى قد تدين المشير أحمد إسماعيل فى نظر البعض، وقد تدين الرئيس عبدالناصر فى نظر البعض الآخر، وقد تدين الرجلين فى نظر آخرين، إلا أننى شخصياً أجد أن المدان الأكبر فيها هو الفريق أول فوزى نفسه، فهو الذى كان ينبغى عليه أن يراجع رئيسه فى قراره ، وأن يدله على مكمن الخطأ فى هذا القرار، بصرف النظر عن أن القرار صدر فى حق رئيس الأركان الذى هو من دفعة الرئيس عبدالناصر نفسها، وأن رئيس الأركان هذا قد جاء إلى موقعه هذا بعد جهد بطولى فى إقامة وتنظيم الجيش من شبه العدم فى غرب القناة على حسب ما روى الفريق فوزى نفسه فى مذكراته، ولا محل للقول بأنه كان من الصعب على الفريق فوزى أن يراجع الرئيس عبدالناصر فى مثل هذا القرار، فقد حدث فى وقت قريب من هذه الواقعة أن رئيس أركان القوات الجوية (وليس القائد العام للقوات المسلحة كلها) راجع الرئيس عبدالناصر فى عزل رئيس هيئة عمليات القوات الجوية، فاقتنع الرئيس عبدالناصر بوجهة نظر رئيس أركان القوات الجوية وتراجع عن قراره، وأعاد رئيس هيئة العمليات اللواء صلاح المناوى.

لنقرأ ما يرويه الفريق أول فوزى فى مذكراته عن قصة عزل المشير أحمد إسماعيل من منصبه كرئيس للأركان :

«فى فجر يوم ١٩٦٩/٩/٩ قام العدو بإنزال مجموعة سرية مختلطة بتسع دبابات برمائية على شاطئ خليج السويس الغربى قرب نقطة حدود الزعفرانة ١٠١كم جنوب السويس وقضى على أفراد نقطة الحدود ـ ٥ أفراد ـ وقطع طريق السويس ـ الغردقة المار بحذاء الشاطئ وخط التليفون الهوائى. ولعدم وجود قوات فى هذه المنطقة أخذ العدو يصور فيلما لقواته الهابطة على الشاطئ ولم يحاول

الابتعاد عن منطقة نزوله على الشاطئ واستمر هكذا ٦ ساعات وعادت قواته من حيث أتت ».

« ... وكانت عملية الزعفرانة سابقة بخمسة عشر يوماً عن تخطيطى فى ملء فراغ منطقة خليج السويس، فمنذ بدء تخطيط القوات المطلوبة بعد معركة ١٩٦٧ مباشرة خصص فرقة ميكانيكية كاملة ولواء مشاة مستقل للتمركز فى هذه المنطقة، لكن لم تأخذ الأولوية فى الإعداد مثل التشكيلات المطلوبة للجبهة. ودفعت هذه الوحدات من القاهرة حيث انتهى تدريبها وإعدادها فى منتصف سبتمبر ١٩٦٩ وأخذت الفرقة أوضاعها الدفاعية فى المنطقة مكونة نسقاً واحداً من الزعفرانة حتى سفاجة مع وجود كتيبة حدود منفصلة فى القصير، وتمركز الاحتياطى فى العمق «وادى قنا». وتبعت هذه القوات من ناحية القيادة والسيطرة للقيادة العامة بالقاهرة مباشرة. وامتدت المواجهة مع العدو وأصبحت من بورسعيد شمالاً حتى القصير جنوبا ٧٠٠ كم تقريباً. ولم أنقل أو أخفف أى وحدة من وحدات جبهة التجميع الرئيسى للجيشين الثانى والثالث غرب قناة السويس جنوباً إلى منطقة خليج السويس كما كان ينتظر العدو. ثم قامت القوات الجوية بتمركز سربين مقاتلين «ميج ١٧» فى كل من مطارى الغردقة والزعفرانة، والأخير تم الانتهاء من إنشائه أخيراً، ثم توالى دعم المدفعية المضادة للطائرات من منطقة البحر الأحمر العسكرية ».



هكذا يحاول الفريق فوزى أن يبرىء أن نفسه بقوله إنه كان ينوى السيطرة على هذه النقاط فيما بعد ١٥ يوماً ولكن إسرائيل سبقته بهذه الفترة ، وقد نصدق الفريق فوزى ونقبل منه العذر ، ولكنه فى الفقرة التالية سوف ينسف تصديقنا له كما سنرى :

• .. كما كانت عملية الزعفرانة لها تأثير عكسى على موقف اللواء أحمد إسماعيل رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة فى ذلك الوقت. إذ بينما كان الرئيس عبدالناصر وأنا ورئيس الأركان ورؤساء الهيئات بالقيادة العامة وقائد الجيش الثانى والمستشارون السوفييت، نشاهد المشروع الاختبارى لقوات الفرقة (٢١) المدرعة التى انتهى إنشاؤها وتدريبها حديثاً، جاء اللواء عبدالغنى الجمسى مدير الاستطلاع حوالى الساعة ١٠ صباحاً فى نقطة المشاهدة عند علامة الكيلو ٥٣ طريق القاهرة ـ السويس الصحراوى وأبلغ الرئيس عبدالناصر بنزول مجموعة سرية برمائية إسرائيلية فى الزعفرانة، ولم تكن لديه معلومات أخرى، فقرر الرئيس بعد التداول معى تكليف اللواء أحمد إسماعيل ومستشاره السوفيتى بالتوجه إلى الزعفرانة رأساً لاستطلاع الموقف وحسمه ، وإخطارنا بباقى المعلومات الضرورية، وانصرف الاثنان من نقطة المشاهدة إلى مكان الحادث. ولم يستطع الرئيس الانتظار طول اليوم كما كان مقرراً وفضل العودة إلى القاهرة الساعة الثانية والنصف بعد الظهر وعدت مع الرئيس إلى منشية البكرى، ثم توجهت إلى القيادة فوجدت لواء أحمد إسماعيل فى مكتبه محاولاً معرفة موقف الزعفرانة عن طريق المواصلات الخطية واللاسلكية، وعلمت أن مستشاره السوفيتى توجه إلى الزعفرانة رأساً من علامة الكيلو ٥٣ فأخطرت الرئيس بالموقف فرد علىّ: «هو المستشار الروسى ينفذ أوامرى ورئيس الأركان يفضل البقاء فى المكتب. إننى فى انتظار عودة المستشار».

• وصل المستشار السوفيتى الساعة السادسة مساء نفس اليوم وعرض علىّ الموقف كما ذكرت، فأخطرت الرئيس بذلك، وكان قد استمع إلى الإذاعات الأجنبية التى صعدت إعلامياً وتليفزيونياً حادث الزعفرانة وشعرت بضيق الرئيس وزعله وقال لى: «إن رئيس الأركان لايصلح للاستمرار فى تحمل هذه المسئولية، شوف لك واحد آخر».

وكان لهذا الحادث وتصرف اللواء أحمد إسماعيل السلبى أثر مباشر فى مرض الرئيس لمدة ثلاثة أسابيع، وأحيل اللواء أحمد إسماعيل إلى المعاش وتعمدت أن يتم إنهاء خدمته بطريقة اجتماعية لائقة».

ونحن نعجب للفريق فوزى بعد هذا كله لماذا لم يذكر لنا طبيعة الإنجاز الذى أتمه المستشار السوفيتى عند ذهابه بنفسه للزعفرانة ، وماذا كان فى وسعه أن يفعل وقد اعترف الفريق فوزى نفسه فى الفقرة السابقة بأنه لم يكن قد دعم هذه المنطقة بالدفاعات المطلوبة حتى ذلك التاريخ !!! وإنما كانت الخطة أن يدعمها بعد ١٥ يوماً.



ومن النصوص الجميلة المتاحة فى أدبيات تاريخنا المعاصر نستعرض مع القارىء تحليل الفريق أول كمال حسن على [فى مذكراته: مشاوير العمر] لواقعة إعفاء المشير أحمد إسماعيل من منصبه كرئيس للأركان فى نهاية عهد الرئيس عبدالناصر، وهو يرى الحدث من زاوية نجاح الحرب النفسية الإسرائيلية فى تسميم أفكار الرئيس عبدالناصر وتنغيص حياته ودفعه إلى قرارات عصبية.

يروى كمال حسن على واقعة إعفاء المشير أحمد إسماعيل على النحو التالى:

....

«وأذكر مع حرب الاستنزاف موقفاً آخر لعبد الناصر فى زيارة أخرى ميدانية للفرقة ٢١ مدرعة، يوضح كيف فقد عبدالناصر الثقة حتى فى قياداته وأخلص معاونيه! كان يوم الزيارة هو يوم ٩ سبتمبر من عام ١٩٦٩ . وهو اليوم نفسه الذى تصادف فيه حدوث إغارة القوات الإسرائيلية على منطقة الزعفرانة على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر بعد أن فشلت كل محاولاتها فى إيقاف حرب الاستنزاف. ولقد تعمدت إسرائيل أن تحيط هذه الإغارة بمظاهرة دعائية ضخمة لدرجة أن

أسموها عملية غزو مصر، مما جعل الغيظ يستبد بعبد الناصر فى ذلك اليوم، فكلف الفريق أحمد إسماعيل الذى كان يرافقه فى هذه الزيارة بالتوجه مباشرة إلى منطقة البحر الأحمر. ونظراً لأن أحمد إسماعيل لم يكن قد تلقى أى معلومات بعد عن هذه الإغارة، فإنه توجه فى بادئ الأمر إلى مكتبه بالقاهرة ليطلع على كل المعلومات المتوافرة فى القيادة العامة من خلال وسائل الاتصال وللتعرف على الموقف قبل التحرك إلى مكان الإغارة. ولما علم الرئيس عبدالناصر بأنه لم يتوجه فوراً إلى هناك، عزله من منصبه فى الحال وأحاله إلى المعاش، وعين بدلا منه الفريق محمد أحمد صادق!».

5

مديراً للمخابرات

لم تصل أدبيات التاريخ السياسى المعاصر فى مصر إلى وسائل كفيلة بتقييم أداء مديرى المخابرات العامة وأداء المخابرات فى عهدهم ومدى تأثير شخصياتهم على هذا الأداء، ومع هذا فإن هناك شبه اتفاق على أن وجود أحمد إسماعيل على رأس جهاز المخابرات العامة كان بمثابة نقطة تحول فى أسلوب عملها، فقد كان أحمد إسماعيل أول قائد عسكرى ذى منصب رفيع يتولى هذا المنصب، وقد كان أسلافه فيه من نفس جيله من ضباط القوات المسلحة لكنهم تمتعوا بعلاقات مميزة جعلتهم يُختارون لهذا الموقع لعلاقات واضحة واحداً بعد آخر، وكان عملهم بالسياسة (أو انتماؤهم لتنظيم الضباط الأحرار) بمثابة أحد العوامل التى دفعت إلى اختيارهم لتولى هذا الموقع.. وبمجىء أحمد إسماعيل إلى هذا المنصب بدأت سلسلة من مديرى المخابرات العامة الذين وصلوا إلى المواقع العسكرية الرفيعة القدر ونالوا من الخبرة الميدانية والإدارية والقيادية خطوات متتابعة ودرجات عليا.

ومع أن أحمد إسماعيل كان صاحب أرفع منصب عسكرى من بين مَنْ اختيروا

لشغل هذا المنصب من سلسلة القادة الذين خلفوه فإنه لم يستقبل الأمر على هذا النحو وكما أنه لم يصوره فى حياته على هذا النحو، وإنما تقبله على النحو الذى يتقبل به الجندى تكليف القيادة السياسية له بالخدمة فى أى موقع من المواقع.

على أنى أعتقد أن أكثر وأعظم الفوائد التى تحققت من تولى أحمد إسماعيل لهذا المنصب قد صبت فى مصلحة حرب أكتوبر المجيدة، فقد ساعد هذا الموقع فى تكوين عقلية قيادية متميزة ورحبة الأفق لأحمد إسماعيل، وقد مكنته هذه العقلية من أن يدرك حدود الممكن وحدود المستحيل ، كما ساعد هذا الموقع صاحبه على أن يدرك كثيراً من الإمكانات والأفكار التى يمكن تعظيم الأداء المصرى فى المعركة من خلالها، ومن ناحية ثالثة فقد تنامت فى عقلية أحمد إسماعيل وشخصيته معرفة واعية وعميقة بالمجتمع الإسرائيلى وتناقضاته وبجيش الدفاع الإسرائيلى وإمكاناته وطبائعه، ويمكننى القول أنه لولا هذه المعرفة الواعية والعميقة التى أمكن له استيعابها على مدى عام ونصف عام ما كان من الممكن أن تكون قيادته لحرب أكتوبر ١٩٧٣ على نحو ما كانت عليه من تميز واقتدار.

وقد أشرت فى الباب الخاص بحرب أكتوبر إلى الحقيقة التى رواها لى اللواء على عثمان رئيس أركان حراب القوات البحرية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ من أن أحمد إسماعيل كان هو صاحب فكرة حصار باب المندب (بواسطة القوات البحرية) وهى الفكرة التى أفادت منها قواتنا على نحو مبهر، ولا تزال هذه الفكرة بحاجة إلى كثير من إلقاء الضوء عليها كى نتبين أن مصر قد استطاعت فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ أن تمتد بالحرب إلى حدود أجهدت العدو الإسرائيلى على نحو غير مسبوق فلم تكن جبهة سيناء وحدها، ولا جبهة الجولان معها، هى كل الجبهات التى واجهته إسرائيل فيها وإنما كانت هناك جبهات طويلة وعريضة فى الأمم المتحدة وأفريقيا وأوروبا وكانت هناك أفكار ذكية من قبيل حصار باب المندب على سبيل المثال.

ويهمنى أن أنقل للقارئ بعض ما رواه الأستاذ عبده مباشر فى مقال له فى الأهرام بتاريخ ٢٥ أبريل ١٩٩٩ عن قصة إتمام حصار باب المندب عنوانه «صفحة من تاريخ الانتصار» حيث يقول:

«....وأعلام مصر ترفرف فوق صواريها بسيناء فى الوقت الذى يشعل فيه المصريون شموع عيد تحريرها، فإن الجميع يدركون ادراكا عميقا أن هذا العيد هو الابن الشرعى لانتصار أكتوبر العظيم، وبالرغم من مرور أكثر من ربع قرن على معركة أكتوبر فإن الستار لم يزح بعد عن كثير من أسرارها. وهذه الأسرار هى بعض حقائق الحرب التى تنتظر مَنْ يعلنها ويطلقها فى مدارها كالأفلاك، لتصبح جزءا من ذاكرة الأمة، وملكا للتاريخ والناس».

«وبطل صفحة أسرار اليوم ، هو المقدم بحرى إسلام توفيق الملحق الحربى المصرى بعدن، عاصمة اليمن الجنوبى، الدولة العربية الوحيدة التى اختارت الماركسية طريقا ونهجا ونظاما حاكما ومسيطرا. ولم يكن إسلام يدرك وهو يتسلم عمله يوم ٢٠ أبريل عام ١٩٧٢ ، أنه سيكون مشاركا فى كتابة هذه الصفحة من صفحات معركة أكتوبر».

«والرجل لكى يلبى ما تطلبه منه القاهرة من معلومات، كان عليه أن يجند ويعتمد على مَنْ يزودونه بها ، وكان من بين أعضاء هذه المجموعة مسئول عسكرى من ذوى الرتب الصغيرة، وإن كان يعمل فى مكان مؤثر تتجمع فيه معلومات كثيرة»، ووقبل أن تنطلق الحرب من عقالها وخلال مرحلة الاستعداد ، وصلت لجنة عسكرية مصرية إلى عدن لمفاوضة المسئولين اليمنيين الجنوبيين حول الوجود العسكرى البحرى المصرى بالمنطقة».

«وطالب الجانب المصرى، بحضور الملحق الحربى، الجانب اليمنى الجنوبى بالسماح باستخدام جزيرة ميون استخداما مؤقتا كمرسى لقطع الاسطول البحرى المصرى بالبحر الأحمر، وذلك لموقعها الذى يتميز بالتالى:

* تقع الجزيرة فى منتصف مضيق باب المندب تقريبا، ولا تبعد عن الساحل الاثيوبى إلا بحوالى ٥٠٠ متر. وهذا الموقع يتيح للقوات البحرية المصرية إغلاق المضيق تماما أمام الملاحة الإسرائيلية، ومنع إمدادها بالمواد الاستراتيجية والعسكرية.

* توجد بها أرض تصلح كمطار، وبما يوفر للقوات البحرية غطاء جويا.

* وجود قاعدة غواصات سبق أن استخدمتها قوات الاحتلال الانجليزية قبل رحيلها وانتهاء استعمارها للمنطقة».

«وفى نهاية المفاوضات ، أعلن الجانب اليمنى رفضه للمطلب المصرى. وبدا واضحا أن للحكومة الشيوعية باليمن الجنوبى توجهات غير ودية، هذا إذا لم نقل معادية تجاه مصر، وهنا يجدر بنا أن نشير إلى ترحيب اليمن الشمالى واستجابته لكل مطالب اللجنة العسكرية المصرية التى غادرت عدن إلى صنعاء».

«وبناء على الرفض اليمنى الجنوبى والاكتفاء باستقبال القطع البحرية المصرية بميناء عدن، أجرت القيادة البحرية تعديلا على خطة إغلاق مضيق باب المندب، واستندت الخطة إلى قيام القطع البحرية بمجرد بدء المعركة بممارسة حق الزيارة والتفتيش لكل السفن التجارية التى تمر عبر المضيق للتأكد من أنها لا تحمل مواد تخدم المجهود الحربى الإسرائيلى ، وهذا الحق يسمح به القانون البحرى للدول المتحاربة. وفى حالة رفض بعض القباطنة الاستجابة لطلب الزيارة والتفتيش، يجرى توجيه إنذار لهم بواسطة إطلاق طلقات تحذير من مدفعية المدمرات، وعند استجابة القباطنة على ممارسة القطع البحرية المصرية لمهمتها، يطلب منهم مراعاة المرور عبر ممر محدد لتجنب حقول الألغام البحرية، وإذا ما رفض أى قبطان الاستجابة للطلب أو الانذار يجرى حجب المعلومات الملاحية عنه، وتكون النتيجة اصطدام سفينته بأحد حقول الألغام».

«وكانت خطة قطع الطريق البحرى أمام إسرائيل من نتاج الفكر العسكرى المصرى القادر دائما على الابتكار فالقطع البحرية تمارس حق الزيارة والتفتيش عند مدخل البحر الأحمر جنوبا، أما الإغلاق الحقيقى لطرق الملاحة بالبحر فيتم أمام الساحل المصرى شمالا بواسطة حقول ألغام تحميها الغواصات ، وممـــر بحرى محدد يسمح بمرور السفن التجارية التى استجابت وسمحت بالزيارة والتفتيش وكانت قطع الاسطول بالبحر الأحمر تتكون من المدمرتين الفاتح والظافر والفرقاطة رشيد بجانب غواصتين وبعض القطع المساعدة» .

«وظلت القطع البحرية تؤدى دورها المخطط لها بعد بدء الهجوم المصرى فى السادس من أكتوبر وحتى التاسع من أكتوبر ١٩٧٣ . خلال هذا اليوم تسلم المقدم بحرى إسلام توفيق من المسئول العسكرى اليمنى الجنوبى الذى نجح فى تجنيده صورة من برقية مرسلة من على عنتر وزير الدفاع إلى قيادة القوات البحرية اليمنية الجنوبية تحمل أمرا بخروج القطع البحرية للأسطول لمنع دخول القطع البحرية المصرية ميناء عدن» . ولم يكن لذلك من معنى سوى إبعاد الاسطول المصرى عن باب المندب ومنعه من أداء مهمته» .

«وكانت المفاجأة الثانية استقباله لمكالمة تليفونية من المدير الانجليزى لمصفاة البترول بعدن ليخبره أنه تلقى تعليمات من وزير الدفاع بوقف تزويد القطع البحرية المصرية بالوقود اعتبارا من اللحظة، فطلب منه إرسال صورة من البرقية التى وصلته بهذا الشأن وبدا واضحا أن السلطات باليمن الجنوبية قررت إخلاء المنطقة من القطع البحرية للأسطول المصرى ومنعها من قطع طريق الملاحة من وإلى إسرائيل عبر باب المندب» .

«وفورا أرسل صورة البرقيتين إلى القاهرة . بعدها حان وقت مواجهة وزير

الدفاع باليمن الجنوبية، فاتصل [أى المقدم إسلام توفيق] به تليفونيا، وأبلغه أنه قادم إليه فورا. وبمجرد دخوله مكتب على عنتر، وضع أمامه على مكتبه صورة من البرقيتين، وقال له بلهجة جافة، إن هذا التصرف يعرض المجهود الحربى المصرى للخطر، ويؤثر على مهمة الاسطول المصرى بجنوب البحر الأحمر، ويخدم الاستراتيجية الإسرائيلية، وعليك أن تدرك أنه من غير المقبول حرمان القطع البحرية المصرية من الوقود ومنعها من دخول ميناء عدن. وواصل قائلا: ولما كانت مصائر الأمم لا يمكن أن تعالج بهذا الاسلوب وهذه الصورة، وبقرار من وزير الدفاع لا من القيادة السياسية المسئولة، فإننى أطلب منك الآن إلغاء البرقيتين وإعادة الأمور إلى نصابها بإصدار برقيتين جديدتين لكل من القيادة البحرية اليمنية الجنوبية ومدير مصفاة البترول بعدن، على أن تتولى القيادة السياسية فى البلدين علاج الموقف والتوصل إلى القرارات المناسبة».

«ثم عليك أن تدرك أن مصر وهى تحقق أول انتصار عسكرى فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى لا يمكن أن تقبل أن تطعن من الخلف وبيد عربية يفترض أنها يد صديقة».

«وقبل أن ينهى حديثه قال له: إن عليك أن تستنتج ما تشاء من حديثى. وأمام هذا القطع والحسم الذى تحدث به الملحق الحربى المصرى، وأمام الخشية من تطور الأمور بشكل غير متوقع أو محسوب على ضوء الحقائق التى وضحت، ومنها أن هذه القرارات تخدم الأهداف الإسرائيلية، وتشكل طعنة فى ظهر مصر المنتصرة وفى وقت غير مناسب تماما، تراجع على عنتر عن البرقيتين وأمر بإعادة تزويد القطع البحرية المصرية بالوقود والسماح لها بدخول ميناء عدن».

«وفى القاهرة قرر الرئيس السادات إيفاد الدكتور حسن صبرى الخولى فى زيارة سرية إلى كل من السعودية واليمن الجنوبى. وخلال لقاء الخولى بالملك فيصل شرح له الموقف فما كان من الملك إلا أن تعهد ببذل كل الجهود لضمان تموين

القطع البحرى المصرية بالوقود، وأكد أنه فى حالة توقف عدن عن تزويد القطع البحرية المصرية بالوقود فإنه على استعداد لدفع ثمن مصفاة البترول بالكامل من أمواله الخاصة، وفى هذه الحالة على الرئيس السادات إرسال طاقم مصرى لإدارتها».

«وعندما وصل الدكتور الخولى إلى عدن كان يحمل فى يده أوراقا قوية، وخاصة بعد موقف الملك فيصل، ولم يتردد فى عرضها على الرئيس على سالم ربيع رئيس اليمن الجنوبى خلال لقائهما وانتهى اللقاء بتراجع عدن عن موقفها».

«وقد أكدت المعلومات أن القيادة السوفيتية هى التى طلبت من المسئولين باليمن الجنوبى اتخاذ هذا الموقف، وبمجرد انكشاف الموقف سرعان ما تراجعت موسكو، وكان هذا التراجع السبب الرئيسى لتراجع قيادة اليمن الجنوبى».



هكذا نرى من هذه التفصيلات التى قرأناها لتونا أن الأمر فى إدارة مثل هذه المعركة المهمة فى نسيج حرب أكتوبر ١٩٧٣ لم يكن إلا أمر مخابرات فى المقام الأول والأخير، ولم تكن مثل هذه المعركة لتتم على هذا الوجه من دون هذا الاختراق المخابراتى على كل هذه المستويات، وهو الأمر الذى لم يكن بد منه، ومن حسن الحظ أن هذا قد تحقق عندما حدث هذا التبادل فى المواقع القيادية بين قيادة المخابرات وقيادة القوات المسلحة المصرية، وقد تمثل هذا التبادل الذكى فى المشير أحمد إسماعيل نفسه.



على أنى أحب أن ألفت الأنظار إلى حقيقة أخرى مهمة لم نعن بعد بالإشارة إليها على نحو جيد، وهى أن عمل أحمد إسماعيل كمدير للمخابرات قد ساعد على توظيف تكنولوجيات مخابراتية من أجل حربنا المجيدة فى أكتوبر ١٩٧٣،

ويكفيني في هذا الصدد أن أشير إلى واقعة مهمة في أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، وهي واقعة قتل مدير المدرعات الإسرائيلي الجنرال ماندلر، وقد تمت هذه العملية الناجحة من خلال عمل مخابراتي تكنولوجي متقدم كان الرئيس السادات يعلق عليه بطريقته ويقول إنه قمة التكنولوجيا ، ذلك أن مخابراتنا تمكنت من فك رموز رسالة شفرية بينه وبين أحد مساعديه، وكانت الرسالة تتضمن الإشارة إلى اجتماع مزمع أن يتم بينهما في نقطة معينة علىَ أحد طرق سيناء، وهكذا تمكنت قواتنا بالتنسيق مع القوات الجوية من التخطيط لقيام إحدى المقاتلات بضرب الموقع وتدميره، مما أدى إلى قتل الجنرال ماندلر في ٩ أكتوبر وذلك في الوقت الذي كانت معركة المدرعات فيه دائرة.



ونعود خطوة إلى الوراء.. حين قام الرئيس السادات بحركته التصحيحية في مايو سنة ١٩٧١، كان جهاز المخابرات من الأجهزة التي صورت على أن رؤساءها قد قادوها إلى أن تدين بالولاء للمجموعة التي عرفت باسم مراكز القوى، ولم تكن هذه الأجهزة جهازا ولا جهازين، ولكنها كانت أخطر أجهزة الدولة، فلما تمكن الرئيس السادات من السيطرة على هذه الأجهزة فيما سمي بالحركة التصحيحية أو ١٥ مايو كان الرأي العام يتطلع إلى إدراك خطوات وتوجهات محسوسة في إدارة رؤساء الأجهزة الجدد، ومنهم أحمد إسماعيل لهذه الأجهزة.

كان أحمد إسماعيل يؤمن بأن مهمة المخابرات الأولى هي حماية المصريين من العدو، وأن أول ما ينبغي عليه القيام به هو إعادة الثقة بين الجهاز والناس كل الناس، ومن هذا المنطلق استطاع أحمد إسماعيل أن يبدأ في خطوات من قبيل تبديل الصورة المرسومة عن المخابرات في أذهان الجماهير، وقد أعلن أنه حفي بأن يمسح مصطلحات «غسيل المخ» «إدارة التعذيب» و«السجن الحربي» من قاموس المخابرات العامة، وبالطبع لم يكن هذا بالأمر السهل.

وكان أحمد إسماعيل يؤكد أن جهاز المخابرات لن يكون فى يوم من الأيام سيفا مصلتا على رقاب الشعب العربى، لكنه سيكون السند والصديق المخلص لكل مواطن فى الداخل، وفى الخارج.

وهكذا استطاع أحمد إسماعيل أن يشارك فى تحقيق إنجاز من أعظم إنجازات عهد الرئيس السادات، وهو القضاء على الحالة التى وصلت إليها العلاقات العربية ـ المصرية بسبب الأنشطة التى كانت المخابرات المصرية تقوم بها فى داخل البلاد العربية ، وكان أحمد إسماعيل، مع أنه العسكرى القديم، يلقن ضباطه فى المخابرات ضرورة الإيمان بالحرية الفردية والمجتمع المفتوح، ذلك أن حماية المجتمع ورفاهيته هما أهم واجبات المخابرات، ليس إليهما من سبيل لا يعطى للحرية الفردية دورها الرائد.

والحق أن جهود أحمد إسماعيل فى المخابرات العامة قد أسهمت فى تحويل هذا الجهاز إلى مدرسة حقيقية للوطنية التى تعتمد على العلم والمعرفة، والقراءة المستمرة، والمتابعة الدورية وتتصف مع ذلك بالعفة، والأمانة، ولا تنتظر المقابل إلا فى إحساسها برضا الضمير وأداء الواجب، وخدمة الوطن.

وقد تمكن جهاز المخابرات العامة فى عهد أحمد إسماعيل من ضبط أخطر قضايا التجسس، ولعل من أشهر هذه القضايا تلك التى يصورها فيلم «الصعود إلى الهاوية»، بل إن من الشائع أن هذا الجهاز لم يصل فى عهد أى من رؤسائه إلى اكتشاف مثل هذا العدد الذى وصل إليه قبل قيادة أحمد إسماعيل، ولم تكن المسألة هنا مسألة كم، ولكنها كانت بالطبع مسألة كيف قبل أن تكون مسألة كم.

على أن كثيرا من المراقبين السياسيين كانوا ينظرون إلى تعيين الرئيس السادات لأحمد إسماعيل مديرا للمخابرات على أنه تمهيد من الرئيس السادات لتولية الرجل أمور القوات المسلحة ريثما تتهيأ الأمور لذلك، ويصل محمد حسنين هيكل فى كتابه عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ إلى أن يقول إن السادات كان ينوى اختيار أحمد

إسماعيل وزيراً للحربية فى مايو ١٩٧١ خلفاً للفريق أول محمد فوزى مباشرة، وسواء صح هذا أو لم يصح فإن القادة العسكريين أنفسهم لمسوا مدى ما كان الرئيس السادات يحرص على إتاحته أحمد إسماعيل من معلومات عن القوات المسلحة .. وسوف نتناول نصوص بعض هؤلاء عند عرضنا لمبررات رأينا القائل بأن أحمد إسماعيل كان أنسب القادة المصريين لادارة حرب أكتوبر المجيدة وذلك فى باب لاحق من هذا الكتاب.



لكن هذا لا ينفى مدى الإسهام البارز الذى مارسه أحمد إسماعيل من خلال منصبه كمدير للمخابرات فيما يتعلق بالأمور العسكرية والأمثلة على ضخامة حجم هذا الانجاز كثيرة، وتصب فى الاتجاه القائل بأن السادات كان يعد أحمد إسماعيل لتولى أمر القيادة العامة طوال عمله كمدير للمخابرات العامة.

وعلى سبيل المثال فإن تصور أحمد إسماعيل لحرب أكتوبر ١٩٧٣ لم يتبلور إلا من خلال المعلومات والحقائق التى أتاحها له موقعه على رأس المخابرات العامة، وهو ما تشهد به كثير من الكتابات التى تناولت هذه الفترة وعلى سبيل المثال فإن محمود رياض ينبئنا فى مذكراته عن اختلاف وجهتى نظرهما [هو وأحمد إسماعيل] حول ضرورة وجدوى حرب الاستنزاف،ومن الطريف [الذى لا نعرف مداه من الصحة] أن نقرأ فى مذكرات محمود رياض أن أحمد إسماعيل كان وهو رئيس المخابرات يميل إلى استئناف حرب الاستنزاف(!!)على حين لم يكن الفريق صادق يميل إلى هذا الرأى وإنما كان يفكر فى تحرير سيناء كلها بالكامل، ويروى محمود رياض أنه قد استطاع إقناع أحمد إسماعيل (الذى هو فى ذلك الوقت مدير للمخابرات العامة وليس وزيراً وقائداً عاماً) بعدم جدوى استئناف حرب الاستنزاف، وسواء صح هذا أم لم يصح [وأغلب ظنى أنه صواب مرحلى أى أن أحمد إسماعيل كان يعتقد فى هذا الرأى فى مرحلة مبكرة، حتى أتيح له أن

يكون رأيه الذى بلور تصوره لحرب أكتوبر] فإنه يدلنا على مدى حرص أحمد إسماعيل (ولا نقول قبوله فحسب) على المشاركة فى مناقشات استراتيجية من أجل وضع تصورات متعددة للخطط الحربية، وإمكان اقتناعه (أو تظاهره بالاقتناع) بأفكار من قبيل هذه الأفكار التى يطرحها دبلوماسى بارز (وعسكرى قديم) شغل وزارة الخارجية ثم الأمانة العامة للجامعة العربية.

يقول محمود رياض:

«... وقد حدث فى تلك الفترة أن اطلعت على تقرير وضعه الفريق أحمد إسماعيل مدير المخابرات العامة حينئذ والذى أصبح وزيراً للحربية يرى فيه ضرورة البدء بعمل عسكرى يستهدف تحريك الموقف سياسياً ، عن طريق استئناف حرب الاستنزاف. وبمجرد قراءتى للتقرير اتصلت على الفور بأحمد إسماعيل وقلت له إن حرب الاستنزاف قد استنفدت أغراضها وفات وقتها بعد أن استغلت إسرائيل فترة وقف إطلاق النار فى تحصين خط بارليف ، ومن ثم فلن تكون لمدفعيتنا نفس فعاليتها التى كانت لها فى الماضى، فى الوقت الذى تستطيع فيه إسرائيل الرد علينا بالضرب جواً فى العمق المصرى. أما فى حالة تحركنا العسكرى للتقدم حتى مضايقنا واحتلالها فإننا بذلك نكون قد حققنا انتصاراً كبيراً يسمح لنا بتحمل أية خسائر تنجم عن غارات إسرائيل الجوية فى العمق المصرى، وفضلاً عن ذلك فهذا هو التحرك العسكرى الذى يمكن فعلاً أن يحرك الموقف سياسياً، ولقد كانت تربطنى بأحمد إسماعيل علاقات ود وصداقة ولذلك فبعد أن تناقشنا سوياً بعض الوقت اقتنع بوجهة نظرى.. ولمزيد من الأطمئنان اتصلت بالفريق محمد صادق وزير الحربية للتعرف على رأيه فاعترض بشدة على استئناف حرب الاستنزاف ، مؤكداً على أن يكون تحركنا العسكرى من أجل تحرير سيناء بكاملها».



وعلى كل الأحوال، فيبدو بوضوح أن هناك أدلة كثيرة تدعم الرؤية القائلة

بإعداد السادات (أو تحضيره) لأحمد إسماعيل (ليتولى قيادة القوات المسلحة) من خلال توليه منصب مدير المخابرات العامة.

ومن الأدلة التى تُساق على صحة هذا الرأى أن أحمد إسماعيل كان هو الرجل [العسكرى] الذى رافق الدكتور عزيز صدقى رئيس الوزراء المصرى فى زيارته إلى موسكو بينما بقى وزير الحربية فى القاهرة، وعلى أية حال فلو كان هذا الذى فعله الرئيس السادات تمهيدا فهو نعم التمهيد، نظرا للعلاقة الوثيقة بين عمل الجيش وعمل المخابرات العامة، ولعل أبلغ عبارة تقال فى تصوير هذه العلاقة هى أن العمل فى المخابرات العامة يمثل الخلفية السياسية والوطنية والداخلية ذات المستوى الرفيع التى لابد منها لقائد الجيش، وقد فطن الرئيس السادات إلى هذه العلاقة المهمة، بل قل إنه كان أول مَنْ فطن إليها وقد طبقها مع أحمد إسماعيل، ثم مع الفريق أول كمال حسن على.



ينقل المشير الجمسى فى مذكراته فقرات من مذكرات كتبها المشير أحمد إسماعيل بنفسه، وسجلت فى كتاب تذكارى أصدرته القوات المسلحة بعنوان: «الرجال والمعركة» وفى هذه المذكرات القصيرة يشير أحمد إسماعيل بوضوح إلى طبيعة مشاعره عند إقالته، وعند تعيينه رئيسا للمخابرات، وكيف أفاد من عمله فى المخابرات.

يشير المشير الجمسى فى كتابه إلى هذه المذكرات ويقدم لها فيقول:

«شرح الفريق أول أحمد إسماعيل ظروف تعيينه وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة كتب بقلمه يقول:

« كان هذا النهار أحد الأيام الهامة والحاسمة فى حياتى كلها ، بل لعله أهمها على الإطلاق. التاريخ ٢٦ أكتوبر ١٩٧٢ ـ ١٩ رمضان ١٣٩٢ حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر. والمكان منزل الرئيس السادات بالجيزة».

«كنا - سيادته وأنا - نسير فى حديقة المنزل. لم أكن أدرى سبب» استدعائى ، ولكنى توقعت أن يكون لأمر هام وخطير. وبعد حديث قصير عن الموقف ، حدث ماتوقعته حيث أبلغنى سيادته بقرار تعيينى وزيراً للحربية اعتباراً من ذلك اليوم» .

«وفى نفس الوقت كلفنى بإعداد القوات المسلحة للقتال بخطة مصرية خالصة ، تنفذها القوات المسلحة المصرية، لتخلص بها الوطن من الاحتلال الصهيونى، كان لقاؤه لى ودودا إلى أقصى حد ، وكان حديثه معى صريحا إلى كل حد» .

«وعندما انتهى اللقاء ، وركبت السيارة لتنطلق بى عبر شوارع القاهرة ، بدأ شريط طويل من الذكريات والأحداث والظروف يمر فى ذهنى وأمام عينى: هأنذا أعود مرة أخرى لأرتدى الملابس العسكرية. كانت آخر مرة خلعتها فيها يوم ١٢ سبتمبر ١٩٦٩ عندما استدعانى وزير الحربية (فريق أول محمد فوزى) وأبلغنى بقرار إعفائى من منصبى كرئيس للأركان » .

«وبرغم مضى أكثر من خمس سنوات ، إلا أنى لا أزال أذكر [من الواضح أن المشير أحمد إسماعيل لم يسجل هذا النص من مذكراته إلا بعد نصر أكتوبر بما يقرب من عام وقبيل وفاته] أننى قلت لوزير الحربية لحظتها:

« كل ما أرجوه أن أتمكن من الاشتراك فى القتال عندما يتقرر قيام القوات المسلحة بحرب شاملة ضد إسرائيل. وفى هذه الحالة أرجو أن أعود إلى الخدمة ولو كقائد فصيلة أو جندى» .

«وانصرفت إلى منزلى ، وكان ظنى أنه لن تتاح لى فرصة العودة إلى صفوف القوات المسلحة مرة أخرى» .

«وفى فجر يوم ١٤ مايو ١٩٧١ (إجراءات التصحيح ضد مراكز القوى فى مصر) أصدر الرئيس السادات قراراً بتعيينى رئيساً للمخابرات العامة.

والحق ـ أعترف ـ أنى سعدت بهذا القرار ، فقد كان تقديراً لى كجندى وهب حياته لمصر ، وفرصة للإسهام بشكل ما فى خدمة بلدى وفى معركتها المقدسة».

«وبدأت أمارس مهمتى الجديدة. والواقع أن تلك المسئولية جعلتنى غير بعيد ، بل ربما قريبتنى جداً من القوات المسلحة ورفاق السلاح والعمر. لكننى ، برغم تلك المشاركة والاقتراب المباشر من القوات المسلحة ، لم أتوقع كما ذكرت يوماً يجىء أعود فيه للخدمة فى صفوفها مرة أخرى. لكن ها هو اليوم قد جاء عندما كلفنى القائد الأعلى بالمهمة. ومع ضخامة المسئولية وخطورة حجمها ، إلا أنى كنت على قدر كبير من التفاؤل والثقة بالنفس».

هكذا نرى من هذا النص المنسوب إلى أحمد إسماعيل أنه لم يكن يتوقع أن يصبح قائداً عاماً للقوات المسلحة.. ولعل هذا أقـــرب إلى الصواب ، فى تاريخه، فقد كانت علاقة كل من الفريق أول صادق والفريق الشاذلى بالرئيس السادات على مستوى رفيع من الاقتراب والثقة والمحبة.



على أن الإنصاف والسماح بالجانب الآخر من الرؤية يقتضينا مع هذا كله أن نشير إلى حقيقة أن عمل أحمد إسماعيل كمدير للمخابرات العامة قد اتسم ببعض ما اتسم به عمل أسلافه فى هذا الموقع من اندماج فى الحياة السياسية بكل ما تتضمنه من عيوب وتقلبات وتحزبات وتدبيرات، وفى هذا الصدد يهمنى أن أنقل للقارئ صورتين متناقضتين.

فى الصورة الأولى يثنى أحد رؤساء التحرير فى عهد السادات على الدور الذى لعبه أحمد إسماعيل فى إنقاذه من أن يشمله كشف من كشوف الصحفيين المبعدين عن وظائفهم الصحفية حين حضر هو [أى أحمد إسماعيل] والسيدة جيهان السادات لقاء مع الرئيس السادات وكان الكشف الذى أعده الدكتور محمد عبدالقادر

حاتم جاهزا لاعتماده من الرئيس السادات متضمنا اسمه، ولكنهما أثنيا عليه وعلى كتاباته المؤيدة لسياسات الرئيس السادات فكانت النتيجة أن صُرف النظر عما كان مدبراً ضده.

أما الصورة الثانية فتفيض بالانتقاد الذى يصبه الفريق مدكور أبو العز على أحمد إسماعيل بسبب تقرير رفعته المخابرات العامة فى عهده، وصورت فيه تآمراً لمدكور أبو العز على نظام الرئيس السادات:

وقد ذكرت فى كتابى «فى أعقاب النكسة» أنه على الرغم من اعتزاز الفريق مدكور أبو العز بما تحقق من نصر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وبقادة وجنود هذا النصر إلا أنه بحكم بشريته لم يستطع أن يسامح زميله المشير أحمد إسماعيل، لا لسبب عسكرى، أو لقصور فى أدائه الحربى، ولكن لموقفه منه وهو مدير للمخابرات العامة حين اتهم الرئيس السادات «مدكور» بالتدبير للانقلاب عليه، وسنرى فى الفقرات التالية الأسباب التى دفعت مدكور إلى أن ينتقد أحمد إسماعيل فى هذا الموقف صراحة وعلانية، ولكن إنصاف مدكور لم يدفعه إلى أن يتخذ من هذا الموقف دافعا لكى يضم أحمد إسماعيل إلى سلفيه (محمد فوزى ومحمد أحمد صادق) فى انتقاده لأدائهما العسكرى سواء فى منصب الوزير أو قيادة الأركان أو إدارة المخابرات الحربية.. ومع هذا فإن نفسية مدكور غير المستريحة من سلوك أحمد إسماعيل معه فى ١٩٧٢ لم تمكنه أيضا من أن يسجل إعجابه بأداء أحمد إسماعيل سواء فى ١٩٦٧ فى أعقاب الهزيمة أو فى ١٩٧٣ حين قاد الجيوش إلى النصر.

وربما كان من المفيد أن ننقل للقارئ بعض ما يصور به الفريق مدكور أبو العز أسفه البالغ تجاه موقف زميله الفريق (المشير) أحمد إسماعيل حين كان فى ١٩٧٢ مديراً للمخابرات العامة وتولت المخابرات العامة تقديم التقرير الذى تم على أساسه اتهام مدكور أبو العز وتقديمه للاستجواب أمام نيابة أمن الدولة.

ونحن نرى مدكور ينتقد زميله القديم فى جزئيتين:

- الأولى أنه قدم الاتهام وكان الواجب عليه أن يتأكد بنفسه من توافر القرائن والأدلة.

- أما الجزئية الثانية فهى أن يتشفع لزميله [أى مدكور أبو العز نفسه] عند الرئيس السادات بدلاً من أن يقترح عليه تحويله للمحاكمة أمام المحاكم العسكرية.

ومع أن مدكور أبو العز لا يقدم فى مذكراته سنداً على صحة الرواية التى يرويها مُسندة إلى أحمد إسماعيل، فإن خبرتنا بمثل هذه الاتهامات السياسية وتحقيقها تجعلنا نقول إن ما انتقده مدكور من تقديم جهاز المخابرات الاتهام عارياً مكشوفاً كانت أجل خدمة قدمت لمدكور أبو العز، وليس معنى هذا أن المخابرات قصدت خدمته بتقديم الاتهام هكذا عارياً دون أدلة أو قرائن على نحو ما يروى مدكور أبو العز، ولكن المقصود هو أن ننبه إلى ما هو أهم وهو أن المخابرات العامة لم تتورط فى اصطناع أدلة أو تلفيق قرائن تستتبع تحقيقا طويلا يطيل العنت والتعسف على مدكور أبو العز.

ويبدو لى الآن وقد تكشفت معرفتنا بالفترة التى يتكلم عنها مدكور أبو العز ومدى الحساسيات التى كانت تثار فى وجه الرئيس السادات واستعداداته للمعركة أنه كان يطلب إلى أجهزة الأمن الوطنى اتخاذ إجراءات كفيلة بصرف النظر عن هذه البؤر المعارضة، التى كان فتح الحوار معها - فى حد ذاته - كفيلاً بكشف الاستعدادات والخطط الاستراتيجية للقوات المسلحة المصرية، ولو بطريقة جزئية.

وهكذا فلم يكن هدف المخابرات العامة ولا أحمد إسماعيل ولا غيره اتهام مدكور أو غيره وإنما كان كل هدف المخابرات هو تنفيذ فكرة الرئيس السادات فى أن يجعل مدكور «يسكت»، وأن تنصرف الأنظار عن موضوع «العريضة» الشهيرة

ومضمونها فى وقت لا ينبغى فيه الانصراف ولو لدقيقة إلى مثل هذه المناقشات التى كانت كفيلة بالانتقاص من الاستعداد الدائب للحرب.

ومع هذا كله ومع تقبلنا له بحكم ظروف تلك الفترة فقد كان من الواجب على الرئيس السادات وعلى نظامه، بعد النصر الساحق الذى حققناه فى الحرب، أن يعود ليكرم مدكور أبو العز وأصحاب العريضة، وأن يبرر له ولهم ما فعله فى ذلك الوقت، وظنى أن هذا لو حدث لكان مدكور أبو العز نفسه أول المقدرين، ولكن يبدو أن تزاحم الأحداث وتدافعها لم يمكن السادات ولا نظامه من هذه المصالحة وهذه الترضية الواجبة، وأنا أقول كل هذا الذى أقول مفترضا صواب وصدق مدكور فى كل ما رواه، ومؤسسا وجهة نظرى على براءته من الاتهام ومن روح الاتهام:

ولنقرأ بعد هذه الملاحظات ما يرويه مدكور أبو العز فى مذكراته:

«... كان التحقيق معى مواكباً للوقت الذى كان يتولى فيه رئاسة المخابرات العامة - أحمد إسماعيل - وباختصار شديد انتهى التحقيق معى إلى لا شىء. هذا موقف نيابة أمن الدولة والنائب العام، وهذا رأى آخرين ممن أخذ برأيهم، ومرة أخرى أشعر بالقيم تنهار حينما يبدى الفريق أحمد إسماعيل رأيه مجافياً للعدالة ومجاملة للرئيس السادات فيقترح محاكمتى أمام المحاكم العسكرية لأن المحكمة المدنية قد تبرئنى».



ويستعيد مدكور أبو العز الماضى الجميل الذى لم تكن قد مرت عليه فى ذلك الحين إلا سنوات معدودة:

« وهنا أذكر القارئ الكريم بيومى ١٤ و١٥ يوليو حينما هاجمت الطائرات الإسرائيلية بشراسة قواتنا المسلحة على طول جبهة القناة وطلب اللواء أحمد إسماعيل - وكان وقتذاك قائداً للجبهة - من القيادة العامة تدخل القوات الجوية لتخرجه من المأزق الذى كان فيه، وكنت وقتذاك قائداً للقوات الجوية، فرفض

طلبه القائد العام الفريق أول محمد فوزى، فطلب منى اللواء أحمد إسماعيل التدخل ولما تبينت منه أن الموقف عصيب، والمأزق الذى يتعرض له وتتعرض له قواتنا المسلحة شديد، والصورة التى كان عليها مهتزة شديدة الاهتزاز، وهو يطلب منى التدخل، فقد وعدته بتدخل القوات الجوية فى المعركة متحملاً ما ينتج عن ذلك من تبعات».

«كان تدخل القوات الجوية حاسماً وأتى بأحسن النتائج على النحو الذى شرحته، [تناولنا هذه الأمجاد والجزئيات بالتفصيل فى كتابنا: «فى أعقاب النكسة»] أما موضع الألم فإننى وقد ثبت للفريق أحمد إسماعيل من موقفى هذا، المعادن الأصيلة للرجال، كنت أتوقع منه أن يكون عوناً لى فى موقف يعرف فيه أن الرئيس السادات يتربص للنيل منى فلا يكون خصماً لى ونداً لا لخطأ ارتكبته ولكن درءا لاتهامات أنا برىء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب».

«كنت أتوقع منه أن موقفى هذا حين طلب منى النجدة وهرعت لتلبية النداء يجعله يشفع لى بدلاً من أن يتقرب إلى السادات على حسابى فيقترح تطوعاً محاكمتى عسكرياً كمنفذ لإيذائى عندما تبين للسادات أن المحكمة المدنية سوف تبرئنى وتجعل المحاكمة المدنية منى بطلا».

«وكنت أتوقع منه أيضاً وهو مدير المخابرات العامة ألا يقدم تقريراً باتهامى أمام نيابة أمن الدولة قبل أن يتأكد بنفسه من توافر القرائن والأدلة لديه بما يكفى للإدانة، أما تقديم الاتهام عارياً مكشوفاً، واهيا أوهى من نسيج العنكبوت، فإن ذلك لا يدل على شىء إلا أنه أراد أن يجامل السادات على جثث الأبرياء الأشراف».

«استطاع القضاة (يقصد رجال نيابة أمن الدولة) الذين قاموا بالتحقيق معى الوصول إلى الحقيقة، وهم ليسوا فى حاجة إلى ثناء منى أو من غيرى، وكنت أريد أن أزين صفحات هذه المذكرات، فأذكر أسماءهم، فآثرت عدم ذكرها تجنباً

للإحراج.. إن القاضى لا يقبل من أحد شكراً لحكم أصدره ببراءته، كما أنه يرفض من أحد لوماً لحكم أصدره بإدانته، فلو أنه قبل الشكر مرة، فقد أعطى الفرصة لتوجيه اللوم له ولغيره من القضاة مرات، وليس لأحد كائناً من كان الحق فى مدح القاضى أو قدحه على حكم أصدره، ندعو الله لهؤلاء ولقضائنا بالتوفيق والسداد.. ولست أملك هنا إلا أن أقول وأؤكد أن فى ساحة قضائنا عمالقة».

6

وزيرا وقائداً لحرب أكتوبر

ربما كان من الأوفق أن نبدأ هذا الباب بطرح سؤال محدد يقول: هل كان أحمد إسماعيل أنسب القادة المصريين لتولى قيادة حرب أكتوبر ١٩٧٣ ؟

أحب أن أعترف أنى كنت عند تأليفى لهذا الكتاب منذ أكثر من عشرين عاما ومن واقع قراءاتى ولقاءاتى قد أدركت أن اختيار السادات لأحمد إسماعيل ليكون قائداً للقوات المسلحة قبل حرب أكتوبر كان بمثابة الاختيار العبقرى من جميع الوجوه ، وقد بنيت استنتاجاتى هذه على المقارنة بين أحمد إسماعيل وبين غيره من القادة «المتاحين» فى ذلك الوقت، فوجدت فى شخصية أحمد إسماعيل ثلاث مزايا يتفوق بها تماما على الآخرين:

(١) الميزة الأولى أنه كان أقربهم إلى عمل القوات المسلحة وتشكيلاتها، طيلة أكثر من ثلاثين عاماً متصلة لم يبتعد عنها إلى مواقع سياسية أو دبلوماسية أو إدارية.

(٢) الميزة الثانية أنه كان أكثر الجميع خبرة ميدانية فى التشكيلات الميدانية، كما كان أكثر الجميع خبرة فى المواقع القيادية المتدرجة.

(٣) الميزة الثالثة أنه كان مهنياً محترفاً بعيداً تماماً عن الأيدولوجيات والمظهريات.

وقد عبرت عن هذه المعانى بوضوح فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب.

ثم حدث بعد أكثر من ٥ سنوات من نشرى للطبعة الأولى من كتابى هذا أن نشر المشير الجمسى مذكراته فرأيته، ويا للفخر، يتحدث عن هذه الفكرة بمثل ما تحدثت، وإذا به يشير إلى أنه فى حوار عابر وغير مرتب مع أحمد إسماعيل يجيبه على سؤاله: متى تحاربون يا جمسى بقوله: عندما تتعين أنت قائداً عاماً للقوات المسلحة.. وقد دار هذا السؤال على حين لم يكن فى الأفق ما يدل على أن أحمد إسماعيل قد يعين قائداً عاماً للقوات المسلحة.

ثم حدث مرة أخرى أن قرأت مذكرات اللواء عبدالمنعم خليل فإذا به يروى بكل وضوح أن القادة الكبار من طبقته كانوا يحسون أن الرئيس السادات يفاضل بين محمد حافظ إسماعيل وأحمد إسماعيل لتولى منصب القائد العام للقوات المسلحة.

وفى ذكرى مرور ٢٥ عاماً على حرب أكتوبر وجدت الرئيس محمد حسنى مبارك نفسه وهو يصرح بهذا المعنى بكل وضوح فى حديثه مع الأستاذ إبراهيم نافع الذى نشر فى جريدة الأهرام.

وقبل هذا وذاك فإن فى مذكرات الفريق سعد الشاذلى نصاً يدلنا بوضوح على أن الفريق الشاذلى نفسه كان مقتنعاً تماماً بالفكرة التى سجلها أحمد إسماعيل فى تقرير له فى النصف الأول من عام ١٩٧٢ ، وهو رئيس للمخابرات ، من أن قيام مصر بحرب هجومية قد يقود إلى كارثة. ومن ثم فإنه ـ أى الشاذلى ـ كان يعول

على هذا الفهم الذى يتميز به أحمد إسماعيل فى أن تضع القوات المسلحة خطة قابلة للتنفيذ أو عملية هجومية محدودة ، وهو ما توافق عليه رأيه مع أحمد إسماعيل على حين لم يكن هذا التوافق وارداً فى حالته مع الفريق أول محمد أحمد صادق.

وعلى كل الأحوال فمن المفيد أن نقرأ مثل هذه النصوص الكاشفة بإمعان:

هذه أولا فقرة من حديث الرئيس محمد حسنى مبارك للأستاذ إبراهيم نافع:

«وفى أبريل عام ١٩٧٢ حسبما أتذكر عينت قائدا للقوات الجوية، وحين عينت قائدا للقوات الجوية كنا مازلنا نتدرب ونجهز القوات الجوية، إلى أن عين أحمد إسماعيل على - رحمه الله - وزيرا للدفاع، وبدأنا فعلا التخطيط لحرب ١٩٧٣ . وقد بدأنا فى نوفمبر ١٩٧٢ واستمر الإعداد والتجهيز لجميع أفرع القوات المسلحة طوال ٧٣ حتى قامت الحرب. ومن الطبيعى أن يستغرق الإعداد لمعركة شاملة وقتا طويلا، لأنه يشمل التخطيط وتحديد المهام، والقدرات المتاحة لتنفيذ هذه المهام. وكان علينا أن نخطط ونستكمل قدراتنا فى الوقت نفسه، وهذه العملية تطلبت مجهودا ضخما جدا، سواء من القوات الجوية أو الأفرع الأخرى للقوات المسلحة جمعاً!!».



وهذه ، ثانياً ، هى الفقرة التى توحى لنا بحرص الجمسى على أن يعبر لنا [دون أن يضطره أحد إلى ذلك] عن أنه [أى الجمسى] كان يستبصر خبرته السابقة بالقادة المتاحين فى الصف الأول ومعلوماته عنهم فيتمنى ، بعقله الباطن ، لو كان أحمد إسماعيل هو قائد القوات المسلحة المصرية بدلاً من أسلافه، وهذا هو النص الحرفى لهذه الفقرة المهمة التى يعبر فيها الجمسى عن هذا المعنى فيقول:

«.. وفى النصف الأول من عام ١٩٧٢ تقابلت مصادفة مع اللواء أحمد إسماعيل مدير المخابرات العامة حينئذ فى مطار القاهرة الدولى ، وكان كل منا يودع أحد الرسميين الأجانب. وأثناء خروجنا معاً من المطار ، وكنا نسير وحدنا ، بادرنى اللواء أحمد إسماعيل بسؤال مباشر وبصوت منخفض هامس قائلاً:

« متى ستحاربون ياجمسى ؟» .

كان ردى:

«سنحارب عندما تتعين أنت وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة ، وستعلم حينئذ لماذا لم نحارب حتى الآن» .

على هذا النحو يلقى الجمسى بهذه العبارة التقريرية الحاسمة ثم يردفها بذكر انطباع المشير أحمد إسماعيل فيقول:

«حاول معرفة المبررات التى بنيت عليها رأيى فلم أضف كلمة واحدة ، وتركت له تفسير ردى بالطريقة التى يراها لأنى كنت أثق بأن اللواء أحمد إسماعيل يعلم - بحكم منصبه - الموقف السياسى داخليا وخارجياً ، ويتابع موقف القوات المسلحة ويعلم أننا لم نستكمل استعدادنا للحرب» .



على هذا النحو ألزم الجمسى نفسه دون أى ضغط من أى أحد بتبنى فكرة صلاحية أحمد إسماعيل دون غيره (أو قبل غيره على الأقل) لقيادة قواتنا المسلحة من أجل الحرب!

ولست أستطيع أن أجد فى كل أدبيات السياسة المصرية المتاحة نصا واضحا

يفوق هذا النص فى تقدير أحمد إسماعيل وإعطائه حقه ومكانته اللائقة، ولو لم يكن فى كتاب الجمسى كله عن أحمد إسماعيل وعظمته غير هذا النص لكفاهما.



ومع هذا فلا ينبغى لنا أن نفوت هذه القصة دون أن نشيد بقدرة الجمسى على استبصار الحقائق والمعطيات على هذا النحو! فهو يستشرف المستقبل فى أكثر من خطوة، ويأتى استشرافه ـ لحسن الحظ ـ صواباً، فهو يرى احتمال عودة أحمد إسماعيل إلى القوات المسلحة قائماً ، ويراها ممكنة على المستوى الذى عاد به قائداً عاماً ووزيراً، كما يرى أن هذه العودة ستمهد لقيادة قواتنا المسلحة من أجل النصر. ولابد أن للجمسى من خبرته وفهمه أسبابا، ومبررات قوية للوصول إلى مثل هذا الحكم القاطع على هذا النحو.

ثم ها هو المشير الجمسى يحدثنا عن ذكرياته عن اليوم الذى تم فيه تعيين المشير أحمد إسماعيل على وزيراً للحربية، وكيف أنه هو نفسه كان قد سافر إلى دمشق بالفعل على أن يلحق به الوزير الفريق أول محمد صادق فى اليوم التالى فإذا به وهو فى دمشق يعلم بتعيين الفريق أول أحمد إسماعيل وزيراً وعزل الفريق أول محمد أحمد صادق فيعود من فوره إلى القاهرة:

يقول المشير الجمسى فى مذكراته :

«... وفى إطار عملى كرئيس لهيئة العمليات تعينت لمرافقة الفريق أول صادق لزيارة دمشق لأعمال التنسيق العسكرى بين مصر وسوريا خلال الأيام القليلة التالية مباشرة لمؤتمر الجيزة الذى عقد يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٧٢ . وفى الليلة السابقة لسفرنا ، اتصل بى الفريق أول صادق تليفونيا بالمنزل ، وأخطرنى أنه لن يسافر

صباح اليوم التالى كما كان مقرراً ، لأنه مطلوب لمقابلة الرئيس السادات ، وأنه سيلحق بى فى دمشق بعد انتهاء المقابلة. سافرت وحدى إلى دمشق يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٧٢ . وعلمت صباح اليوم التالى من السفارة المصرية والصحف السورية نبأ تعيين اللواء أحمد إسماعيل وزيراً للحربية وترقيته لرتبة فريق أول ، فقررت العودة فوراً إلى القاهرة فى نفس اليوم ووصلتها مساءً. توجهت من المطار مباشرة إلى مكتبى بملابسى المدنية».

وهنا يستطرد الجمسى ليقول:

«وكان تعيين الفريق أول أحمد إسماعيل وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة هو الخطوة الرابعة للإسراع فى الطريق إلى حرب أكتوبر».



وينفرد كتاب اللواء عبدالمنعم خليل - «فى قلب المعركة» دون كل المذكرات المناظرة - بحديث صريح عن أن قادة القوات المسلحة المصرية - ومنهم عبد المنعم خليل نفسه - كانوا قد بدأوا يستشعرون رغبة الرئيس السادات فى إسناد منصب القائد العام للقوات المسلحة المصرية إلى أحد رجلين: أحمد إسماعيل أو محمد حافظ إسماعيل، وهو يروى فى هذا الصدد ملاحظات مبكرة استشف منها هو وزملاؤه من كبار القادة هذا التفكير، وهذه بعض تفصيلات مهمة يرويها عن تمهيد السادات الجو لمثل هذا الاختيار، ومن ثم فقد استطاع عبد المنعم خليل هو وغيره من القادة أن يفهموا إشارات السادات وتصرفاته فى هذا الصدد:

يقول اللواء عبد المنعم خليل:

«... ثم لما عين مَنْ رآهم يصلحون للسير معه على طريقه [الضمير يعود على

صباح اليوم التالى كما كان مقرراً ، لأنه مطلوب لمقابلة الرئيس السادات ، وأنه سيلحق بى فى دمشق بعد انتهاء المقابلة. سافرت وحدى إلى دمشق يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٧٢ . وعلمت صباح اليوم التالى من السفارة المصرية والصحف السورية نبأ تعيين اللواء أحمد إسماعيل وزيراً للحربية وترقيته لرتبة فريق أول ، فقررت العودة فوراً إلى القاهرة فى نفس اليوم ووصلتها مساءً. توجهت من المطار مباشرة إلى مكتبى بملابسى المدنية».

وهنا يستطرد الجمسى ليقول:

«وكان تعيين الفريق أول أحمد إسماعيل وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة هو الخطوة الرابعة للإسراع فى الطريق إلى حرب أكتوبر».



وينفرد كتاب اللواء عبدالمنعم خليل - «فى قلب المعركة» دون كل المذكرات المناظرة - بحديث صريح عن أن قادة القوات المسلحة المصرية - ومنهم عبد المنعم خليل نفسه - كانوا قد بدأوا يستشعرون رغبة الرئيس السادات فى إسناد منصب القائد العام للقوات المسلحة المصرية إلى أحد رجلين: أحمد إسماعيل أو محمد حافظ إسماعيل، وهو يروى فى هذا الصدد ملاحظات مبكرة استشف منها هو وزملاؤه من كبار القادة هذا التفكير، وهذه بعض تفصيلات مهمة يرويها عن تمهيد السادات الجو لمثل هذا الاختيار، ومن ثم فقد استطاع عبد المنعم خليل هو وغيره من القادة أن يفهموا إشارات السادات وتصرفاته فى هذا الصدد:

يقول اللواء عبد المنعم خليل:

«.... ثم لما عين مَنْ رآهم يصلحون للسير معه على طريقه [الضمير يعود على

من القادة الكبار ويبدأ فى الحديث أمامهم عن ذكرياته مع عبدالناصر عن هذين القائدين بالذات، ولنقرأ بكل تأمل ما يرويه اللواء عبدالمنعم خليل فى هذا الصدد حيث يقول:

«...إلى أن التقى بنا الرئيس السادات: والفريق أول صادق واللواء واصل قائد الجيش الثالث، واللواء عبدالمنعم خليل قائد الجيش الثانى، ودار حديث هادئ مريح، أثار فيه الرئيس السادات ذكرياته مع عبد الناصر عن أحمد إسماعيل وموضوع رادار رأس غارب وإبعاده عن القوات المسلحة. أما عن حافظ إسماعيل.. فإن الرئيس جمال كان فى تخطيطه تعيينه قائداً عاماً للقوات المسلحة ليقود القوات المسلحة المصرية فى حرب التحرير، ولكنه لقى ربه قبل أن يصدر هذا القرار. والحقيقة أننا فهمنا أن الرئيس السادات يميل إلى تعيين أحدهما، ولكنه لم يفصح بشىء، وانتهى الاجتماع واستمرت زيارة الرئيس السادات للمواقع ومعه الفريق أول صادق».



أما الفريق سعد الشاذلى فيروى فى مذكراته ، أن الظروف واتته للانتصار لرأيه القديم فى الاستراتيجية التى ينبغى أن تكون عليها الحرب عندما عين الفريق أول أحمد إسماعيل وزيراً للحربية فى أكتوبر ١٩٧٢ ، فقد كان من حسن حظ مصر (لا حسن حظ الشاذلى وحده ولا حسن حظ أحمد إسماعيل هو الآخر ولا حسن حظهما وحدهما فحسب) أن الرجلين على اختلاف موقعيهما من قبل كانا يقدران أن قيام مصر بحرب هجومية كبيرة قد يقود إلى كارثة، وكان الشاذلى يعلم أن أحمد إسماعيل قد سجل هذا فى تقرير أعده وهو فى منصبه السابق كمدير للمخابرات، وأن الرئيس السادات أشار إلى هذا التقرير فى اجتماع عسكرى رئاسى ٦ يونيو ١٩٧٢ ووافق عليه».

وهكذا فإن الشاذلى فى مذكراته يروى أنه قد ذكّر أحمد إسماعيل (عندما أصبح قائداً عاماً ووزيراً) بما كان قد كتبه فى تقريره، وأضاف أن القوات المسلحة لم تتغير كثيراً منذ كتب تقريره، وهكذا اتفق الرجلان منذ أيامهما الأولى على التركيز على خطة المآذن العالية، ونحن نلاحظ أن الشاذلى لا يصور الأمر بفعل «الاتفاق»، ولكن باللفظ الذى يقول إن المشير أحمد إسماعيل هو الذى «اقتنع»، مع أن الفريق الشاذلى نفسه روى لنا أن هذا كان رأى أحمد إسماعيل منذ شهور!!.



ويتأكد هذا المعنى فى فقرة أخرى للفريق الشاذلى يقول فيها:

«... عندما عين الفريق أحمد إسماعيل وزيراً للحربية وقائداً عاماً للقوات المسلحة خلفاً للفريق صادق فى نهاية شهر أكتوبر ١٩٧٢، عرضت عليه خططنا الهجومية لمناقشتها معه. لقد كنت أعلم مسبقاً وجهة نظره عن الحرب من تقرير كان قد تقدم به بصفته مديراً للمخابرات العامة فى النصف الأول من عام ١٩٧٢، وفى هذا التقرير ذكّر بأن مصر ليست على استعداد للقيام بحرب هجومية، وحذر من أنه لو قامت مصر بشن الحرب تحت هذه الظروف فإن ذلك قد يقود إلى كارثة، وكان هذا التقرير قد رُفع إلى رئيس الجمهورية وأرسلت صورة منه إلى القيادة العامة للقوات المسلحة، وأيد رئيس الجمهورية هذا التقرير فى مؤتمره الذى عقد فى القناطر الخيرية يوم ٦ يونيو ١٩٧٢» .

« وعندما كنت أناقش الموقف العسكرى مع الفريق أحمد إسماعيل بصفته الجديدة كوزير للحربية، ذكرته بتقريره السابق وقلت له: «لم تحدث اختلافات كبيرة فى القوات المسلحة منذ تقريرك، وبالذات فيما يتعلق بالدفاع الجوى، ولكننى أعتقد أنه بإمكاننا أن نقوم بعملية هجومية محدودة. ثم عرضت عليه الخطة

«جرانيت٢» وخطة «المآذن العالية»، وقد اقتنع بعدم قدرتنا على تنفيذ الخطة «جرانيت٢» وأنه يجب علينا أن نركز على خطة «المآذن العالية»، وتحدد ربيع ١٩٧٣ كميعاد محتمل للهجوم».



هكذا يتضح لنا أن وجود أحمد إسماعيل نفسه على رأس القوات المسلحة المصرية كان مرتبطا بما هو أهم بكثير من وجود شخص كفء، لأنه كان مرتبطا بوجود فكر قادر على أن يتجاوز بالوطن من خلال القوات المسلحة حالة الجمود فى الموقف أو حالة اللاحرب واللاسلم إلى وضع جديد.

ومع أن كثيرين يستسهلون لأسباب كثيرة، القول الغريب بأن خطة حرب أكتوبر ١٩٧٣ كانت موضوعة منذ عهد عبدالناصر إلا أن المناقشات والتحيلات التى تتضمنها الأبواب التالية من كتابنا هذا كفيلة بأن تدلنا على وجه الحق فى هذا الأمر.

ومن المفيد أن ننقل فقرة مهمة فى هذا المعنى كتبها الفريق أول **كمال حسن على** مدير المدرعات فى حرب أكتوبر فى مذكراته «مشاوير العمر» حيث يقول:

«هناك من يدعى أن خطة حرب أكتوبر كانت جاهزة من قبل أن يتولى السادات الحكم وأنه لم يكن لعهده فضل فى التخطيط للمعركة أو التجهيز والإعداد لها».

«وللحق أقول إنه حتى آخر يوم فى حياة عبدالناصر، لم يكن لدينا سوى خطة دفاعية تتحول إلى الهجوم المضاد ومطاردة العدو فى حالة بدئه هو بالهجوم. هذا بالإضافة إلى خطط الاستنزاف التى كانت توضع وفقاً لمقتضيات الموقف والمتوافر من السلاح، ويرجع ذلك إلى سبب بسيط هو أن القوات المسلحة لم تستكمل تسليحها وإعدادها إلا بعد عام ١٩٧٠ الذى توفى فيه عبدالناصر».

«أما خطة الهجوم التى نفذت يوم ٦ أكتوبر بأعمال الخداع المبدعة والابتكارات الهندسية للعبور وإزاحة الساتر الرملى بمضخات المياه والتخطيط المحكم لمراحل العبور والإعداد الجيد لها، فالحقيقة أنها تمت كلها وبهذه الروح العالية الوثابة التى بلغت ذروة تأججها فى عهد السادات نتيجة لجو الحماسة الذى غمر الرجال فى هذا العهد، فكان أن اعتصروا كل ما فى جعبتهم من ذكاء وتعاون وإخلاص وكان أن برزت كفاءات من القادة والرجال يستطيع أن يضعهم التاريخ فى سجل القادة العالميين» .

صانع النصر
المشير أحمد إسماعيل

7

الإعداد لحرب
أكتوبر ١٩٧٣

نتناول فى هذا الباب بعض ملامح الأسلوب الذى اتبعه المشير أحمد إسماعيل فى إعداد القوات المسلحة لحرب أكتوبر ١٩٧٣ على مدى العام السابق لوقوع الحرب وهو العام الذى عمل فيه قائداً عاماً ووزيراً للحربية، ونحاول فى هذا الباب أن نرسم بعض ملامح هذا الأسلوب الذى اتبعه على نحو ما أمكننا استيعابه من المصادر والكتابات التاريخية المتاحة.

ويقتضينى الإنصاف أن أشير إلى أن أسلوب أحمد إسماعيل فى الإعداد لحرب أكتوبر ١٩٧٣ لا يقل أهمية ولا يقل عبقرية عن أسلوبه فى إدارة هذه الحرب بل ربما تفوق كلا الأسلوبين على الآخر وعلى نفسه.

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن الإعداد لهذه الحرب على ذلك النموذج الذى تمت به بالفعل وفى هذه الفترة القصيرة كان نوعاً من أنواع الإعجاز، ويرجع السبب فى هذا إلى أن الجو العام على مستوى الوطن وعلى مستوى القوات المسلحة أيضاً، كان مشوشا إلى أبعد الحدود وليس أدل على هذا التشويش وحجمه مما لا

يزال باقيا منه فى آثاره الواضحة التى تطبع آراء مَنْ يكتبون عن حرب أكتوبر دون أن يدرسوا جوانبها المختلفة.



وقد تمثلت عبقرية أحمد إسماعيل فى تمكنه من النفاذ من الغيوم والضباب التى أحاطت بموقف القيادتين السياسية والعسكرية من الحرب، وقد تمكن أحمد إسماعيل من هذا النفاذ بالرجوع بنفسه وبجنوده إلى الحقيقة الأولى فى العسكرية وهى أن **للقوات المسلحة واجباً واحداً فقط هو أن تؤمر بالقتال فتقاتل**، وهكذا خلص أحمد إسماعيل نفسه القوات المسلحة من عبء ثقيل تمثل فى مشاركة القائد العام للقوات المسلحة ومشاركتها فى السياسة على نحو أو آخر، واستقطابها لنفسها ولغيرها بسبب انحيازات فكرية إلى آراء سياسية ينشأ الانحياز إليها نتيجة لقوة الإقناع أو للوسائل الأخرى المتحكمة فى عرض الحقائق والحقائق المضادة والانتقاء من بينها.



وقد أعقب أحمد إسماعيل هذه الخطوة الجبارة بخطوة أخرى لا تقل عنها أهمية ولا حيوية ولا فائدة ولا ذكاء... وهى فكرته فى **بناء الاستراتيجية على ما هو متاح فى اليد بالفعل دون تعويل على وعود أو تعاقدات أو طلبات أو خطط.**

وهكذا خلصّ هذا القائد العبقرى جنوده من التحكم فى خطواتهم بأى قدر من الوهم أو الاعتماد على الآخر أو انتظار المستقبل،

وفى عبقرية لا تتأتى إلا للممارسين القدامى الذين تمرسوا بالخبرة طيلة عقود طويلة صك أحمد إسماعيل جوهر المذهب الكفيل بتهيئة فكرته هذه للقبول من خلال شعار جميل هو أن: «**السلاح بالجندى وليس الجندى بالسلاح**».

وبهذا الفهم وأد أحمد إسماعيل كل تفكير فى تأجيل قرار الحرب أو ربطه بإمكانات غير منظورة أو وعود متوقعة، بل إن هذه الفكرة فى حد ذاتها كانت أقوى صورة من صور تحرير الإرادة من الارتهان لوعود أو مساعدات أو حتى تعاون مشروع أو متوقع أو مأمول.

ويكفينى لتوضيح هذه الفكرة بمثل مضىء أن أنقل ما رواه المشير محمد على فهمى فى حواره مع الأستاذ عبد الله الحاج (الأهرام العربى، ١٩٩٨) حيث يقول:

«هناك مقولة عن السلاح تقول إنه لابد من تفصيله للمهمة التى سيستخدم فيها وهو ما تم، فالصواريخ الروسية كانت كبيرة فى حجمها، وظاهرة لطائرات الاستطلاع الجوى، ويسهل إصابتها، وفى فيتنام كانت طائرات «بى ٥٢» تبحث عنها وتضربها وسماها الأمريكيون «البط الجالس» نحن جعلنا من البط الجالس بطا متحركا، أى حولنا الصواريخ الساكنة الهامدة إلى أسلحة متحركة، تتحرك مع القوات وتساعدهم فى تقدمهم وهو ما لم يعرفه الروس أنفسهم».



وجاءت الخطوة الثالثة ببدء ممارسة التدريب على معارك هجومية بعد ما كانت القوات المسلحة قد دخلت مرحلة الخنادق والدفاع المستمر والمناورات الدفاعية وابتعدت عن فكرة الخروج إلى الهجوم.

وكانت الجدية فى التدريب مضرب الأمثال حتى إن بعض مراحل الحرب نفسها كانت أقل مشقة على الجنود من التدريب، وسنتناول هذه الفكرة فى مواضع أخرى بالتفصيل، ولكن ما يهمنا الإشارة إليه هنا هو أن أحمد إسماعيل كان حريصا على أن ينقل جو المعركة كله إلى ما قبل المعركة، ولم يكن هذا بالأمر السهل على جنود عاشوا سنوات من التحصن والدفاع والحرص على تقليل التعرض وعلى توفير الذخيرة.

وجاءت الخطوة الرابعة الجبارة فى أسلوب أحمد إسماعيل وهى التفكير فى العدو ومشكلاته بنفس القدر من التفكير فى الذات وإمكاناتها.

وهكذا أمكن لأحمد إسماعيل أن يوظف المعلومات والدراسات التى قامت بها أجهزة المخابرات العامة والمخابرات العسكرية والأجهزة الأخرى على نحو كفيل بتحقيق فائدة مرجوة للعمليات العسكرية.

وليس من شك أن فترة عمل أحمد إسماعيل كمدير للمخابرات العامة طيلة عام ونصف قد أفادته إفادة كبرى فى هذا المجال ، وربما يصعب على كثيرين منا تقدير قيمة مثل هذه الخطوة فى الوقت الذى أصبحنا نعيش فيه المجتمع المفتوح وعصر الإعلام، ولكن الذين عاشوا هذه الفترة يدركون مدى الجهد الذى بذل فى تعريف قواتنا المسلحة بالعدو وطباعه وتناقضاته وميزاته وإمكاناته، فقد كان الحديث عن أى شىء يخص العدو قد وصل إلى حد أن أصبح نوعاً من المحرمات.. ولكن أحمد إسماعيل كما سنفصل القول فى موضع آخر بدأ سياسة توعية جنوده فى القوات المسلحة بكل ما أمكن للمخابرات العامة والعسكرية رصده من معارف عن العدو وتناقضاته.



وجاءت الخطوة الخامسة متمثلة فى العمل على استثمار الإبداع من أجل حرب غير تقليدية، وفى هذا الصدد يُذكر لأحمد إسماعيل على سبيل المثال تبنيه لفكرة حصار باب المندب ،كما يذكر له تشجيعه وتبنيه لكل الأفكار التى تم تنفيذها فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وهى أفكار كثيرة ومتعددة، ولم يكن للعدو خبرة بها ولا توقع، ومنها على سبيل المثال استخدام المياه فى إحداث الفتحات فى خط بارليف.



أما الخطوة السادسة فتمثلت فى ترسيخ وتوكيد سياسات الخداع والتمويه التى سنتناول الحديث عنها بقدر موجز، معتمدين على وفرة ما ترسب فى الوجدان العربى من معلومات كافية عنها.



أما الخطوة السابعة فتمثلت فى تدعيم التعاون مع الجبهة السورية والتعاون العربى على وجه العموم وسنتناول ملامح هذه الخطوة أيضاً بقدر من التفصيل.



وكانت الخطوة الثامنة والأخيرة هى الحرص الشديد على الكتمان الشديد إلى درجة أن المعركة وقعت دون أن يشارك المصورون الحربيون المصريون فى تصويرها، ودون أن يشارك المراسلون الحربيون المصريون فى تغطيتها، وقد مثلت هذه الخطوة أكبر درجة من درجات الحذر التقليدى والحذر الإبداعى على حد سواء.

وفى هذا الصدد فانى أفضل أن أنقل عن المشير محمد عبد الحليم أبو عزالة بعض ما اختاره من فقرات لمؤلف عسكرى بارز هو أنتونى كوردسمان من كتابه «دروس الحرب الحديثة» عن حرب أكتوبر حيث يقول:

«يجب إعطاء المصريين حقهم لخطة الخداع البارعة التى حدثت فى التاريخ العسكرى. فما بين عام ١٩٧١ وعام ١٩٧٣ تمكنت مصر من بناء قدراتها لشن هجوم مفاجىء اشترك فيه مئات الألوف من الأفراد، لقد فعلوا ذلك باستغلال فرط الثقة الإسرائيلية وإجراء سلسلة من أعمال التعبئة والحشد بحيث بدت كما لو كانت أعمال تدريب روتينى بغرض سياسى ودعائى. لقد بُنيت الخطة المصرية على ثلاثة أسس: إظهار العمليات العسكرية على أنها أعمال تدريبية أو أعمال سياسية،

وإخفاء كل الدلائل على أن مصر لديها استعداد للقيام بعمليات عبور القناة والاستيلاء على الجزء الجنوبى من سيناء، وإخفاء كل المعلومات الخاصة بتوقيت الهجوم».



ويبدو لى أن الأفكار التى لخصتها فى الفقرات السابقة فى حاجة إلى قدر من التفصيل، ولهذا فإنى أحب أن أؤكد على أن أحمد إسماعيل قد ركز منذ اليوم الأول لتوليه منصب القائد على تعميق مفهوم العسكرية عند ضباطه وجنوده، وكان لا يفتأ يكرر أن على القوات المسلحة واجبا واحدا، وواحدا فقط، هو أن تؤمر بالقتال فتقاتل، وهكذا أبعد أحمد إسماعيل القوات المسلحة عن مجرد التفكير فى الخوض فى أى مجال من المجالات التى طاب لكثيرين من القادة من قبله أن يزجوا بالقوات المسلحة فى غمارها.

وحرص أحمد إسماعيل على أن يعطى للعسكرى المصرى قيمته الحقيقية على أرض وطنه، وكان من حسن حظه أن الرئيس السادات قد سبقه فى هذا الخط بقراره الشجاع الذى اتخذه بطرد الخبراء السوفيت، وهكذا بدأ إحساس رجال القوات المسلحة المصرية بذواتهم يتعمق، والتفتوا إلى مسئولياتهم الكاملة عن وطنهم وبحريتهم فى اتخاذ قراراتهم، وبكرامتهم على أرضهم، وبخبرتهم الحقيقية التى لم تكن تقل عن خبرة هؤلاء الخبراء.



وننتقل لنصور للقارىء انطباعات المشير الجمسى عن أسلوب عمل القائد العام الجديد من خلال فقرات ترينا كيف وضع أحمد إسماعيل خطته الزمنية للإعداد لهذه الحرب ، وذلك من خلال ما يرويه المشير الجمسى فى مذكراته عن لقاءاته الأولى بأحمد إسماعيل بعد توليه القيادة العامة، وهو يقول:

« ... فى هذه المقابلة الأولى (يقصد بعد تولى أحمد إسماعيل وزارة الحربية) مع الفريق أول إسماعيل تحدثنا طويلاً عن الموقف العسكرى. وعرفت من المناقشة أن لديه معلومات كاملة وفكرة دقيقة عما يدور داخل القوات المسلحة بحكم منصبه السابق - رئيس المخابرات العامة - كما شعرت منه بأن لديه التصميم والإصرار على سرعة استكمال الاستعداد للقتال لبدء الحرب فى أقصر وقت ممكن».

«وكان له سؤال محدد يريد الإجابة عنه هو «متى تكون القوات المسلحة مستعدة للحرب؟»».

«كان أحمد إسماعيل يرى ، أنه قد مضت خمس سنوات والقوات رابضة فى خنادقها على جبهة القناة ، وبهذا أصبح الأفراد مهددين بما نطلق عليه عسكرياً «مرض الخنادق» من طول المدة ، وذلك أمر خطير يؤثر على الروح المعنوية وكفاءة القتال. كما كان يرى أن السياسة دخلت القوات المسلحة من باب خلفى. ولكثرة الأحاديث السياسية من غير المختصين ، فإن الثقة قد اهتزت وتخلخلت فى نفوس بعض القادة وبين صفوف القوات المسلحة. وأنه نتيجة لما سبق ، وهو فى نفس الوقت بالغ الأهمية ، أصبحت كفاءة الخطة الدفاعية عن الدولة موضع شك ... وساءت التجهيزات الهندسية ، وأهمل العمل تماماً فى تحسين أوضاع القوات ، بحيث صار الحال فى مواقع الجبهة - بغير تجاوز - دون المستوى المطلوب».



ويردف المشير الجمسى برواية بعض ما دار من حوارات بينه وبين المشير أحمد إسماعيل:

«لقد سمعت لرأى الفريق أول أحمد إسماعيل ، ثم تحدثت طويلاً شرحاً وتعليقاً وتوضيحاً وتفسيراً لكل ماذكره ، وأوضحت له الموقف العسكرى وكفاءة القوات المسلحة بدقة ، وما وصلنا إليه فى التخطيط وإعداد القوات للحرب والتعاون العسكرى مع سوريا».

«وكان ردى الصريح على سؤاله: «متى تكون القوات المسلحة مستعدة للحرب؟» ، أنه على ضوء حقائق الموقف ، فإننا نحتاج إلى حوالى عام واحد لتحقيق ثلاثة أمور هامة:

«أولاً: أن تخرج القوات من الخنادق إلى سطح الأرض، ومعنى ذلك أن يتغير تفكيرها الدفاعى الذى كانت تمارسه عدة سنوات إلى التفكير الهجومى طبقاً للتخطيط ، وهذا يعنى تدريباً مركزاً على العمليات والمعارك الهجومية فى كل أفرع القوات المسلحة والتعاون بينها لتحقيق الهدف العسكرى. وكنت واضحاً فى تفسير ذلك: إننا لن نبدأ بداية جديدة بعد تعيينه قائداً عاماً ، بل سيكون عمل القوات المسلحة تحت قيادته امتداداً واستكمالاً للتدريب والتحضير الذى تم فى السنوات السابقة ، وهو جهد كبير لايمكن التقليل من شأنه بأى حال من الأحوال. وأوضحت أيضاً أن القوات والقيادات تبذل أقصى جهد ممكن لإتقان التدريب على المهام القتالية، والتغلب على الصعوبات التى تواجههم منذ فترة طويلة ، وأنه سيلمس ذلك بنفسه».

«أما عن دخول السياسة القوات المسلحة من باب خلفى لكثرة الأحاديث السياسية من غير المختصين ، فإنى أبديت رأيى مؤيداً ما قاله ، وذكرت له أننا فى القوات المسلحة يجب أن نحترف عملنا العسكرى فقط. وطالما أن القيادات ركزت مجهودها فى رفع الكفاءة القتالية ودرجات الاستعداد والتدريب على مهام العمليات، فلن يكون هناك مجال للحديث فى السياسة».

«وبالصراحة التى تعودنا عليها فى حديثنا منذ الخدمة معا فى قيادة جبهة القناة، قلت للفريق أول إسماعيل: إن الخطة الدفاعية عن الدولة ليست موضع شك، ويجب الاطمئنان إلى ذلك. وإذا كانت بعض التجهيزات الهندسية قد ساءت حالتها، فإن ذلك يمكن علاجه فوراً».

□

«ثانياً: استكمال بعض نواحى التخطيط على ضوء ماتيسر لدينا من الأسلحة والمعدات دون انتظار أسلحة أخرى لا نعلم متى تصل. فالخبرة فى السنوات القليلة الماضية علمتنا أن التعاقد على شراء الأسلحة أو الوعود بتزويدنا بأسلحة ومعدات من الاتحاد السوفيتى شيء، أما التنفيذ الفعلى وتوقيته فشيء آخر. وإذا ما نجحت الجهود فى هذا المجال ، فإن ذلك يعتبر إضافة جديدة».

«وقلت للفريق أول إسماعيل إن الخطة الموضوعة ينقصها فقط خطة الخداع لتحقيق المفاجأة للعدو حتى تكون لنا المبادأة فى الحرب وتنفيذ عملية اقتحام قناة السويس بأقل خسائر ممكنة ، وخصوصاً أن العدو له التفوق العسكرى وفى وضع إستراتيجى قوى».



«ثالثاً: استكمال التعاون مع القوات السورية ، لأنها عملية مطولة ودقيقة قطعنا فيها مراحل ، وما زال أمامنا مراحل أخرى تحتاج إلى تنسيق واتفاق محدد بين القيادة العسكرية المصرية والقيادة العسكرية السورية. كما أن العمل العسكرى المشترك يحتاج إلى قرارات سياسية على مستوى الرئيسين السادات والأسد ، وهو ما لم يتم ويحتاج إلى الوقت اللازم لذلك».



كذلك يبلور المشير الجمسى فى مذكراته الاتفاق الذى توصل إليه مع المشير أحمد إسماعيل موضحا أن القائد العام كان تواقاً لأن يعجل بالحرب قبل مضى عام:

«... وشرحت للفريق أول إسماعيل تفصيلاً - على ضوء خبرة العمل مع القيادة العسكرية السورية - أنه لا مجال لأى شك فى أن التعاون العسكرى مع القوات السورية سيوضع موضع التنفيذ. وهذا ينفى ما قيل له عن عدم إمكانية تحقيق

تعاون بين سوريا ومصر (لا يحدد الجمسى ولو من باب التلميح مَنْ ذا الذى قال بهذا) ، وأن هناك شكوكاً وهواجس. وقلت له إننى أثق فى إتمام هذا التعاون العسكرى طالما أن هناك اتفاقاً سياسياً بين الرئيسين، وهذا الاتفاق قائم ، وأن الممارسة الفعلية للعمل بصفته القائد العام لقوات الجبهتين ستوضح له هذه الحقيقة».

ويردف الجمسى بالتأكيد على هذه الحقيقة فيقول:

«وأتذكر أنى قلت للفريق أول إسماعيل إن التعاون بين الجبهتين المصرية والسورية سيكون أحد عوامل النجاح فى الحرب المقبلة. وكنت أتمنى أن يكون هناك تعاون مع الجبهة الأردنية حتى تضطر إسرائيل للقتال فى ثلاث جبهات فى وقت واحد».

«واتفقنا فى الرأى على هذه الأمور الثلاثة ، ولكنه كان يرى أن الفترة الزمنية لاستكمال الاستعداد للحرب - وهى حوالى عام فى تقديرى - تعتبر فترة طويلة ، وأنه سيعمل على تخفيضها كلما أمكن ذلك. وأضاف موضوعين سيكونان موضع اهتمامه أيضاً لإيجاد مناخ جديد للعمل الجدى استعداداً للحرب» .

«الأول: عدم الحديث فى السياسة على مستوى القيادة العامة للقوات المسلحة ، وبالتالى لن يكون هناك مجال لقائد مرءوس للحديث فى مثل هذه الموضوعات. ويجب على القوات أن تتجه للتدريب الشاق المتواصل ، وأن تعتنق مبدأ حتمية القتال بغير بديل ، وأن المعركة لابد أن تحدث وفى أقرب وأنسب وقت ممكن» .

«الثانى: لقد كان مقتنعا طوال مدة خدمته العسكرية أن الرجل - لا السلاح - هو الذى ينتصر . ولايمكن للمقاتل مهما كانت رتبته أو درجته ، ومهما أعطيته من سلاح أن ينجح أو ينتصر إلا إذا وثق فى قادته وفى سلاحه وفى عدالة قضيته. كل هذا إلى جانب إيمانه أولاً وأخيراً بالله. وعلى هذا فإن غرس الثقة بين الجنود ،

وبينهم وبين القادة ، وبين الجميع والسلاح يعتبر من أهم الأمور التى يجب التركيز عليها» .

«واتفقنا فى هذه المقابلة على الخطوط الرئيسية للعمل على أن تبدأ الحرب فى أقرب وقت ممكن يتم فيه استكمال التحضير لها ، وبصفة خاصة استكمال التعاون والتنسيق مع سوريا ، لأنها تحتاج إلى الوقت الأطول سياسيا وعسكرياً» .



ونعود إلى الحديث عن خطة أحمد إسماعيل وسياساته فى الإعداد لحرب أكتوبر فنشير إلى أن أحمد إسماعيل قد اهتم، وهو رئيس سابق لهيئة العمليات، بالعمل الجاد من أجل إجراء الدراسات العلمية المتصلة بالحرب، ودرست قواتنا المسلحة المد والجزر، وطول الليل والنهار، وكل عوامل الطبيعة التى لها دخل مباشر أو غير مباشر فى عملية العبور والحرب حتى انتهت إلى تحديد أنسب الأوقات.

ووجه أحمد إسماعيل اهتماما خاصا إلى دراسة نفسية المقاتل الإسرائيلى، واستعان على هذا بجهود المخابرات العامة وأجهزتها، وكان قد ترك رئاستها لتوه، فتوصل إلى إدراك ما يمكن الإفادة منه من معرفة حقائق نفسيات أفراد القوات المسلحة الإسرائيلية التى نواجهها وعلى سبيل المثال فقد أدركت دراساتنا مدى الظلم الذى يحسه اليهود الشرقيون حين يجدون أن٨٥٪ منهم يشغلون الرتب الصغيرة فى جيش العدو الإسرائيلى.

ولعل من أهم المعلومات التى توصلت إليها قواتنا المسلحة وأفادتها خير إفادة فى تحقيق نصر أكتوبر ما اكتشفته من أن ٨٠٪ من الجيش الإسرائيلى [قادة وجنودا] من الاحتياط، وهنا تظهر خطورة عنصر المفاجأة الذى استخدمته قواتنا أروع ما يكون الاستخدام.

والخلاصة أن هذه الدراسات المعلوماتية وضعت إسرائيل وجيشها أمام قواتنا المسلحة فى حجمها الحقيقى، ومشكلاتها الداخلية، وطوائفها المتناقضة، وأحزابها المتناحرة، واقتصادها المتضخم، وعندئذ عرف جيشنا إلى أى مدى تنتشر بوادر الضعف والانحلال فى هذه الدولة وجيشها الذى لا يقهر.



وقام المشير أحمد إسماعيل ببعض جولات عربية، استطاع أن ينسق من خلالها الجهود العسكرية العربية، وأن يستثمر التضامن السياسى وينميه، وأن يزرع الثقة فى نفوس القادة العرب وقادة الجيوش فى جيش مصر وفى معركة مصر، وكان أغلبهم شبه حيارى بين ما يؤكده أحمد إسماعيل الذى كان ينال منذ اللحظات الأولى ثقتهم لما لمسوه منه من تأكيده بقرب المعركة، وبين المعلومات الأجنبية التى تجمع على خلاف ما يقول ، ولكنهم اكتشفوا أخيرا كيف كان القائد المصرى والجندى المصرى على أعلى درجات الصدق والبذل والعطاء.

ولعل من أبرز زيارات أحمد إسماعيل العربية زيارته للسعودية التى صحبه فيها المغفور له الملك فيصل إلى الكعبة، فى سكون الليل!

وكان المشير أحمد إسماعيل فى مباحثاته يصر على أن تحدد كل حكومة من الحكومات العربية ما تستطيع تقديمه إلى المعركة على وجه دقيق، ولم يفقد إيمانه برسالته ولا ثقته بنفسه كقائد يوما من الأيام، وكان يعلن بإصرار أنه حتى لو بقيت مصر وحدها فلا بد أن تخوض المعركة وأن تحقق النصر.



وقد توالت على أحمد إسماعيل بعد تعيينه وزيرا للحربية فى مصر، الصلاحيات والمناصب العربية، ومكنته هذه المناصب من التخطيط للمعركة على المستوى القومى، ففى الحادى والعشرين من يناير سنة ١٩٧٣ اختير قائدا عاما

للقوات المسلحة لدولة اتحاد الجمهوريات العربية والتى كانت تضم مصر وسوريا وليبيا، وبعدها بأسبوع واحد فى الثامن والعشرين من يناير أسندت إليه وظيفة القائد العام للجبهات الثلاث (الشرقية والشمالية والجنوبية) بقرار من مجلس الدفاع العربى بالجامعة العربية، ولم تكن هذه المناصب قبل ذلك شاغرة تنتظر من يشغلها، ولكن الاستعداد المصرى النشيط للمعركة المصيرية هو الذى خلق هذه المناصب.



وبالإضافة إلى هذا كله فإن أحمد إسماعيل لم يتوان عن استغلال كل فرصة لتنمية التعاون مع الاتحاد السوفيتى، وكان أحمد إسماعيل مؤمنا بأهمية الدور السوفيتى فى التسليح والتزويد وإن لم يكن معتمداً عليه كل الاعتماد، وقد كان من حسن حظ أحمد إسماعيل أن السوفيت كانوا يثقون به لأسباب كثيرة من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ضيقهم الشديد من أسلوب الفريق صادق كان كفيلاً بأن يدفعهم إلى إثبات حسن نواياهم من خلال تعاملات أفضل مع المشير أحمد إسماعيل.

وينسب المشير الجمسى الفضل فى نجاح أحمد إسماعيل فى زيارته للاتحاد السوفيتى فى مارس ١٩٧٣ إلى ما كان قد تم الاتفاق عليه فى أثناء زيارة عزيز صدقى فى أكتوبر ١٩٧٢، دون أن يفيض فى بيان وجهة نظره.



وقد أعلن الرئيس السادات فى الثامن والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٧٢ عن تشكيل اللجنة العليا للإعداد للمعركة برئاسته، وكان أحمد إسماعيل عضوا فى هذه اللجنة، وتوالت بعد ذلك اجتماعات مجلس الأمن القومى، واجتماعات أخرى على مستوى عال كان الرئيس يرتب فيها جميعا للنواحى المختلفة المتعلقة بالمعركة.



وبعد أن اتخذ السادات قراره واستقر رأيه على الحرب بدأت العجلة تدور فى هذا الاتجاه ومن أجل المتابعة الدقيقة اجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة - حسبما يروى الأستاذ عبده مباشر فى مقال له بالأهرام سبع مرات خلال الفترة من ٢٨ أكتوبر ١٩٧٢ وحتى أول أكتوبر ١٩٧٣ .

ويذكر الأستاذ عبده مباشر تواريخ هذه الاجتماعات على النحو التالى:

- الاجتماع الأول يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٢ .
- الاجتماع الثانى يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧٢ .
- الاجتماع الثالث يوم ٩ يناير ١٩٧٣ .
- الاجتماع الرابع يوم ٦ مارس ١٩٧٣ .
- الاجتماع الخامس يوم ١٩ يوليو ١٩٧٣ .
- الاجتماع السادس يوم ٢١ أغسطس ١٩٧٣ ، وكان اجتماعا مشتركا مصريا سوريا.
- والاجتماع السابع يوم أول أكتوبر ١٩٧٣ ، وبعد خمسة أيام من هذا الاجتماع انطلقت الحرب من عقالها...



كذلك حضر أحمد إسماعيل مع السادات والرئيس حافظ الأسد اجتماعهما التاريخى فى برج العرب فى إبريل سنة ١٩٧٣ كذلك حضر أحمد إسماعيل اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة السورية والمصرية الذى عقد سرا فى أغسطس سنة ١٩٧٣ ، وفى الأيام الأخيرة التى سبقت الحرب كان أحمد إسماعيل يكثر من زيارة المواقع المتقدمة، وكان حريصا على أن يطمئن بنفسه على الابتكارات التى توصل إليها جنوده ، وعلى استحكامات الأمن، فكان لايفتأ يبادل بين سؤالين: أرونى ماذا ابتكرتم ؟ وهل أحس العدو بنية الهجوم ؟

وفى نهاية الاجتماع التاريخى الذى عقده المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية قبيل الحرب بأسبوع، عبّر الرئيس السادات عن مسئوليته التامة عن قرار الحرب، وكأنما أراد أن يبث الثقة والاطمئنان فى نفوس قواده إلى أبعد حد، ولكن أحمد إسماعيل قال للرئيس: إننا نشترك معك ياسيادة الرئيس فى المسئولية فجميعنا مسئولون عن بلدنا مثلكم.



بقيت نقطة مهمة لا أخالنى أستطيع أن أتجاوز الاشارة إليها، وهى مدى الجهد الخارق للعادة الذى بذله هذا الرجل من أجل الاعداد للحرب، وليس هناك تعبير يمكن له أن يوفى هذا الجهد حقه، ولكن لابد من قدر من التصوير الكفيل ببيان حقيقة هذا الجهد، وأفضل هنا أن أنقل من حديث السيدة زوج المشير مع الأستاذة حنان حجاج (الأهرام العربى، ١٩٩٨) هذه الفقرة:

«وفى الأسابيع التى سبقت الحرب كان دائم الوجود على الجبهة ونادراً ما يأتى إلى المنزل وإن حدث فهو ينام وبجواره خمسة تليفونات، وأذكر أن صديق العائلة الفريق فؤاد ذكرى قائد البحرية وقتها كان يرجونى أن أحتجزه فى المنزل ليستريح لأنه كان ينام فى غرفة مكتبه وهو جالس على الكرسى من شدة الإرهاق، وأذكر أنه قبل الحرب بعدة أيام كان لابد أن أسافر إلى انجلترا لأجرى جراحة عاجلة ولم أكن أعلم بأن الحرب قادمة، ولم يخبرنى حتى لا يضطرنى لعدم السفر، لكنه اعتذر عن عدم قدرته ترك مصر، وسافرت وقتها مع ابنتى وفوجئت بالحرب وأنا هناك، وعندما عدت لم أجده وظللت انتظر ٤٥ يوماً لأراه وقد أنهك تماماً ولكنه كان سعيداً بالنصر».

«بعد الحرب عندما تكلم معى عرفت مدى ما كان يعانيه فقد حكى لى أن السادات استدعاه قبل الحرب بعدة أيام وسأله إن كان جاهزاً للقتال فقال له نعم وحدد يوم السبت، ورد عليه السادات لو هزمنا فسوف يعلق رأسك فى ميدان التحرير فهل تقبل، فأجابه بالإيجاب».

8

العبور

نتناول فى هذا الباب بعض ملامح الأسلوب الذى اتبعته القوات المسلحة المصرية بقيادة أحمد إسماعيل فى شن حرب أكتوبر . وفى الحقيقة فإنى أحب أن أبدأ بأن أشير إلى أن أروع حوار صحفى متاح عن حرب أكتوبر وأسلوب أحمد إسماعيل فى إدارتها هو ذلك الحوار الذى نشرته روزاليوسف بقلم الأستاذة مهجة عثمان فى العدد ٢٤٠٥ ، وقد أشارت «روز اليوسف» فى برواز محدد فى وسط الحوار إلى طبيعة هذا الحوار فقالت:

«أثناء زيارة الرئيس إلى مدن القتال فى ٦ يونيو الماضى، سألت مهجة عثمان كلا من رؤساء التحرير الموجودين: إذا كان عليك أن تجرى مع المشير أحمد إسماعيل حديثا صحفيا من سؤال واحد. فما السؤال الذى تختار؟ وبهذه الطريقة الذكية حصلت مهجة عثمان على عدد من الأسئلة التى استخدمتها فى هذا الحديث. ونترك لذكاء القارئ أن يكتشف هذه الأسئلة، وينسبها إلى الذين اقترحوها».

أما عناوين الحوار فكانت من أكثر العبارات بلاغة وتحديداً ودقة وفيها تقول روزاليوسف:

المشير يقول: ليس بالمفاجأة وحدها كان انتصارنا

ونستطيع إذا أردنا أن نكرر المفاجأة

اجتياز الممرات ليس أصعب من اجتياز القناة

الثغرة كانت حلاً وحيداً أمام قوات فاشلة

أما أهم ما فى هذا الحوار البديع فهو قول المشير أحمد إسماعيل:

«لا جدال فى اننا حققنا المفاجأة السياسية والاستراتيجية والتكتيكية فى معركة أكتوبر، وهذه حقيقة تعتبر فخرا لنا، ولا تقلل من شأن النصر. لكن إسرائيل تستميت فى اثبات أن المفاجأة هى أساس هزيمتها لكى تحتفظ للجيش الإسرائيلى بأسطورته، وهى مستعدة فى سبيل ذلك أن تطيح بوزارتها، ورئيس أركانها ومدير مخابراتها لأنها تعلم أنها تنتهى إذا فقد المجتمع الإسرائيلى الثقة فى جيشها».

«لكن العدو نفسه اعترف بأنه تأكد تماما فى فجر ٦ أكتوبر أننا سنقوم بالهجوم. وفى تقرير «لجنة أجرانات للتحقيق فى تقصيرات وأخطاء القيادة الإسرائيلية» جاء بالحرف الواحد: «أنه حتى بعد الحصول على الإنذار صباح السبت ٦ أكتوبر، لم تنتشر القوات المدرعة النظامية على جبهة القناة الانتشار الأمثل بموجب الخطة الموضوعة. ولم تُعط أيضا فى ذلك الصباح توجيهات واضحة لقائد الجبهة الجنوبية (سيناء) ، ولا للمراتب الأدنى منه، لكى ترشدهم إلى التأهب لمواجهة الهجوم. وساد الغموض إصدار الأوامر القتالية ومتابعة تنفيذها».

«كانت هناك إذاً خطة موضوعة لتعطيل الهجوم والتقليل من حدته. وكانت المفاجأة غير كاملة. لكن العدو لم يتمكن من ملاحقة نشاطنا، وحدث ارتباك فى

صفوفه. وإذا كنا قد أخذنا العدو على غرة فى اليوم الأول للمعركة، فأين كان الجيش الأسطورى لإسرائيل ابتداء من اليوم التالى وما بعده؟»

«لقد كان للمفاجأة تأثيرها دون شك. ولكن كان هناك أيضا تطبيقنا لمبادىء الحرب الأخرى، وكفاءة وشجاعة الضابط والجندى والقائد المصرى، ووضوح الهدف، والاقتناع به، والتصميم على تحقيقه.. فضلا عن الخطط العلمية المدروسة. إن هذه هى الأسباب الحقيقية للنصر.

«وفيما يتعلق بأية جولة مقبلة، فان النصر سيكون حليفنا مادمنا نحتفظ بسلامة التخطيط، والتدريب، ونفس الوضوح والإصرار.. بصرف النظر عن عامل المفاجأة».

ويصل أحمد إسماعيل إلى ذروة من ذرى الثقة فى النفس ويقول:

«ثم إن احتمال الحصول على المفاجأة مرة أخرى موجود، وبرغم أنف إسرائيل. فهناك وسائل شتى للحصول عليها. وهى ليست شيئا نمطيا يتكرر استخدامه».

....

ويجيب أحمد إسماعيل على سؤال مهجة عثمان القائل بأننا كنا قادرين من الأيام الأولى للمعركة على اجتياز ممرات سيناء. وإن هذا سيكون صعبا علينا الآن إذا تجدد القتال، بابتسامة ويقول:

«اسألى أنت نفسك. هل عبور الممرات أصعب أم عبور قناة السويس وخط بارليف؟ أظن أن الاجابة واضحة».

«إننا الآن على اتصال برى بالعدو. لا يفصل بيننا وبينه مانع مائى أو خط فى مثل تحصين خط بارليف. ولا يعنى هذا الكلام أننا غير ملتزمين باتفاق فصل القوات. وانما أنا فقط أرد على سؤال عسكرى بإجابة عسكرية».

«لقد كانت استراتيجيتنا عندما بدأنا القتال لا تجعل الصدارة لكسب الأرض بقدر ما تجعلها لتدمير قوات العدو أثناء الهجمات المضادة المتكررة على رءوس الكبارى المحمية بالدفاعات المضادة للدبابات والمغطاة بشبكة الدفاع الجوى والتى كانت فى مدى مقاتلاتنا».

«أما الأرض، والممرات، فأحب أن أطمئنك بشأنها. إننا جاهزون عسكريا لجميع الاحتمالات. ونحن نعرف كل شبر فى سيناء، لأنها أرضنا الحبيبة. وإذا كان القتال فى الممرات صعبا على قواتنا، فهو أكثر صعوبة على القوات المعادية».



ومن المؤكد أن اندلاع حرب أكتوبر على نحو ما شنت به كان معجزة بكل المقاييس، وقد قرأت أخيراً فى مذكرات الأستاذ أحمد حمروش «نسيج العمر» التى نشرتها مكتبة الأسرة [عام ٢٠٠٢] نصا من أبلغ ما يمكن فى التعبير عن الفارق بين ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، وما بعدها ، ولعل هذا النص يحتاج إلى مقدمة قصيرة أذكر فيها للقارئ أن اللواء حسن البدرى كان بمثابة واحد من العسكريين المصريين الثلاثة الذين كتبوا أول مؤلف عسكرى علمى عن حرب أكتوبر، وهو كتاب « حرب رمضان الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة» بالاشتراك مع زميليه المجدوب وزهدى، وهو أكبر هؤلاء المؤلفين الثلاثة رتبة، كما أنه فيما يرويه محمد حسنين هيكل كان قد تولى مع اندلاع حرب أكتوبر بالاشتراك مع زميلين له هما اللواء طلعت حسن على واللواء مصطفى الجمل وضع سيناريوهات عسكرية للتصورات التى يمكن لقواتنا أن تأخذ بها، وهو رجل وطنى وعسكرى من الطراز الأول، وقد كان لى الحظ أن شرفت بمعرفته ولقائه والحديث معه.

بعد هذه المقدمة ننتقل إلى النص الذى تضمنته مذكرات الأستاذ أحمد حمروش وهو عن لقاء بين الرجلين حسن البدرى وأحمد حمروش وقد كانا فى الأصل من نفس الدفعة فى الكلية الحربية، وأحب أن أسارع إلى القول بأن ما يرويه أحمد

حمروش لا يقلل من قيمة آراء حسن البدرى فيما يتعلق بحرب أكتوبر ١٩٧٣ ولا بسير المعارك الحربية فيها، ولكن المعنى الذى أريد إثباته من الاستشهاد بهذا النص هو الإشارة إلى حقيقة مشاعر وتصورات القادة العسكريين من طراز وطبقة اللواء حسن البدرى وزملائه من القادة الكبار الأساتذة فى أكاديمية ناصر العسكرية.. وكيف كانت الحرب المجيدة على نحو ما وقعت تمثل بالنسبة لهم معجزة كبيرة.

يقول أحمد حمروش:

«حضر إلى منزلى زميل دفعتى فى كلية أركان الحرب اللواء حسن البدرى وروى لى قصة معرفته بهذه الحرب عندما استدعاه الزميل محمد حسنين هيكل يوم ٥ أكتوبر وهو وقتها كان مدرسا فى أكاديمية ناصر، وباحثا فى مركز الدراسات بالأهرام، وسأله عن رأيه فيما لو هاجمت القوات المسلحة المصرية فى محاولة لعبور القناة».

«وقال لى اللواء حسن البدرى إنه أجاب دون تردد بأن الهزيمة لابد وأن تلحق بها... وهنا سقط القلم من يد هيكل. وعندما حاول اللواء حسن البدرى معرفة السر فى هذا السؤال... قال هيكل إنه مجرد خاطر عابر. ولكن اللواء حسن البدرى شعر أن مثل هذا السؤال لا يمكن أن يكون عابرا، وخاصة إذا كان من شخصية مثل هيكل قريبة من مركز الأحداث... ولذا فقد ذهب إلى زملائه فى أكاديمية ناصر وأبلغهم أنه حلم فى الليلة الماضية حلما لا يعرف مدلوله بعد أكلة ثقيلة.. وروى لهم أنه حلم بأن القوات المسلحة المصرية قد قامت بهجوم على سيناء. وأجمع زملاء اللواء حسن البدرى من كبار الضباط على أن ذلك يمكن أن يؤدى إلى كارثة وقالوا له: (فأل الله ولا فألك) . ولكنه قبل أن يغادر الأكاديمية فوجيء هو وزملاؤه بصوت المذيع يعلن البيان الأول... وسمع أخبار الانتصارات التى كانت تمثل عنده معجزة».



بعد هاتين المقدمتين الطويليتين نوعاً ما أنتقل مع القارئ إلى التأمل فى الطابع الذى سيطر على انتصارنا فى يوم العبور.

لعل أبرز ما حرص عليه أحمد إسماعيل ومعاونوه من قادتنا العظماء هو التمويه والخداع، ولعل حرصه الشديد على هذين الأسلوبين كان بسبب إيمانه العميق بأهمية تملك عنصر المفاجأة، ومن الجدير بالإشارة أن المعاهد العسكرية قد استقرأت عمليات الخداع والتمويه التى استخدمها الجيش المصرى فى حرب أكتوبر فوصلت إلى أكثر من خمسين عملية.

- من ذلك أن مسرح العمليات نفسه تم تجهيزه تحت ستار تحسين الدفاعات الموجودة بينما كان يجهز من الداخل لعملية الهجوم الحقيقية.
- وأعلن المشير أنه سيسافر إلى رومانيا يوم الثامن من أكتوبر وهو يعلم أنه لن يسافر ذلك اليوم.
- ونشرت الصحافة قبيل العبور أن القوات المسلحة فتحت الباب للراغبين من أفرادها فى أداء فريضة العمرة (أو الحج) فى ذلك العام.
- وظلت قواتنا المسلحة تتدرب وفى اعتقادها أنها ستهجم بالليل أو فى آخر ضوء للنهار أو بعد آخر ضوء حتى توهم الجميع أننا سنهجم ليلاً، ثم هجمنا حين يكون النهار أوضح ما يكون.
- وقد كان أحمد إسماعيل قبل هذا من مؤيدى فكرة بناء الأهرام والمصاطب العالية على الضفة الغربية للقناة حتى تكون ساترا يحيط تحركاتنا بسياج من السرية.

❑

على أن أحمد إسماعيل فى حرصه على الكتمان من ناحية والخداع من ناحية أخرى قد وصل إلى حدود لا معقولة، فقد كان من المقرر أن تسافر زوجه للعلاج فى الخارج فى فترة مقاربة للموعد الذى تحدد للعبور، فإذا به يتركها تسافر، وقد

قامت الحرب، وزوجه هى وزوج قائد قوات الدفاع الجوى (المشير محمد على فهمى عليه رحمة الله) فى الخارج، ولم تعد السيدتان من الخارج إلا بعد أن اندلعت الحرب بالفعل.

وفى محيط العائلة كان المشير مدعوا على الإفطار يوم الثالث من أكتوبر فى منزل أخيه اللواء محمود أنيس، وكانت ابنة أخيه تعتزم السفر إلى زوجها وهو من الدبلوماسيين المصريين العاملين فى الهند يوم السادس من أكتوبر فلم يبد أحمد إسماعيل انطباعا ما، لكنه لم يستطع أن يظهر نفسه فى موقف المتكتم لأمر ما حتى لا يثير أى استفسار، فقال المشير لابنة أخيه: وهل سيحضر زوجك لاصطحابك ؟ فقالت: لا، بالطبع، فقال لها فى تدليل الأب: إذاً لا تسافرى.

وكان الرئيس السادات قد نبه إلى أنه عندما تأتى ساعة الصفر فلا بد من المحافظة التامة على الطائرات المدنية الموجودة فى المطار، فلما بدأ ترحيل العائلات الروسية قبيل الحرب مباشرة، استنتج وزير الطيران المدنى أن شيئا قريبا سيحدث، فأمر من تلقاء نفسه بإيقاف جميع الرحلات، وأذيع هذا النبأ فى جميع مطارات العالم، وعلم أحمد إسماعيل بقرار وزير الطيران، فبادر إلى الاتصال به وطلب منه إعلان عودة الطيران إلى حالته الطبيعية، والإعلان بأن هناك أعطالا فنية أدت إلى هذا التوقف، وهكذا استمر قادة العدو فى حالة التخدير هذه إلى أن أفاقوا منها ضحى السادس من أكتوبر.



ومع كل ذلك فقد كان أحمد إسماعيل حريصا على أن يحيط التمويه بسياج من التمويه، فلم يتماد فى خطط الخداع إلى الحد الذى يظهر فيه تكلف الخداع، ومن ذلك أن أحد كبار مساعديه أشار عليه بأن يتناول غداء يوم الجمعة الخامس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ فى نادى الجزيرة زيادة فى الإيهام، ولكن أحمد إسماعيل لم يوافق لأنه لم يكن من عادته الذهاب إلى نادى الجزيرة للغداء ولا لغير الغداء، فإذا ذهب من باب التضليل فقد يلفت هذا الأنظار إلى الحقيقة نفسها.

ولعل أبلغ عبارة تقال لتصوير جو التمويه والخداع ما يروى من أنه عندما صدرت الأوامر للطيارين بالإقلاع ساعة الحرب، سألوا: هل لنضرب فعلا ؟ أم إنها مناورة تدريبية جديدة !!



ومن المفارقات التى ساعدت أحمد إسماعيل على إتمام خطط التمويه والخداع أن تعيينه هو نفسه قائداً عاماً وهو الرجل الذى كان بعيداً عن الجيش قد أخذ فى بعض الأوساط على أنه مواصلة لسياسة الاسترخاء... ولم يشغل أحمد إسماعيل نفسه بتصحيح هذا الانطباع، بل كان انصرافه إلى العمل الصامت متوافقاً مع الانطباع السريع الذى ينشأ عند مَنْ يبنون استنتاجاتهم على ما يصرح به أصحاب الشأن أو يتركونه يتسرب من انطباعات وهكذا ترسخت هذه الفكرة الخاطئة عن أنه ليس رجل الحرب.



وقد تمتع أحمد إسماعيل بطبعه بقدرة كبيرة على الكتمان، وقد تمكن من طبع تصرفات القيادة والعمليات بهذا الطابع على نحو غير مسبوق، وعلى سبيل المثال فإن الذين اشتركوا فى إعداد الخطط والعلم بها كانوا عدداً قليلاً وعلى ما يروى المشير الجمسى نفسه فقد اشترك فى وضع خطة المفاجأة عدد محدود جداً من ضباط هيئة عمليات القوات المسلحة ، وكتبت بخط اليد كخطة العمليات تماما. واشتملت الخطة على إجراءات وأعمال كثيرة متنوعة فى مجالات مختلفة بحيث تتكون صورة متكاملة أمام العدو أن قواتنا فى مصر وسوريا ليس لديها نية الهجوم ، بل نعمل لتقوية دفاعاتنا واستعدادنا ضد هجوم إسرائيلى محتمل.



وفى أثناء الإعداد للحرب أمر أحمد إسماعيل أن يوجد المحررون والمراسلون العسكريون مع القوات المسلحة قبل لحظة العبور، لكن رجال الأمن الحربى قدروا

من خلال مسئولياتهم أن هذه الخطة قد تؤدى إلى تجمع المراسلين والمحررين العسكريين بشكل قد يسفر للعدو عن نية الهجوم والاستعداد لعمل عسكرى كبير، ولم يتدخل المشير فى إقناع رجال الأمن الحربى، بل يمكن القول إنه كان فى الغالب سعيداً بمثل هذه العقلية ومثل هذا التفكير.



وعلى الرغم من حرص أحمد إسماعيل على كل هذا التمويه فلم يكن شىء يحزنه بعد الحرب بقدر ما أحزنه تهاون إعلامنا فى إبراز البطولات والإنجازات والانتصارات التى حققتها قواتنا المسلحة فى أكتوبر سنة ١٩٧٣، وكان إذا رأى كتب الدعاية الإسرائيلية التى تحاول التقليل من آثار انتصاراتنا، هاجت لواعج نفسه.

ويذكر الأستاذ عبد المنعم الصاوى نقيب الصحفيين فى ذلك الوقت، أن المشير كان يقول له فى استنكار: أنترك معركتنا يشوهها عدونا ويعرضها بصورة تخفى خزيه من هزيمة، فيهون علينا ما حققناه من انتصارات نتهاون فى تقديمه على وجهه الصحيح، أليس من الظلم أن نحصل على هذا النصر ثم يستثمره عدونا بدلا من أن نعمق آثاره فى عقول الناس وضمائرهم!

على أن الرجل قد بذل جهده فى هذا المجال أيضا، فدعا الصحفيين إلى الجبهة وأشهدهم على عظمة قواتنا المسلحة وروعة انتصاراتها، ولبى دعوة نقابة الصحفيين وحدثهم عن حرب أكتوبر كما شكل لجنة عسكرية سجلت للتاريخ أحداث الحرب.



وننتقل الآن إلى الحديث عن طبيعة الإنجاز الذى تحقق فى حرب أكتوبر، وذلك من خلال قراءة بعض فقرات مذكرات الفريق سعد الشاذلى حيث يصور طبيعة النجاح فيقول:

«بحلول الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد ٧ أكتوبر ١٩٧٣ كانت قواتنا قد حققت نجاحاً حاسماً فى معركة القناة. فقد عبرت أصعب مانع مائى فى العالم وحطمت خط بارليف فى ١٨ ساعة. وهو رقم قياسى لم تحققه أية عملية عبور فى تاريخ البشرية. وقد تم ذلك بأقل خسائر ممكنة. فقد بلغت خسائرنا ٥ طائرات و٢٠ دبابة و٢٨٠ شهيدا. ويمثل ذلك ٢,٥ ٪ فى الطائرات و٢ ٪ فى الدبابات و٠,٣ ٪ فى الرجال. أما العدو فقد خسر ٣٠ طائرة و٣٠٠ دبابة وعدة آلاف من القتلى وخسر معهم خط بارليف بكامله. لقد تم سحق ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مشاة كانت تدافع عن القناة وأصبحت أسطورة خط بارليف الذى كان يتغنى به الإسرائيليون فى خبر كان».

....

«اشترك فى عملية العبور مائة ألف رجل، توزيعهم كما يلى بصفة تقريبية:

- ٣٢,٠٠٠ فى قوارب مطاطية.
- ١٠,٠٠٠٠ فى دبابات ومركبات برمائية عبر المسطحات المائية فى البحيرات المرة وبحيرة التمساح.
- ٤,٥٠٠ فوق المعديات.
- ١,٥٠٠ فوق الكبارى الخفيفة.
- ٦١,٠٠٠ فوق الكبارى الثقيلة.

عبر القناة ١٠٢٠ دبابة و١٣٥٠٠ مركبة بوسائل العبور التالية:

- الدبابات: ٢٠ سابحا، و٢٠٠ فوق معديات، و٩٠٠ فوق الكبارى الثقيلة: مجموعهم ١٠٢٠.
- المركبات: ١٠٠ سابح، ٧٥٠ فوق معديات، و١٢١٥٠ فوق الكبارى الثقيلة، و٥٠٠ فوق الكبارى الخفيفة: مجموعهم ١٣,٥٠٠».

وللذين يظنون أنه كان بالإمكان أن تكون حركتنا سهلة أو يسيرة يوم السابع من أكتوبر أو ما بعده من الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى للحرب، نسوق هذه الفقرة من مذكرات الفريق الشاذلي:

«لقد كان يوم ٧ أكتوبر هو يوم سباق بيننا وبين العدو استعداداً للمعركة التالية. لقد دفع العدو إلى جبهة سيناء بخمسة ألوية مدرعة جديدة، كما دفع بثلثمائة دبابة أخرى لتعويض خسائر الألوية المدرعة الثلاثة التى كانت موجودة أصلاً. وبحلول صباح يوم ٨ أكتوبر كان العدو قد حشد أمامنا ثمانية ألوية مدرعة منظمة فى ثلاث فرق مدرعة، فرقة من ثلاثة ألوية مدرعة فى القطاع الشمالى تحت قيادة الجنرال برن أدان، وفرقة من ثلاثة ألوية مدرعة فى القطاع الأوسط تحت قيادة الجنرال شارون، وفرقة من لواءين مدرعين فى القطاع الجنوبى تحت قيادة الجنرال ألبرت ماندلر».



وفى حديث الرئيس محمد حسنى مبارك مع الأستاذ إبراهيم نافع (الأهرام، أكتوبر ١٩٩٨) فقرة رائعة تبين مدى التخطيط الدءوب والذكى والتفصيلى لعملية العبور، وتكشف حقائق لاتزال غائبة عن الذين يتصورون أن ما تم كان سهلاً أو لم يكن فى حاجة إلا معجزة على مستوى التخطيط والتنفيذ.

يقول الرئيس حسنى مبارك:

«عبور القناة كان مخططا له تخطيطا رهيبا، وبالتفصيل. وكنا نستمع إلى قادة الجيوش عن تخطيطهم لهذه العملية. وفى مثل هذه العملية كان يأتى وزير الدفاع لمناقشتها مع قادة الجيوش ليستمع إلى تقاريرهم باعتبار أننا شركاء، ومعاونون لبعضنا البعض فى مهمة واحدة مشتركة. فأنا أعاون الجيش، والدفاع الجوى يستخدم المقاتلات فى تأمين أهدافه ضد غارات العدو، وهكذا. كنا نجلس كلنا نستمع ونناقش. فيقال مثلا إن اللواء كذا سوف يعبر القناة من السويس ويتوغل

جنوبا فى اتجاه الطور، فأقول مثلا: أنا لا أستطيع أن أحميه (بالطائرات) لمدة ثلاث أو أربع ساعات، أو أقول إن معنى أن أوفر له الحماية أننى أخذ أكثر مما ينبغى من قوة المقاتلات».

«أقصد أنه كانت تحدث مناقشات كثيرة جدا من أجل الوصول إلى خطة قابلة للتنفيذ الفعلى».

....

وفى فقرة أخرى يدلل الرئيس مبارك على النجاح الذى لقيته خطط العبور فيقول:

«وأذكر أن الفريق عبدالمنعم واصل قال لى: هل تعرف كيف عبرت قواتنا القناة، لقد قامت بإحصاء الطائرات وهى منطلقة ثم أحصتها وهى عائدة، ولما وجد الضباط والجنود العدد كاملا بدأوا العبور باندفاع شديد دون انتظار للأوامر. وبدأ العبور بشحنة معنوية عالية جدا».



وحتى نرى الصورة من زاوية أخرى متكاملة فاننا ننقل للقارئ ما يلخص به مدير المدرعات فى حرب أكتوبر الفريق أول كمال حسن على فى مذكراته «مشاوير العمر» حجم الانجاز الذى تحقق وطبيعته:

«فى الدقائق الأولى للعبور أصبح لنا على الضفة الشرقية للقناة حوالى ٨,٠٠٠ مقاتل استخدموا القوارب المصنوعة من المطاط والخشب. واستمر تدفقهم مستخدمين سلالم حبال بدائية لتسلق الساتر الترابى (بارتفاع ١٧ مترا) على الضفة الشرقية، ولم ينته اليوم حتى كان لنا أكثر من ٥٠,٠٠٠ مقاتل فى الشرق. وكان المهندسون قد أتموا فى خلال ثمانى ساعات فقط إنشاء ثمانية كبارى ثقيلة وأربعة كبارى خفيفة، وقاموا ببناء وتشغيل ٣٠ معدية، وفتحوا ٦٠ فتحة لتكون بمثابة ممرات فى الساتر الترابى، وقد تهيَّل منها ٩٠ ألف متر مكعب من الرمال بفضل

استخدامهم لمضخات مياه عادية كانت تستخدم فكرتها فى تجريف الرمال فى السد العالى، فكانت من أهم الأسلحة التى فوجىء بها العدو، وقد ظن أن أتربة هذا الساتر ستوفر لهم الحماية وتحجز المصريين خلفها لمدة طويلة كافية لوصول دباباتهم إلى الخط وسحق قوات المشاة الضعيفة التى قد تنجح فى التسلل عبر تلاله».

«وفى صباح اليوم التالى ٧ أكتوبر، كانت قواتنا قد نجحت فى الهجوم وعبور واقتحام أعقد مانع مائى، وحطمت خطا دفاعيا محصنا خلال ١٨ ساعة، كان أليعازار رئيس الأركان الإسرائيلى يصفه لجولدا مائير فى مساء الأمس بأنه من أصعب الموانع المائية فى العالم (وأنه لا يوجد مثيل فى العالم لمناعته سوى قناة بنما) وأن المصريين إذا عبروه سيكون مقبرة لهم نتيجة للمواقع الحصينة فى خط بارليف بالإضافة إلى القنوات البترولية التى ستعمل فى خلال دقائق فيتحول كل شبر فى خط المواجهة على القناة إلى كتلة حريق قاتلة».

«ولم يكن أليعازار يدرى فى هذه اللحظة أن مجموعة من رجال المهندسين كانت قد تسللت تحت الماء فى نفس ليلة ٥/٦ أكتوبر وأبطلت مفعول هذه القنوات، وكانت المخابرات المصرية قد أمدتهم بكل شىء عن أجهزة هذه القنوات ومنافذها ومواقعها».

«وقبل آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر بينما كان عبور واقتحام القناة يتم كانت قوات الصاعقة التى هبطت بالهليوكبتر فى عمق سيناء تبث الذعر فى المواقع الخلفية للعدو وتقوم بتعطيل تحرك قواته الاحتياطية فى عمل جرىء جسور كبد القوات الإسرائيلية المتحركة من الخلف للأمام خسائر فادحة، ولقد تعددت أعمالها ومهامها فى أماكن متعددة حتى إنها قامت بإشعال النار فى آبار البترول على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر. هذا بينما كانت قواتنا البحرية تقوم بتنفيذ مهامها لضرب مواقع العدو الساحلية، وتعمل ضد ناقلات البترول الإسرائيلية عند باب المندب، بل واستطاعت إغراق إحدى هذه الناقلات حمولة ٤٦ ألف طن عندما فوجئت بحقول الألغام التى بثتها البحرية».

«لقد استطاعت قواتنا فى أقل من ٢٤ ساعة أن يكون لها خمسة رءوس كبارى أنشأتها خمس فرق مشاة على امتداد قناة السويس وبعمق ٦ ـ ٨ كيلو متراً رفعت الأعلام المصرية فوقها».

ويشرح الفريق كمال حسن على فى مذكراته معنى رأس الكوبرى فيقول إن المقصود بكلمة رأس كوبرى «هو الاستيلاء على مساحة من الأرض شرق القناة تكفل القدرة على الدفاع عنها وعن الكبارى المقامة المؤدية إليها باستخدام المناورة بكافة الأسلحة والنيران. ولقد استطاعت كل فرقة مشاة أن تنشىء رأس كوبرى خاصا بها. وزيادة فى التوضيح أذكر أن قواتنا على جبهة القناة كانت تتكون من جيشين (الثانى والثالث). ويتكون الجيش الثانى من الفرقة ١٨ والفرقة ٢ والفرقة ١٦، الفرقة ٢١ المدرعة ويقع قطاع هجومه بين شمال البحيرات المرة الكبرى وبين بورفؤاد، بينما يتكون الجيش الثالث من الفرقة ١٩ والفرقة ٦ والفرقة الرابعة المدرعة ويقع قطاع هجومه بين شرق السويس وجنوب البحيرات المرة الكبرى. هذا وكل فرقة تضم عدداً من الألوية المشاة المدرعة والمدفعية وغيرها».

....

«وقد تحقق هذا العمل بأقل خسائر ممكنة: ٥ طائرات، ٢٠ دبابة، ٢٠٠ شهيد، وفى الوقت نفسه خسر العدو ٢٥ طائرة، ١٢٠ دبابة وعدة مئات من القتلى (أكثر من ١٠٠٠ كما يذكر إدجار أو بالانس). وسقط خط بارليف الذى كان يمثل نظرية الأمن والدفاع على حدود إسرائيل فوق الموانع الطبيعية».

«وبعد أن ثبت للمؤسسة الإسرائيلية أن المبادرة والمفاجأة ليست حكراً عليهم، لدرجة أن ديان صرخ فى وجه إلياهو زعيرا مدير المخابرات العسكرية فى ذلك اليوم قائلا: «إنى أحملك مسئولية ما يحدث» عقب المعلومات التى بلغته بسقوط أحد الحصون المنيعة. ولذلك عندما بلغ ديان سقوط باقى الخط نفسه، حدث له الانهيار الذى لامته عليه جولدا مائير أثناء الحرب، وقد طالب لأول مرة فى تاريخه بضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية إلى خط آخر فى الخلف عند المضايق. وهكذا

دارت الدائرة على ديان وأصبح هو الذى يطالب بالانسحاب لقواته بعد أن كانت كل مناوراته العسكرية مبنية على انسحاب القوات المصرية من سيناء فيما مضى».



ومن زاوية ثالثة تنقل للقارئ ما صوره رئيس أركان حرب سلاح المدفعية فى حرب ١٩٧٣ وهو الفريق أول يوسف صبرى أبو طالب الذى يقول فى حواره مع أحمد فرغلى (الأهرام العربى، ١٩٩٨):

«بعد ضربة المدفعية الأولى تلقيت بلاغات لا حصر لها عن النجاح، أما بلاغات الخسائر فكانت قليلة جداً بالنسبة لأى حرب وهو ما أصابنى بالدهشة، والفرحة معاً، وقررت احتضان الفرحة على الطبيعة فذهبت فى اليوم التالى لمراجعة البلاغات على الطبيعة، وعندما عبرت مع الفرقة ١٩ انبهرت بالإنجاز الذى حققه أولاد مصر.

«٤٠٠٠ مدفع تضرب على مرحلتين بحيث يضرب فى كل مرة ٢٠٠٠ مدفع».

«أما معدل طلقات المدفعية فقد قيل إنها حوالى عشرة آلاف طلقة مدفع فى الدقيقة الواحدة وهو رقم ضخم جدا».



ومع أن الانجاز الذى تحقق فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ يتطلب مجلدات كبيرة للحديث عن طبيعته وحجمه إلا أن المقام قد يتسع، الآن، لبعض فقرات كفيلة بتصوير نجاح الأسلوب الذى انتهجته القوات المسلحة المصرية فى شن هذه الحرب وإدارتها، والإنجازات التى حققتها، ومن أفضل النصوص التى تقدم لنا هذا المعنى هذه الفقرة من كتاب اللواء جمال حماد «المعارك الحربية على الجبهة المصرية» حيث يقول:

«وعندما بدأت الحرب فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ كانت إسرائيل ما تزال تبدو أمام العالم كقلعة عسكرية منيعة لا يمكن اقتحامها،

ووصل الغرور بالإسرائيليين إلى الاعتقاد بأن هذه الحرب ما هى إلا اليوم السابع من حرب الأيام الستة السابقة. ومن قاعة دار «سوكولوف» التى شهدت المؤتمرات الصحفية الخاصة بأنباء الانتصارات الإسرائيلية الباهرة فى حرب يونيو ٦٧، أعلن موشى ديان وزير الدفاع مساء ٦ أكتوبر فى مؤتمر صحفى «سوف يدحر جيش الدفاع الإسرائيلى المصريين بضربة شديدة فى سيناء، وسوف ينتهى القتال بانتصارنا فى الأيام القادمة». وصرح الجنرال دافيد أليعازر رئيس الأركان فى مؤتمر صحفى يوم ٨ أكتوبر وسط تصفيق الحاضرين، بأن الجيش الإسرائيلى سيواصل ضرب العدو وتحطيم عظامه».

«ولكن هذه الأوهام الإسرائيلية لم تلبث أن تبددت منذ الساعات الأولى من القتال، فقد نجحت القوات المصرية فى اقتحام قناة السويس واجتياح حصون خط بارليف، وبدأت فى إنشاء منطقة من رءوس الكبارى. وفقا للخطة الموضوعة - على الضفة الشرقية للقناة، كما تمكنت من تدمير ثلاثة ألوية مدرعة إسرائيلية تدميراً يكاد يكون كاملا. وعلى الجبهة السورية نجحت القوات السورية فى عبور الخندق الصناعى الذى أقامته إسرائيل، واندفعت كالسيل الجارف تشق طريقها فى مرتفعات الجولان من الشرق إلى الغرب على ثلاثة محاور رئيسية».

«وهكذا انهارت نظرية الأمن الإسرائيلى بكل أسسها ومقوماتها، وتقوّضت سمعة الجيش الإسرائيلى الذى ذاعت شهرته فى الآفاق بأنه الجيش الذى لا يقهر، وأصيب الشعب الإسرائيلى بصدمة عنيفة وصفها بعض المحللين العسكريين بالعبارة الشهيرة «زلزال فى إسرائيل».

«لقد كانت حرب أكتوبر حدثا فريدا بلا شك بل نقطة تحول Turning Point فى مسار الصراع العربى الإسرائيلى، فقد تعرضت إسرائيل كدولة لمفاجأة إستراتيجية كاملة أفقدت الإسرائيليين ثقتهم فى جيشهم وفى جهاز مخابراتهم، الذى كان يدّعى أنه أقدر جهاز مخابرات فى العالم خبرة بشئون الشرق الأوسط. كما تعرضت القوات الإسرائيلية على جبهتى سيناء والجولان لمفاجأة تكتيكية أفقدت

أفرادها توازنهم وأجبرتهم على الانسحاب من مواقعهم الأمامية. وكان الأمر الذى أدهش العالم هو نجاح مصر وسوريا فى تحقيق المفاجأة على المستويين الإستراتيجى والتكتيكى، رغم التطور الهائل فى وسائل الاستطلاع الحديثة وقدرتها على خداع جهازى المخابرات الإسرائيلية والمخابرات الأمريكية فى وقت واحد».

«ولقد تمكنت القوات المصرية من تقويض أسس العقيدة القتالية للقوات الإسرائيلية خلال حرب أكتوبر، ففقدت بالتالى مميزاتها الرئيسية وأهمها خفة الحركة والقدرة على المناورة وتحقيق السيادة الجوية على ميدان المعركة، فقد هبطت قدرات وفعالية الدبابات الإسرائيلية إلى درجة خطيرة عندما واجهت القواذف والصواريخ المضادة للدبابات المصرية، كما اضطرت الطائرات الإسرائيلية إلى تجنب الاقتراب من قناة السويس، حتى لا تقع فريسة لشبكة الصواريخ المصرية أرض - جو [سام] المنتشرة غرب قناة السويس. وإزاء كثافة الصواريخ المصرية وفعاليتها ضد كل من الطائرات والدبابات، وهما السلاحان الرئيسان لإسرائيل اللذان كانا يهيئان لها القدرة على شن الحرب الخاطفة القصيرة المدى فيما مضى، لذا ارتبكت خططها العسكرية وتجمدّت عقيدتها الهجومية وعجزت عن إحراز التفوق الذى كانت تحصل عليه دائما فى الحروب السابقة مع العرب، وفى نفس الوقت استرد العرب كرامتهم وثقتهم فى أنفسهم وسمعتهم أمام العالم، واسترد الجندى العربى ثقته فى نفسه وفى سلاحه وفى قياداته وكان أحسن تعبير عما جرى هو أن العرب قد عبروا الهزيمة».

«هذا ولم تقدم الخطوط الدفاعية والتحصينات القوية على جبهتى سيناء والجولان فى بداية الحرب الوقاية التى كانت تنشدها إسرائيل من إقامتها، فقد سقطت حصون خط بارليف الشامخة فى ساعات معدودة، كما تمكنت القوات العربية من اقتحام هذه التحصينات واكتساحها على الجبهتين، وثبت أن الموانع الطبيعية والصناعية والدفاعات الحصينة لا يمكنها أن تقف حائلا أمام الجيوش

الحديثة، بما لديها من تجهيزات وأسلحة ومعدات، وبخاصة إذا كان لديها العزيمة والإرادة والتصميم على القتال».

«ولاشك فى أن حرب أكتوبر قد قلبت موازين القوى فى الشرق الأوسط رأسا على عقب ، فقد كانت إسرائيل تركز بعد حرب يونيو ٦٧ على نغمة التفوق النوعى للفرد الإسرائيلى ومقدرته على استخدام التكنولوجيا الحديثة، مما يقلل إلى حد كبير من ميزة التفوق العددى العربى. وجاءت حرب أكتوبر فكان من أبرز سماتها ظهور كفاءة المقاتل العربى ومدى ارتفاع مستوى نوعيته وقدرته على استيعاب واستخدام الأسلحة الحديثة والمعقدة بما فيها الأسلحة الالكترونية، لقد أثبت كل من المخطط والقائد والمقاتل العربى كفاءته وقدراته الحقيقية فى ميدان القتال، ولذا فإنه بإضافة النوعية العربية المتفوقة على الكم العددى فسوف تكون للعرب الكفة الراجحة فى أى صراع مقبل فى الشرق الأوسط».

....

«ولقد أثارت معارك حرب أكتوبر العديد من التساؤلات حول مستقبل بعض الأسلحة الرئيسية فى حروب المستقبل، فقد ثار التساؤل حول مدى سيادة الدبابة لميدان القتال، وهل ستظل محتفظة بالمكانة العالية التى تحتلها فى المعركة الهجومية؟ لقد نجح المشاة المصريون المجردون من أى تدريع ومن مسافات قصيرة، فى صد أقوى أنواع الدبابات الإسرائيلية، من طرازان سنتوريان و إم ٦٠ وإم ٤٨ ، فى الحاق خسائر جسيمة بها خاصة فى المرحلة الأولى من الحرب، عن طريق استخدام قذائف آر بى جى ٧ المضادة للدبابات وصواريخ مالوتكا (ساجر) الموجهة بالسلك. ولا شك أن الصراع بين الدبابة والصاروخ الموجه ضدها سوف يستمر لزمان غير محدد إذ كلما تطورت وتحسنت فى المستقبل وسائل التوجيه للمقذوفات الصاروخية المضادة للدبابات، فسوف يقابلها من الناحية الأخرى تحسن وتطوير فى وسائل الإعاقة المضادة للصواريخ التى ستزود بها الدبابة فى المستقبل.

ورغم الخسائر الكبيرة التى لحقت بالدبابات فى حرب أكتوبر سواء لدى الجانب المصرى أو الإسرائيلى بفعل الصواريخ المضادة للدبابات، فسوف تبقى التشكيلات المدرعة بلا شك هى عنصر الهجوم الرئيسى فى معركة الأسلحة المشتركة».

«وقد أثبت الدفاع الجوى المصرى فعاليته فى الحد من التفوق الجوى الإسرائيلى على أرض المعركة، وقد كانت صواريخ سام ٢ وسام ٣ التى أثبتت فعاليتها خلال حرب الاستنزاف مضافا إليها صواريخ سام ٦ المتحركة والمدافع ٢٣مم الرباعية المواسير (شيلكا) وعدد كبير من صواريخ الكتف سام ٧ ، هى الوسائل الرئيسية التى أمكن بها تحقيق ذلك الهدف، وبفضل شبكة الدفاع الجوى المشكلة أساسا من الصواريخ أرض جو سام، عجزت الطائرات الإسرائيلية عن تدمير الكبارى التى أقامتها القوات المصرية على قناة السويس وبذا تم تأمين تدفق القوات والإمدادات طوال مراحل الحرب إلى الضفة الشرقية. ولقد أجبرت النتائج التى أحرزتها قوات الدفاع الجوى المصرية الدوائر العسكرية الغربية على إعادة النظر فى أنظمة دفاعها الجوى فيما يختص بالتوازن بين الطائرات المقاتلة والصواريخ المضادة للطائرات، فقد أثبتت الدروس المستفادة من حرب أكتوبر مدى أهمية الدور الذى تلعبه الصواريخ المضادة للطائرات، فإذا اعتبرنا أن الطائرات المقاتلة هى العنصر الرئيسى للدفاع الجوى فينبغى أن تكون الصواريخ المضادة للطائرات هى العمود الفقرى لهذا الدفاع».

....

«لقد كانت حرب أكتوبر ٧٣ هى أول حرب الكترونية فى التاريخ، فقد شهدت هذه الحرب استخداما مكثفا لكل ما توصل إليه العلم والتكنولوجيا فى هذا المجال، وواجهت قوات الدفاع الجوى المصرى أحدث ما أنتجته الترسانة الأمريكية من معدات وفنون الإعاقة الإلكترونية بكل صورها وأشكالها».

«هذا وتشهد النتائج التى أحرزتها قوات الدفاع الجوى المصرى فى حرب أكتوبر، بأن هذه الإعاقة لم يكن لها التأثير ولا الفعالية التى كانوا ينشدونها فيها. وبذا تمكنت هذه القوات من تحقيق المبدأ القائل «إن أى جهاز رادار يمكن إعاقته وأيضاً كل إعاقة يمكن مقاومتها بإعاقة مضادة».

....

«وكانت الدروس المستفادة من عمليات القوات الجوية المصرية فى حرب أكتوبر أن تحقيق مبدأ الحشد الذى هو من أهم مبادىء الحرب قد أدى إلى نجاح الضربة الجوية المركزة التى أفقدت العدو توازنه منذ اللحظات الأولى من القتال، كما أن نجاح هذه الضربة فى شل مراكز الإعاقة والسيطرة الجوية للعدو قد أتاح الفرصة للطائرات المصرية بمختلف أنواعها وواجباتها، كى تعمل بحرية وخاصة فى المرحلة الأولى من الحرب، وقد حقق التعاون الفعال مع وسائل الدفاع الجوى تأمين وحماية القوات والأهداف الحيوية للدولة». وكانت ثقة الطيارين بأنفسهم وروحهم المعنوية العالية، سببا فى جعلهم يتفوقون على المعدات القياسية العالمية».



بعد هذه الفقرات التى نقلناها من حوار الرئيس محمد حسنى مبارك، ومذكرات الفريق أول كمال حسن على، ومذكرات المشير الجمسى، ومذكرات الفريق الشاذلى، وكتاب اللواء جمال حماد «وحوار الفريق أول يوسف صبرى أبو طالب يجدر بنا أن نقترب بالكاميرا من أداء المشير أحمد إسماعيل فى بعض الجزئيات الدقيقة ولست أجد مثلاً أبلغ فى تصوير هذا الأداء من القصة التى توردها مذكرات الفريق يوسف عفيفى الذى كان حريصا على أن يوضح حقيقة قصة تدمير المدافع الستة الشهيرة بعد الاستيلاء على الموقع الذى كان يضمها، وهو يذكر بوضوح أن المشير أحمد إسماعيل كان هو صاحب الأمر بهذا التدمير خشية عودة العدو للاستيلاء عليها، وقد كانت هذه المدافع الستة الشهيرة

مصدر إزعاج دائم لنا، لأنها كانت لا تكف عن قصفنا وقصف قواتنا على الشاطئ الغربى.

ويذكر الفريق يوسف عفيفى أن المبادئ التكتيكية (حسب فكره هو وعلمه فى ذلك الوقت) كانت تقضى بالحفاظ عليها، لكن المشير أحمد إسماعيل على بما عرف عنه من تقديره الدقيق وحذره وتحسبه وحرصه على سلامة قواته كلها، كان ينظر برؤية مختلفة عن رؤية يوسف عفيفى إلى الحد الذى جعله يرسل لجنة هندسية من القوات المسلحة لتدمير هذه المدافع.

وهكذا يثبت الفريق يوسف عفيفى لنا من دون أن نطلب منه ذلك ما نكرر الإشارة إليه من تميز أحمد إسماعيل وحنكته فقد كان بحكم خبرته الطويلة ينظر إلى الأمور نظرة أعمق من نظرة القادة الشبان الذين لم يخبروا ما خبره هو من قبل من احتمال تبدل الموازين فى أثناء الحروب وما قد يترتب على هذا من كوارث غير متوقعة.

يقول يوسف عفيفى فى مذكراته:

«لقد سألنى الكثيرون عن الأسباب التى دعت إلى تدمير مدافع موقع عيون موسى بعد الاستيلاء على الموقع».

«وهذه هى المرة الأولى التى أذكر فيها هذه التفاصيل».

«بعد أن تلقيت بلاغاً من العقيد فوزى محسن قائد اللواء السابع بالاستيلاء على موقع عيون موسى سليماً بمدافعه الستة الشهيرة واستسلام موقع لسان بورتوفيق وبه خمس دبابات باتون جديدة سليمة، طلبت من القيادة سائقى دبابات لقيادتها وترحيلها من الجبهة والاستفادة بموقع عيون موسى».

«لكن المشير أحمد إسماعيل أرسل لجنة هندسية من القوات المسلحة لتدمير هذه المدافع والدبابات، خشية من أن يعود العدو للاستيلاء عليها.. كان هذا تقديره».

«لكنى لم أكن مع هذا الرأى، حيث إن هناك مبدأ تكتيكياً هو الحفاظ على المواقع المكتسبة، وترك بعض العناصر للدفاع عنها.. والحقيقة التى أود تأكيدها هنا أن تدمير هذه المواقع والمعدات لم يكن إطلاقاً بسبب عدم التمكن من إخراجها من خلال الحوائط الخرسانية كما ذكر الإسرائيليون فى بعض مذكراتهم».



وأعتقد أن أفضل ختام لهذا الفصل من كتابى هذا هو أن أنقل نص البيانات العسكرية الأولى عن حرب أكتوبر، ولكنى أظن أن هناك ما يستحق التوقف قبل إيراد هذه البيانات، وهو أن أنقل للقارئ فقرات من حوار الأستاذ محمد محمود شعبان رئيس الإذاعة أثناء حرب أكتوبر مع الأستاذ بشير حسن (الأهرام العربى، ١٩٩٨) وهى فقرات أكثر من رائعة، وأكثر من موحية فى تعبيرها عن الجو العام لمفاجأة العبور.

يقول بابا شارو العظيم:

«جاءنى أول بلاغ مساء ٦ أكتوبر وقيل فيه: عبرت قواتنا المسلحة قناة السويس وبدأت فى «تحطيم خط بارليف ورفعنا العلم على سيناء» تشككت فى البيان وعزمت على ألا أعيد أكاذيب ٦٧ فاتصلت بالمسئول العسكرى وقلت له.. «تانى» حنكرر اللى حصل، ورد الرجل بانفعال قائلاً والله انتصرنا.. والله حقيقى، وبعد أن تأكدت أن النصر حقيقى أرسلت إلى الراحل صبرى سلامة وكان كبيراً للمذيعين وقلت له.. هذا نصر كبير وهذا هو البلاغ الأول من الجبهة اقرأه بدون نبرة عالية حتى لا نكرر نبرة بلاغات ١٩٦٧ وقلت له ابدأ قراءة البيان بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وقل جاءنا البلاغ رقم (١) وأكمل القراءة، وقد قصدت أن يبدأ باسم الله لأنها تحتم على المذيع أن يلتزم الهدوء فى القراءة وأمرت جميع المذيعين بأن يبدأوا بها قراءة بلاغات حرب أكتوبر، خاصة أننا نذيع حقائق.



.. والآن فلنطالع نص البيانات الخمسة الأولى من بيانات العبور العظيم.

البيان الأول (فى الساعة الثانية وخمس عشرة دقيقة مساء):

«قام العدو فى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا فى منطقة الزعفرانة والسخنة فى خليج السويس، بواسطة عدة تشكيلات من قواته الجوية، عندما كانت بعض زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربى من الخليج وتقوم قواتنا حالياً بالتصدى للقوات المغيرة».

البيان الثانى (فى الساعة الثانية و٤٥ دقيقة):

«رداً على العدوان الغادر الذى قام به العدو ضد قواتنا فى كل من مصر وسوريا، تقوم حالياً بعض من تشكيلاتنا الجوية بقصف قواعد العدو وأهدافه العسكرية فى الأرض المحتلة».

البيان الثالث (فى الساعة ٣ عصراً):

«إلحاقاً بالبيان رقم ٢ نفذت قواتنا الجوية مهامها بنجاح وأصابت مواقع العدو بإصابات مباشرة وعادت جميع طائراتنا إلى قواعدها سالمة عدا طائرة واحدة».

البيان الرابع (فى الساعة الثالثة و٢٠ دقيقة):

«حاولت قوات معادية الاستيلاء على جزء من أراضينا غرب القناة وقد تصدت لها قواتنا البرية، وذلك بهجوم مضاد ناجح ضدها بقصفات مركزة من مدفعيتنا على النقط القوية المعادية. ثم قامت بعض من قواتنا باقتحام قناة السويس ومطاردة العدو للضفة الشرقية فى بعض مناطقها ولازال الاشتباك مستمراً على الضفة الشرقية للقناة».

البيان الخامس (فى الساعة الرابعة و٦ دقائق):

«نجحت قواتنا فى اقتحام قناة السويس فى قطاعات عديدة واستولت على نقط العدو القوية بها ورفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة، كما قامت القوات المسلحة السورية باقتحام مواقع العدو فى مواجهتها وحققت نجاحاً مماثلاً فى قطاعات مختلفة».

9

تطوير الهجوم

نناقش فى هذا الباب بقدر من التفصيل موقف أحمد إسماعيل من فكرة تطوير الهجوم، ومن المهم أن نتذكر قبل البدء فى هذه المناقشة جوهر الحقيقة التى أرساها المشير أحمد إسماعيل فى قيادته للقوات المسلحة المصرية وهو أن للقوات المسلحة واجباً واحداً فقط هو أن تؤمر بالقتال فتقاتل، ولهذا فإنى أستنكف أن أرى أو أن أروى كثيراً من المناقشات التى تتصور أو تعتقد أن قرار تطوير الهجوم كان قراراً عسكرياً مجرداً دون أن تأخذ فى الحسبان ما ارتضاه أحمد إسماعيل بل ما أسس عليه فلسفته فى القيادة من الالتزام بأوامر القائد الأعلى (أى رئيس الجمهورية) وتقدير مسئوليته الأولى عن الحرب والعمليات العسكرية.

ومن الإنصاف أن أشير إلى أن كل ما كُتب عن تطوير الهجوم قد كتب فى مرحلة لاحقة واعتمد على التحليل البعدى للأحداث، كما أنه لم ينطلق من تقدير حقيقى وواقعى للإمكانات المتاحة وقتها.. وكل هذا مما يسهل على القارئ المثقف مناقشته وإيضاح وجه الحقيقة فيه وإن بدا الأمر غير ذلك فى نظر الذين يصابون بالهلع من كثرة ما هو متاح من نصوص مؤدلجة أو ذات غرض.

والشاهد أن المشكلة الكبرى التى لاتزال تواجه المؤرخين والمحللين، بل القراء أيضاً، هى أن معظم ما كُتب فى هذا المجال كُتب لهدف واحد فقط هو الزعم بأن الرئيس السادات قد فرط فى نصر ممكن، وهو المعنى الخاطىء والغرض المريض الذى تم التعبير عنه بعبارات براقة من قبيل القول بأن النصر الكامل كان ملقى أمام السادات فى سيناء لكنه لم يكلف نفسه الجهد فى التقاطه، ومن قبيل القول الأكثر خبثا بأن السياسة خذلت السلاح فى حرب أكتوبر، بل من قبيل القول القائل، والعياذ بالله، أن حرب أكتوبر كانت تمثيلية متفق عليها بين السادات والأمريكيين (والإسرائيليين بالتالى).

راجت هذه الأقوال واستلزمت أن يكون هناك نقد للأداء العسكرى الفذ فى حرب أكتوبر، ولم يكن هذا مما تعودناه فى العالم العربى لأن نصر أكتوبر نفسه كان النصر الوحيد الذى حققناه، ولم تكن ثقافة النصر قد تأصلت فى مجتمعاتنا التى بنى بعض مَنْ لا يزالون يُقدمون على أنهم الكتاب الكبار أمجادهم فيها على تزيف الواقع وتقديم الهزائم على أنها انتصارات، ومن ثم فان طبيعة النصر الحقيقية كانت تتوارى وراء طبائع النصر المزيف الذى قدم للجماهير وقد أصبح الأمر فى هذا شبيها بتقديم منتج محلى على أنه هو نفسه المنتج الأصلى، فلما تم استيراد المنتج الأصلى وأصبح مباحا متاحاً لم يكن من السهل على المنتجات المقلدة التى ملأت الأسواق على أنها المنتج الأصلى أن تتوارى أو أن تعترف بالحقيقة، ولهذا لم يكن من سبيل أمام المبشرين بالهزيمة والذين صكوا تعبيرات انتصار النظام وبقاء النظام بديلاً عن ضياع الأرض والعرض والكرامة، لم يكن بد أمام هؤلاء إلا أن ينتقصوا من النصر الوحيد على نحو ما فعلوا بالضبط، ولم يكن يهم هؤلاء ما يدركونه من أن حقيقة أن التقليل من قيمة النصر الوحيد لن تكفل للهزائم السابقة اعترافاً مزيفاً بأنها كانت انتصارات..

ومع هذا فقد حاولوا ودأبوا واجتهدوا لأن حياتهم كانت مرتبطة بهذا الزيف

الذى بدعوه وبدأوه وغذوه.. بل ما يزال عندهم وعند حوارييهم الأمل فى أن يواصلوا ترويجه.

ولكن الأيام الأخيرة أثبتت أن عليهم وعلى أفكارهم الزائفة هذه أن تدفن نفسها. على كل الأحوال فلاتزال هناك بعض الأفكار الرائجة التى استسهلت اللجوء إلى الحديث القافز عن أن العبور فى حد ذاته كان كفيلا - ولست أدرى كيف - بالانطلاق مباشرة إلى الممرات.

ومن العجيب أن الذين تبنوا مثل هذه المقولات كانوا يتحدثون عن هذا الوصول إلى الممرات وكأنه بهذا القدر من السهولة الذى تتحرك به أصابعهم من القناة إلى الممرات على الخريطة، بينما أعطانا التاريخ والواقع مثلاً معبراً فى ذلك اللواء المصرى الذى لم يلتزم بخطة أحمد إسماعيل وسعد الشاذلى الحذرة واندفع به قائده إلى الممرات فإذا هو يباد تماماً فى الصحراء المكشوفة بفعل الآلة العسكرية الجبارة التى كانت إسرائيل تمتلكها.



وربما يكون من المهم هنا أن أشير إلى حقيقة أو جوهر ما أدلى به الرئيس محمد حسنى مبارك فى حديثه للأستاذ إبراهيم نافع (الأهرام، أكتوبر ١٩٩٨) من أنه وهو قائد للقوات الجوية ومشارك فى الاجتماعات التخطيطية للعبور كان ينبه بوضوح إلى مدى ما يعنيه أن تُخصص تغطية جوية لحركة لواء ما من مكان إلى مكان، وإلى أنه كان يحذر من تأثير مثل هذه الطلبات على القوة الجوية المتاحة، ولعل فى هذا المثل ما يصور بعض ما يصور الحقيقة لهؤلاء الذين يرغبون فى فهم حقيقة ما جرى.

ومن العجيب أن بعض دعاة الإفك والفيروسات الصحفية لا يزالون يصرون على أنه كانت هناك فرصة للوصول بالقوات المسلحة المصرية إلى المضايق ولكن القيادة السياسية أهدرتها، ومن نعم الله على هذا الوطن أن سيناء كلها قد تحررت

بفضل تلك القيادة التى أنجزت العبور وما بعد العبور، ومع هذا فلايزال نعيق البوم مستمراً، وتمضى الأيام فإذا الحروب المتكررة وإذا المواجهات المتكررة تبين عن الحقائق التى حكمت تصرفات قيادتنا العظيمة فى ١٩٧٣.

ولا تخلو مذكرات كثيرين من سياسيينا من تناول هذه الرؤية من واقع تكرارهم لما قرأوه، وهو قليل جدا، واستسهلوا تكراره من أراجيف ابتدعها أولئك الذين ساءهم أن ينتصر الوطن الذى احتضنهم، ولم يكن هذا مما اندهش له، فقد عاش هؤلاء الساسة والعسكريون الكبار فترة تكوينهم وممارستهم للسياسة أسرى لمقال واحد يكتبه كاتب واحد وكانت هذه هى النافذة الوحيدة لهم على السياسة، ولهذا فلم يكن من المستغرب أن نراهم [بمن فيهم المشير الجمسى، ومحمود رياض، والفريق أول محمد فوزى] وقد ظنوا أن ما احتوته مقالات الكاتب الأوحد يعبر عن وجهة النظر التى تريد القيادة السياسية أن تطرحها على الجماهير.. وهكذا اندفع كثيرون إلى الظن أن قيادة القوات المسلحة كانت حذرة أكثر من اللازم، وانسحب هذا إلى إلقاء تبعة متوهمة على عاتق أحمد إسماعيل.. بينما لم يكن لهذا التفكير النظرى أو الورقى من سند حقيقى.



وبوسعنا الآن أن نستعرض بعض النصوص التى كتبت فى هذا الإطار، وربما كان من الأوفق أن نبدأ بنقل رواية المشير محمد عبد الغنى الجمسى فى مذكراته حيث يتحدث عن بعض ما يصفه بأنه الاختلافات فى وجهات النظر التى حدثت بينه وبين المشير أحمد إسماعيل فى أثناء الأيام الأولى للحرب، وهى الخلافات التى تتعلق بفكرة تطوير الهجوم التى كان الجمسى، حسب روايته هو نفسه، أبرز أنصارها، ونحن نرى الجمسى حريصا على أن يذكر أنه كان من رأيه ضرورة تطوير الهجوم شرقا طبقاً للخطة، ولكنه مع ذلك يبدو حريصاً وبنفس القدر

على أن يذكر وجهة نظر المشير أحمد اسماعيل وما أبداه من حجج أسس عليها موقفه ورؤيته، ولا أظن أن هناك منْ يجد نفسه غير مضطر للوقوف إجلالاً واحتراما للمشير الجمسى وهو يروى الرؤية المخالفة لوجهة نظره بكل هذا الاحترام الشديد:

يقول المشير الجمسى:

« كان من رأيى ضرورة استغلال الموقف لتطوير الهجوم شرقاً طبقاً للخطة دون أن نتوقف طويلاً حتى نحرم العدو من فرصة تدعيم مواقعه أمام قوات الجيش. وهذا يعنى أن استئناف الهجوم يتم فى الظرف الأفضل لنا والأسوأ للعدو. ناقشت الفريق أول أحمد إسماعيل فى هذا الموضوع يوم ٩ أكتوبر خلال مقابلتين معه داخل مركز العمليات. وجدت منه الحذر الشديد من سرعة التقدم شرقاً ، فكان يرى الانتظار لتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة من أوضاع قواتنا فى رءوس الكبارى قبل استئناف الهجوم».

«وكان الفريق أحمد إسماعيل يرى أيضاً أن القوات البرية القائمة بالهجوم ستتعرض بشدة للطيران الإسرائيلى فى وقت لا تتمكن فيه المقاتلات وصواريخ الدفاع الجوى من توفير الحماية الكافية لها. وفى مناقشتى معه أوضحت أن استئناف هجومنا يترتب عليه التحام قواتنا مع قوات العدو ، الأمر الذى يجعل تأثير السلاح الجوى الإسرائيلى أقل. وللحد من تأثير السلاح الجوى المعادى ، يجب استغلال طاقة قواتنا الجوية التى أثبتت قدرتها ضد طيران العدو خلال الأيام الأربعة ٦-٩ أكتوبر. فضلاً عن ذلك فإن صواريخ الدفاع الجوى - خفيفة الحركة - برغم قلتها إلا أنها مؤثرة ، وفى نفس الوقت يمكننا تحريك بعض كتائب صواريخ الدفاع الجوى - بطيئة الحركة - على وثبات للأمام».

«وقلت أيضاً إن احتفاظنا بالمبادأة باستئناف الهجوم استغلالاً للنجاح الذى تحقق يعطينا فرصة تحقيق الهدف الإستراتيجى بنجاح برغم أننا نتحمل الخسائر ، ولكنها

خسائر مقبولة. وفى المقابل فإن طول الانتظار يعطى فرصة أفضل للعدو ليكون فى موقف أقوى عندما نستأنف الهجوم».

«لقد دارت المناقشة بين الفريق أول إسماعيل وبينى بطريقة موضوعية. وكنت أعرف عنه بحكم خدمتى السابقة معه أنه حذر جداً، وكلما كانت المناقشة تطول بيننا أجد أنه برغم اقتناعه إلا أن عامل «الخسائر المتوقعة من الطيران المعادى» كان يسيطر على كل تفكيره ثم يعود إلى القول: لابد من المحافظة على القوات المسلحة سليمة».

«وكان القرار الذى وصل إليه برغم مناقشتى الطويلة معه، أنه لابد من عمل «وقفة تعبوية» ثم يلى ذلك استئناف الهجوم على ضوء تطور الموقف، وهو قرار ثابت فى ذهنه لا يحيد عنه».

«وفى نهاية المناقشة بعد مقابلتين طويلتين يوم ٩ أكتوبر مع الفريق أول أحمد إسماعيل، وله كل الاعتزاز والاحترام منى، قلت له: أرجو أن تتذكر أن خطة الحرب تقتضى تطوير الهجوم لاحتلال المضايق بعد نجاح الهجوم واقتحام القناة «بعد وقفة تعبوية أو بدونها». أى أن مبدأ التطوير شرقاً إلى المضايق هو مبدأ مقرر لا خلاف عليه، وأصبح السؤال هو فقط: «متى يستأنف الهجوم؟».



وينتهى المشير الجمسى من هذا الحديث إلى أنه لايزال فى حاجة إلى الإجابة على هذا السؤال، ومن حسن الحظ أن المشير الجمسى فى مذكراته كان حريصاً على الدقة إلى هذا الحد دون أن يندفع إلى استنتاجات لايضمن صوابها من قبيل ما ذاع وشاع ولا يزال يذيع ويشيع من آن لآخر على ألسنة الذين ساءهم ويسوؤهم فوز أمتنا بالانتصار، وهو يتساءل فيقول:

«ويطرح السؤال نفسه: لماذا لم تنتهز القيادة العسكرية المصرية فرصة نجاحها حتى يوم ٩ أكتوبر ـ بعد أن حققت المهمة المباشرة بنجاح ـ لاستغلال هذا النجاح

بتطوير الهجوم بسرعة فى اتجاه المضايق لتحقيق الهدف الاستراتيجى العسكرى؟!».



على هذا النحو يصل المشير الجمسى فى مذكراته إلى بلورة الموقف وبلورة الفارق بين الرؤيتين أى بين رؤيته ورؤية المشير أحمد اسماعيل. وحين يبدأ المشير الجمسى فى الإجابة نجده كعادة الباحثين النظريين المجتهدين يحاول أن يحصر الآراء المتاحة ويصنفها، ثم يبدأ فى تفنيد جوانب الضعف فى كل منها للوصول إلى الصواب، وعلى الرغم من أن الجمسى لا يجاهر بالانحياز لرأى أو رؤية فإنه يدلنا على حقيقة مهمة جداً وهى أن رئيس الأركان الفريق الشاذلى لم يكن من الذين طالبوا بالإسراع بتطوير الهجوم حسبما تناقلته بعض الصحف ووكالات الأنباء بل بعض الكتب فيما بعد ويصل الجمسى إلى قمة الإقناع حين ينقل للقارئ نص ما كتبه الشاذلى نفسه فى هذا الموضوع فى مذكراته، وهو نص واضح وصريح يؤكد فيه الشاذلى على أنه لم يكن من أنصار تطوير الهجوم ، بل إن الشاذلى نفسه كما سنرى بعد قليل حين نعرض رأيه يقول فى صراحة:

«لقد كنت دائماً ضد فكرة تطوير الهجوم نحو الشرق سواء كان ذلك فى مرحلة التخطيط أو فى مرحلة إدارة العمليات الحربية».

وعلى الرغم من كل هذا فإن الجمسى لايجد أى حرج فى أن يضمن مذكراته نصا يعترض فيه على الشاذلى فيما قاله فى هذا الصدد فيهمس- على حد تعبيره- فى أذن الشاذلى بأنه هو - أى الجمسى- والشاذلى وأحمد اسماعيل وافقوا على الخطة التى تضمنت الوصول إلى المضايق كهدف استراتيجى عسكرى، وهكذا لايصبح من حق الشاذلى (أو لا يصبح من المستساغ حسب تعبير الجمسى المهذب) أن يقول إنه كان ضد تطوير الهجوم إلى المضايق فى مرحلة التخطيط!!



وهكذا يبدو لنا أن الجمسى (وليس الشاذلى) كان، فى مرحلة بعدية، هو نصير فكرة تطوير الهجوم التى لم يشأ أحمد إسماعيل أن يأخذ بها !! لأسباب قد لا يعرفها الجمسى ، ولم يكن موقعة فى تلك الفترة كفيلاً له بأن يعرفها:

ولنقرأ ما يرويه المشير الجمسى فى مذكراته حيث يقول:

«.... اختلف الكتاب والمحللون .... : منهم مَنْ استنتج أن التخطيط المصرى لحرب أكتوبر كان يهدف إلى القيام بعملية هجومية ذات هدف محدود هو: الهجوم مع اقتحام القناة والاستيلاء على خط بارليف فقط. ومنهم من استنتج أن التخطيط المصرى كان يهدف إلى القيام بعملية هجومية لاقتحام وتدمير خط بارليف والاستيلاء على خط المضايق كهدف نهائى. وهنا تنوعت آراء الكتاب، فقد نسب بعضهم للفريق الشاذلى أنه كان صاحب فكرة استغلال النجاح بسرعة التطوير. بينما نسب بعضهم للفريق أول أحمد إسماعيل أنه كان صاحب فكرة الانتظار الطويل - عمل وقفة تعبوية - قبل تطوير الهجوم إلى خط المضايق».

ويردف الجمسى بذكر الحقيقة من وجهة نظره فيقول :

«والحقيقة التى أقررها ، أن التخطيط لحرب أكتوبر ١٩٧٣ لم يكن قاصراً أبداً على الاستيلاء على خط بارليف كهدف نهائى، بل كان التخطيط يهدف إلى تحقيق هدف إستراتيجى عسكرى أبعد من ذلك وهو الوصول إلى خط المضايق والاستيلاء عليه كهدف نهائى».

«وكان التخطيط يشمل - بكل تأكيد - اقتحام قناة السويس وتدمير خط بارليف ، وصد هجمات العدو المضادة المنتظرة ، وتطوير الهجوم لتحقيق الهدف النهائى (خط المضايق) سواء بعد وقفة تعبوية أو بدون هذه الوقفة حسب الموقف. أى أن تطوير الهجوم شرقاً فى اتجاه المضايق كان مقرراً فى جميع الحالات».

«أما ما نسب للفريق الشاذلى من أنه صاحب فكرة استغلال النجاح بسرعة التطوير ، فقد تولى بنفسه نفيها ويؤكد ذلك على لسانه - فى مذكراته - بقوله: « لقد كثر الكلام وتعددت الآراء حول الأسباب التى منعت المصريين من تطوير هجومهم إلى الشرق فور نجاحهم فى عملية العبور، وقد انتشرت شائعات كثيرة تقول إننى كنت من أنصار الاندفاع السريع نحو الشرق سواء يوم ١٤ أو قبل ذلك بكثير، وقد امتنعت القوات المسلحة عن التعليق على هذه النقطة بالتأييد أو النفى سواء على المستوى الاعلامى أو المستوى العلمى، وهكذا بدأت وسائل الإعلام العالمية تؤكد تلك الشائعات. لقد وصفونى بأننى رجل مظلى قوى ، هجومى ، مقدام ... إلخ .. ولكنى لا أود أن نربط بين هذه الصفات الجميلة وبين قرار تطوير الحرب نحو الشرق. **لقد كنت دائماً ضد فكرة تطوير الهجوم نحو الشرق، سواء كان ذلك فى مرحلة التخطيط أو فى مرحلة إدارة العمليات الحربية للأسباب الكثيرة التى سبق لى أن ذكرتها».**



ومن المهم أن ننقل للقارئ ما استطرد إليه الشاذلى من اقتناعه بمعنى نبيل أكد عليه السادات فى كل حديث له عن حرب أكتوبر حين كان يقول إنه ليس على استعداد لمحاربة أمريكا، وها هو الشاذلى هو الآخر يؤكد نفس المعنى ويؤديه بألفاظه هو ويقول ما نصه:

....

«إنى على استعداد دائم لأن أضحى بحياتى فى سبيل وطنى، ولكنى لا أستطيع أن أقامر بمستقبل بلادى» .

«لقد كنت دائماً ضد فكرة تطوير الهجوم نحو الشرق، سواء كان ذلك فى مرحلة التخطيط أو فى مرحلة إدارة العمليات الحربية الكثيرة » .

« وقد أبديت رأيى هذا بصراحة تامة أمام كثيرين ممن لا يزالون أحياء يرزقون».

....

ومن المدهش أن المشير الجمسى بعد أن يورد النص الذى نقله عن مذكرات الشاذلى فيما يتعلق بمعارضته لفكرة تطوير الهجوم يعقب عليه بمنتهى التهذيب بقوله:

«وإنى أهمس فى أذن الشاذلى بكل الود والاحترام ، وأقول له إن خطة حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد وضعت بعد أن استغرق العمل فيها وقتاً طويلاً بواسطة هيئة عمليات القوات المسلحة واشتراك الأفرع الرئيسية لهذه القوات - جوية وبحرية ودفاع جوى - والأجهزة والقيادات المختلفة ، ووافق عليها الفريق الشاذلى رئيس الأركان وصدق عليها الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام - بتوقيع كل منهما مع توقيعى على وثائقها - قبل الحرب بوقت طويل. وطالما أن الخطة وضعت لتحقيق هدف إستراتيجى عسكرى هو الوصول إلى المضايق ، فليس من المستساغ أن يقول رئيس الأركان إنه كان ضد تطوير الهجوم إلى المضايق فى مرحلة التخطيط».

«أما أثناء إدارة العمليات الحربية ، فقد تتغير المواقف عما هو مخطط لها ، أو قد تظهر عوامل جديدة أثناء التنفيذ تستدعى مواجهتها بأساليب تناسب الموقف، وهنا تظهر كفاءة القائد وقيادته فى إدارة العمليات - بمتغيراتها - لتحقيق الهدف الإستراتيجى».



هكذا يبدو أن المشير الجمسى، فى مرحلة لاحقة لوقوع الحرب، آثر أن يتبنى فكرة تطوير الهجوم التى لم يكن رئيس الأركان موافقا عليها ولم يكن القائد

العام متحمساً لها، ومع احترامنا للمشير الجمسى فإننا ندرك أنه كان رئيس هيئة العمليات قبل الحرب ولم يكن الرجل الأول ولا الثانى فى القوات المسلحة ومع أنه كان مقرباً جداً من القائد العام المشير أحمد إسماعيل إلا أن هذا القرب لا يعنى اطلاعه على كل شيء، من ناحية أخرى فقد كان الجمسى لايزال من الذين يقرأون الصحف والكتب ويعطون لما يكتبه المحللون أهمية وقيمة، وهو فى هذا الصدد مختلف تماماً عن القادة العسكريين الذين يرون الكتابة مرحلة تالية للعمل العسكرى ، لكن الجمسى على حد ما نعلم وعلى حد ما صرح بهذا كثير ممن يعرفونه كان يقرأ المقالات السياسية ويهتم بما تتضمنه ويأخذ خطوطاً تحت بعض سطورها أو بعض جملها أو بعض كلماتها.. هكذا أتت مذكراته لتعرض رؤية متأثرة إلى حد كبير بكل التحليلات النظرية التى كتبت عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

مع هذا فإن المشير الجمسى فى مذكراته يصرح بأنه حاول أن يوسع أمام نفسه مجال الرؤية بما يقرؤه لنا ومعنا من دلالات ما ورد فى مذكرات مستشار الأمن القومى محمد حافظ إسماعيل وهو يقول:

«وفى مجال العمل السياسى وتأثيره على تطوير العمليات الحربية، فلم أكن أعلم أثناء الحرب بحكم عملى العسكرى - رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة - بالعمل السياسى الذى يتم بواسطة القيادة العسكرية دعماً للعمل العسكرى أو استغلالاً لنتائجه. وبعد أن نشر بعض القادة السياسيين مذكراتهم بعد الحرب، لفت نظرى موضوعان يستحقان الاهتمام حول «الوقفة التعبوية» والبطء فى تطوير هجوم قواتنا فى اتجاه المضايق».

«أولاً: ففى الرسالة التى بعث بها السيد حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى يوم ٧ أكتوبر - تعبيراً عن رأى الرئيس السادات - إلى الدكتور كيسنجر، جاء فيها: «لا تعتزم مصر تعميق الاشتباكات أو توسيع المواجهة». وقد فسر كيسنجر هذه

الجملة على أنها «لا تخلو من التنويه بأن مصر غير راغبة فى متابعة العمليات العسكرية ضد إسرائيل بعد الأراضى التى كسبتها».

«والسؤال الذى يطرح نفسه: هل هناك علاقة بين فكرة الرئيس السادات بعدم تعيمق الاشتباكات، وقراره بالبطء فى تطوير الهجوم فى اتجاه المضايق، وعمل وقفة تعبوية؟».

«إن الإدارة السياسية للحرب، لابد أن تنطلق من العمل العسكرى الذى يتحقق فى ميدان القتال. ففى الموقف العسكرى يوم ٧ أكتوبر، كانت قواتنا فى جبهة القناة قد حققت إنجازاً عظيماً، وفى الوقت نفسه تتقدم القوات السورية بنجاح فى الجولان، وكان العدو لم يفق من المفاجأة ولم تكن قواته الاحتياطية قد تمت تعبئتها. وفى هذا اليوم أيضاً، اقترح ديان فى مجلس الوزراء الإسرائيلى الانسحاب من خط القناة».

....

وهنا يصل المشير الجمسى إلى القفز إلى الجملة التى لا أتصورها تصدر عن قائد عسكرى من طبقته إلا فى ظل لحظة من الزمن طغت فيها مشاعر وقتية على روح عقلية متزنة. ولا أريد أن أقول ما يقوله الجميع من أن الجمسى فى هذه الفقرة قد جانب الصواب تماما حين آثر أن يغلب مشاعره الشخصية المتأثرة بتنحيته، وأن يغلب هذه المشاعر على حقائق الأمور لاجئا إلى الأسلوب الخبيث الذى لجأ إليه محمد حسنين هيكل فى إلقاء مسحة من الظلال على سياسة استراتيجية سليمة، ومن حسن الحظ أن الرأى العام المصرى قد تجاوز هذه الجزئية تماما حتى إن هيكل نفسه قد اعتذر عن نشر رسالة التى كان قد طلب من الأستاذ صلاح منتصر أن ينشرها حول هذا الموضوع. يقول المشير الجمسى:

«فى هذا الموقف لم يكن العمل السياسى متمشياً مع العمل العسكرى الناجح الذى

تحقق، والأخطر من ذلك أن القيادة السياسية فى مصر قد أفصحت عن نواياها فى العمل العسكرى، الأمر الذى جعل كيسنجر - وبالتالى إسرائيل - يفسره بأن مصر غير راغبة فى متابعة العمليات العسكرية ضد إسرائيل بعد الأراضى التى حررتها.



هكذا يبدو الجمسى وكأنه حريص على أن يظهر نفسه حائراً، ولكنه سرعان ما يتدارك هذه الحيرة بما يعتقد أنه لابد له من أن يتأمله مما ينقله عن رواية لحافظ إسماعيل عن حوار دار بين حافظ إسماعيل وأحمد إسماعيل وقد رواه الأول فى مذكراته، وهو حوار يدل بوضوح على أن أحمد إسماعيل كان منذ ما قبل الحرب يعرف حدود ما نفذه بالضبط حتى لو تخيل رئيس العمليات (الذى هو المشير الجمسى) غير هذا، أو أراد هو أوغيره أن يصوروا غير هذا.

ولنقرأ هذا العبارات التى لا تتضمن إلا ما يخالف استنتاج المشير الجمسى الذى أوردناه فى الفقرات السابقة، ولا تتضمن أيضاً إلا ما يرتفع بقدر أحمد إسماعيل عن كل ما صوره الجمسى أو محمد حافظ إسماعيل أو غيرهما من قدراته وحكمته.

يقول المشير الجمسى:

«.. والموضوع الثانى الذى صدمنى وأفزعنى، ما جاء فى مذكرات السيد حافظ إسماعيل (أمن مصر القومى فى عصر التحديات ص ٣٢٣) تحت عنوان «١٠ - ١٣ أكتوبر، وقفة تعبوية» النص الآتى:

«كانت قواتنا خلال المرحلة التى انتهت قد أتمت تحقيق الهدف المباشر، وكنت من خلال أحاديثى مع الفريق أول أحمد إسماعيل من قبل نشوب الحرب، أدرك أنه لا ينوى التقدم حتى الممرات الجبلية، وأن ما جاء بتعليمات القيادة العامة بأن الهدف هو احتلال المضايق.. إنما قصد به أن يستحث القيادات الصغرى خلال مرحلة بناء رءوس الكبارى على استمرار التقدم حتى الهدف المباشر».

وهنا يردف الجمسى بقوله:

«كنت أتمنى أن يكون الفريق أول أحمد إسماعيل على قيد الحياة، حتى يمكنه تفسير ما نسب إليه «أنه لم يكن ينوى التقدم حتى الممرات الجبلية»، لم أقتنع بالمبرر الذى نسب إليه «يستحث القيادات الصغرى على استمرار التقدم حتى الهدف المباشر».

«إن هناك اصطلاحات عسكرية لا خلاف عليها، على المستوى التكتيكى يكون للوحدة فى الهجوم (مهمة مباشرة - ومهمة تالية - واتجاه التقدم التالى). وعلى المستوى التعبوى/ الاستراتيجى يكون للجيش الميدانى (مهمة مباشرة - ومهمة تالية) أو مهمة مباشرة - ومهمة نهائية)».

هكذا يبدو بوضوح أن أحمد إسماعيل والشاذلى كانا فى جانب، بينما كان تفكير الجمسى وفهمه فى جانب آخر تماماً، وسيتضح هذا المعنى تماماً فيما سنتناوله فى الفقرات التالية مباشرة التى تعرض رؤية الفريق الشاذلى.



على أنه يبدو لى، بوضوح، أن تقييم المشير الجمسى لموقف المشير أحمد إسماعيل فيما يتعلق بتطوير الهجوم قد تطور مع الزمن، فقد كان حائراً فى مدى النسبة التى أسهم بها كل من الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل فى اتخاذ هذا القرار، لكنه فيما يبدو بدأ حين نشر مذكراته يكتشف أن الرئيس السادات كان هو صاحب القرار، وهو يصل فى هذا الحد إلى أن يقول فى مذكراته:

«... وأعتقد أننا دخلنا حرب أكتوبر بمفهوم واحد للقيادة العامة للقوات المسلحة، ولا أتصور أن الفريق أول أحمد إسماعيل كان يعنى أن تدمر قواتنا خط بارليف مع اقتحام القناة، وتقف القوات عند هذا الخط. لقد كنا حققنا هذا الهدف بنهاية يوم ٩

أكتوبر، فلماذا لم يقبل الرئيس السادات مقترحات وقف إطلاق النار فى ذلك الوقت أو أى يوم آخر حتى يوم ١٢ أكتوبر؟».

«لقد كان واضحاً تماماً للرئيس السادات أن الهدف النهائى من خطة الحرب هو الوصول إلى المضايق، وقد سجلها بنفسه فى مذكراته «البحث عن الذات».

«وهل من المعقول أن يكون فكر القائد العام للقوات المسلحة مختلفاً عن فكر رئيس الدولة؟».



ونأتى الآن إلى وجهة نظر الفريق الشاذلى، ويالهول أولئك الذين يدعون فى تاريخنا المعاصر بغير علم حين يجدون هذا القائد العسكرى الذى كان رئيساً للأركان فى حرب أكتوبر وهو يصرح بكل وضوح فى مذكراته بأنه لم يكن من أنصار تطوير الهجوم، وأنه كان متفقا فى الرأى فى هذه الجزئية مع كل من الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل.. ونصوص الفريق الشاذلى فى هذا الشأن واضحة وضوح الشمس لا تحتمل أى تأويل ولا تقبل الالتواء بها.. ومع هذا فإن أعداء السادات وبعض أعداء مصر وبعض أعداء أنفسهم لم يكلفوا أنفسهم عناء التثبت ولا الدقة وإذا بهم ينسبون إلى الشاذلى أنه كان من أنصار تطوير الهجوم بل تصل مقدمة إحدى طبعات مذكرات الشاذلى (وهى مقدمة لا تحمل توقيع أحد) إلى أن تقول إن النصر «الكامل» كان «ملقى» أمام السادات ولكن السادات لم يكلف نفسه جهداً فى التقاطه!!

لنقرأ مذكرات الفريق الشاذلى ولنطلع على هذه الحقيقة المذهلة فيما يتعلق بآرائه الواضحة فيما يتعلق بفكرة تطوير الهجوم، وهى الفقرات التى أشار إليها المشير الجمسى وفيما نقلناه عنه بل نقل نص إحداها، ومن أعجب العجب أن الفريق الشاذلى يتخذ فى مذكراته هذا الموقف بصراحة ووضوح ودقة بينما ظل الذين يأخذون صف الجبهة المعارضة للسادات والنظام المصرى فى ذلك الوقت

[في خارج القوات المسلحة وخارج مصر] يصورون سبب خلافه مع السادات على أنه مرتبط باعتراضه على أن الجيش المصرى لم يتقدم بسرعة إلى المضايق بعد أن حقق النجاح الساحق فى الأيام الأولى، وقد كان هذا هو جوهر سؤال محمد حسنين هيكل للمشير أحمد إسماعيل فى الحديث الذى أدلى به المشير لهيكل بعد الحرب ونشر فى الأهرام بصياغة هيكل بالطبع ، واتخذ محتواه وما أوحى به هذا الحديث من وقتها بمثابة نواة وجهة النظر التى يضغط بها على مصر وعلى رئيسها فى حملات إعلامية منظمة لاتكف عن الزعم أن مصر تقاعست أو فرطت فى التقاط نصر متاح ، وكأن الوصول إلى المضائق كان متاحاً، ولكن السادات هو الذى تأخر هو [والقائد العام] فى التقاطه، ولو أنه ترك الشاذلى لنفسه ولطموحه لالتقطه بسهولة، ووصل الأمر فى هذا الموضوع إلى حد أن مقدمة الطبعة الأولى من كتاب الشاذلى نفسه (وهى مقدمة بدون توقيع) تقول ما نصه:

« لقد كان النصر ملقى أمام أقدامه [أى أقدام السادات] وأقدام الجنود المصريين على رمال سيناء العارية، دون أن يؤذن لهم بالتقاطه. إنه [أى هذا الكتاب الذى هو مذكرات الشاذلى] يسجل الطلاق المأساوى بين بطولة الجندى، وبين خيانة القرار السياسى، ويسجل لنا كيفية التفريط بدم آلاف الشهداء الذين ذهبوا لتحرير وطنهم فاستثمر السادات دمهم ليكون شريكاً ذا حقوق شبه متساوية مع العدو الإسرائيلى فى نادى المهمات الأمريكية الخاصة ».

إلى هذا الحد كان الهجوم - ولايزال - قد وصل على السادات، ولكن ها هو الشاذلى نفسه فى مذكراته يصرح أنه لم يكن موافقاً على هذا التقدم وتطوير الهجوم، بل إن الخطة قد وضعت بطريقة مبهمة كأنها ترضى (الآخرين) ولا تلزمنا (نحن) ، وليس فى حديث الفريق الشاذلى عن هذه النقطة بالذات غموض ولا إيهام ولا مخرج للتأويل، إنما هو حديث صريح واضح .



ومن المهم إذاً أن نعيد تأمل رؤية الفريق الشاذلى المعارضة لتطوير الهجوم فى أثناء العمليات الحربية على نحو ما نقلنا رأيه فى معارضة تطوير الهجوم على مستوى الخطط ، وقد أفاض الفريق الشاذلى فى الحديث عن هذه الرؤية فى كتابه، وقد أوردنا الفقرة التى أكد فيها الشاذلى بنفسه وبألفاظه الصريحة أنه لم يكن أبداً الداعى إلى تطوير الهجوم وقد نقلناها عنه ضمن ما نقله المشير الجمسى عنه وبوسع القارئ أن يعود إليها فيما سبق.



وعلى الرغم من كل هذا فإن المشير الجمسى فى مذكراته، كما رأينا فى فقرات سابقة، يفكر فى الأمر ويكتب فيه فى مرحلة بعدية وبتحليل بعدى ويأخذ على الفريق الشاذلى قوله بأنه لم يكن من أنصار تطوير الهجوم ويهمس فى أذنه بقوله إنه مادامت الخطة قد وضعت ونوقشت ووافق عليها فقد أصبح ملتزماً بها..



نأتى بعد كل هذا إلى رأى من أهم الآراء لشخصية من أهم الشخصيات العسكرية التى قادت حرب أكتوبر، وهو رأى مدير سلاح المدرعات فى حرب أكتوبر الفريق أول كمال حسن على الذى صار بعد هذا وزيراً للدفاع (خلفا للجمسى) كما عمل رئيساً للوزراء، وزيراً للخارجية، ومديراً للمخابرات وهو يتحدث فى مذكراته «مشاوير العمر» حديثاً واضحاً ومنطقيا فيما يتعلق بهذه القضية إلى أن يصل إلى قوله:

«..... ولكن فى رأيى - وقد تجلت أمامنا الآن كل الظروف والملابسات العامة التى أحاطت بالمعركة - أن الفريق أول أحمد إسماعيل لم يكن وراء قرار الوقفة التعبوية وتأخير تطوير الهجوم حتى يوم ١٤ أكتوبر، حيث جاء قرار مواصلة

الهجوم متأخراً جداً عن موعده بعد أن حصلت إسرائيل على كل ما استهلكته فى المعركة من ذخائر ودبابات وطائرات.. إلخ، بل وحصلت على أسلحة حديثة جداً».

«لقد أصبح واضحاً أن الرئيس السادات هو الذى كان يمسك بدفة الأمور بين يديه، بدليل أنه بمجرد أن أعطى أوامره باستئناف الهجوم لتخفيف الضغط عن الجبهة السورية، قام الفريق أول أحمد إسماعيل بالاستجابة للأمر مباشرة، مما أفرغ الضفة الغربية للقناة من معظم المدرعات والتشكيلات التى كانت ترتكز عليها الجيوش الميدانية فى الشرق (وهو الأمر الذى استغلته إسرائيل بمعاونة النصائح الأمريكية لعمل الثغرة).، وهكذا تناسى الفريق أول أحمد إسماعيل كل مخاوفه عن خروج القوات المهاجمة عن مظلة حماية الصواريخ المضادة للطائرات. وبدا جليا أن حذر أحمد إسماعيل لم يكن السبب الكامل وراء الوقفة التعبوية.. ففى ذلك الوقت كان السادات هو الذى كان يخضع ليل نهار لتهديدات كيسنجر التى تصله عن طريق الزيات أو عن طريق الاتحاد السوفيتى، كما كان يخضع فى نفس الوقت للضغوط التشاؤمية التى لم يكف القادة السوفييت يوماً واحداً عن توصيلها فى إصرار إلى الرجل وتخويفه بصفة مستمرة من المحاذير التى تتهدده وتتهدد الموقف العالمى من استمراره فى القتال».



هكذا يبلور كمال حسن على رأيا فى منتهى الموضوعية وتفسيراً فى منتهى الذكاء يحيط بجوانب القضية المختلفة، وهو يستطرد إلى إيراد ما يؤيد رأيه فيقول:

«وأعتقد أنه مما يؤيدنى فى هذا الرأى، ذلك التردد المماثل الذى حدث فى الجبهة السورية وما ذكره الفريق طلاس عن وقفة يوم ٧ أكتوبر [لإدجار أوبالانس] مصرحاً أن الأمر قد صدر بالفعل بالتوقف ولكنه لم يوضح له ملابساته معتذراً بأن الوقت لم يحن بعد لكشف هذه الملابسات. وأعتقد أن حافظ الأسد قد تعرض فى سوريا لنفس الضغوط السوفييتية التى تعرض لها السادات فى مصر، مما جعل

الرجلين يكتفيان فى بادئ الأمر بنجاح قواتهما فى التغلب السريع على القوات الإسرائيلية وطردها من خط بارليف فى مصر وهضبة الجولان فى سوريا، معتقدين أن ما أحرزاه من نصر عسكرى ميدانى يكفى لتحريك القضية سياسياً. ولقد فاتهما هما الاثنان أن أمريكا لن تسمح لهما بمداومة الإمساك بهذا النصر حتى لا تنعكس آثاره على الموقف السياسى عندما تنتقل القضية إلى أيدى المفاوضين السياسيين».

«ولذلك ففى رأيى أن كل الجدل الذى دار حول الوقفة التعبوية لم يكن ليقدم أو يؤخر فى نتيجة المعركة التى كان قد تحدد مصيرها بالتدخل الأمريكى الذى ألقى بكل ثقله لترجيح كفة إسرائيل، حيث أعلن كيسنجر فى صراحة ووضوح بعد الحرب «أننا ما كنا لنسمح للسلاح السوفييتى بالمرة أن يهزم إسرائيل صديقنا التقليدى»! ويعنى ذلك أننا حتى لو كنا واصلنا الحرب بدون وقفة تعبوية أو حرصنا على عدم السماح بحدوث الثغرة، فإن الولايات المتحدة كان فى جعبتها إحداث الكثير من الثغرات ومن وسائل إجهاض أى انتصار نحرزه ضد إسرائيل، خاصة بعد أن أيقنت كيف كان الاتحاد السوفييتى يعالج الأزمة كلها فى تراخ وسلبية لعلها كانت بداية طريقه إلى الانهيار الشامل الذى أصاب كل أوصاله فيما بعد».



الآن وقد وصلت إلى نهاية هذا الباب أرى الموقف فى حاجة إلى تلخيص للآراء التى عرضناها وناقشناها والواقع أننا نجد أنفسنا أمام ذروة الدراما والمفارقة فى الموقف كله وقد صُور للناس على عكس الحقيقة، ونرى الأعذار والدوافع التى دفعت كل صاحب موقف إلى أن تصوغ له الشائعات فى نظر الناس موقفاً آخر:

- فالسادات وأحمد إسماعيل من حرصهما على اشتراك سوريا يعرضان عليها (وعلى العرب) الخطط بعد تطويرها بما يتوافق مع أهداف كبيرة، وقد شرح اللواء جمال حماد ببراعة شديدة ومنطق أخاذ صواب هذه الفكرة فى كتابه «المعارك الحربية على الجبهة المصرية» بما لا يترك مجالاً لأحد للحديث بعد شرحه المستفيض.

- بينما الشاذلى لا يريد أن يشرك نفسه فى مسئولية سياسية كبرى تعجز عنها القوات المسلحة التى يتولى رئاسة أركانها حتى بعد أن وافق على ما وافق عليه من أجل تحقيق الهدف السياسى.

- والجمسى - من ناحية ثالثة - طموح إلى تطوير الهجوم ولكنه من واقع تحليل بعدى حريص أن يصور نفسه ملتزماً مرة بعد أخرى، فهو ملتزم بأن يقول إن الخطة نصت على هذا، وملتزم بأن يطيع رؤساءه حتى لو لم يفهم مبرراتهم أو لم يعرفها، بل إنه يدعو زميله الشاذلى - بعد فوات الأوان - إلى الالتزام، مع أنه - أى الجمسى - ينفق من مذكراته صفحات عديدة للحديث عن أمانيه التى لم تتحقق فى تطوير الهجوم.

- وبعض إخواننا العرب - من ناحية رابعة - للأسف الشديد ينخدعون فى تصورات لا تمت للحقيقة بصلة لأنهم لم يكتووا بما اكتوينا به، ويفضلون كالعهد بنا الصورة الوردية على الصورة الواقعية، ونحن لم نكن حتى ذلك الوقت نملك شجاعة المواجهة الكفيلة بإطلاعهم على كل شىء، لأن الإطلاع نفسه كان يضر بخططنا، وهم - مع هذا كله - فى رأيى غير مخطئين، فنحن فى واقع الأمر الذين قدناهم أو دفعناهم بفيروسنا الإعلامى إلى هذا الحماس كله.

- وفى مقابل هذا كله فبوسع القارىء أن يتصور الحقائق من زاوية عسكرية حين يقرأ أفكار قادة حرب أكتوبر بمن فيهم الرئيس محمد حسنى مبارك، وبوسع القارىء أيضاً أن يدرك الصورة على نطاق واسع من خلال الرؤية التى يقدمها رجل عسكرية ومخابرات وسياسة هو كمال حسن على.

- وبعد هذا كله فإن التطورات العالمية الجديدة منذ سقوط الاتحاد السوفيتى وحتى سقوط بغداد كفيلة بأن تجعلنا نتفهم حقيقة الأمور بعيداً عن الأمانى من ناحية والأحقاد من ناحية ثانية، والأيدولوجيات من ناحية ثالثة.

10

الوصول إلى المضايق؟

لأسباب كثيرة لا تخفى معرفتها على أحد فإن النصر العظيم الذى حققته القوات المسلحة المصرية فى ١٩٧٣ لم يكن مريحاً لكثيرين، ومن حسن الحظ أن صناع هذا النصر كانوا واعين تماماً لهذه الحقيقة فى أعقاب تحقيقهم له، ومنذ الساعات الأولى للعبور تطوع عرب كثيرون من مستويات رفيعة للتبشير بالهزيمة وللتحذير منها فلما لم تحدث الهزيمة الكارثة بدأوا يبحثون عن ثغرات يهاجمون منها النصر الوحيد.

والحقيقة المذهلة أن «الثغرة» التى طال الحديث عنها للانتقاص من قيمة النصر المصرى العظيم لم تكن تعبيراً عن حقيقة عسكرية بقدر ما كانت تعبيراً عن حاجة نفسية لدى بعض الأقلام والأصوات العربية فى محاولة يائسة لتبرير سلوكها قبل الحرب فى التحذير من عواقب إقدامنا على شن حرب أو هجوم.. وقد بلغ الأمر فى هذا التحذير إلى الارتفاع بنسبة ضحايانا إلى حوالى ٧٠٪ فلما تم انجاز عبور بنسبة لا تتعدى ٠,٠٣ ٪ من الخسائر فى الأفراد كان لابد لهذه الأصوات المبشرة بالهزيمة

من محاولات يائسة لسرقة الفرح.. ومع أن هذه المحاولات قد باءت بالفشل فإنها أثرت على عقلية كثيرين من المكتبيين العرب الذى جعلتهم ظروف كادرهم الوظيفى ووظائفهم الكبيرة أسرى الورق والتقارير دون أن يحسوا بلهيب المعركة أو بنشوة النصر.

ويهمنى قبل أن أبدأ فى مناقشة آراء السياسين المكتبيين أن أنقل للقارئ فقرة كاشفة كتبها الفريق أول كمال حسن على فى مذكراته «مشاوير العمر» مستعرضا فيها مدى الافتراء فى بعض الادعاءات التى لقيت بعض الانتشار.

يقول الفريق أول كمال حسن على:

«هناك مَنْ يدعى أن خطة حرب أكتوبر كانت جاهزة من قبل أن يتولى السادات الحكم وأنه لم يكن لعهده فضل فى التخطيط للمعركة أو التجهيز والإعداد لها».

«وللحق أقول إنه حتى آخر يوم فى حياة عبدالناصر، لم يكن لدينا سوى خطة دفاعية تتحول إلى الهجوم المضاد ومطاردة العدو فى حالة بدئه هو بالهجوم. هذا بالإضافة إلى خطط الاستنزاف التى كانت توضع وفقاً لمقتضيات الموقف والمتوافر من السلاح، ويرجع ذلك إلى سبب بسيط هو أن القوات المسلحة لم تستكمل تسليحها وإعدادها إلا بعد عام ١٩٧٠ الذى توفى فيه عبدالناصر».

«أما خطة الهجوم التى نفذت يوم ٦ أكتوبر بأعمال الخداع المبدعة والابتكارات الهندسية للعبور وإزاحة الساتر الرملى بمضخات المياه والتخطيط المحكم لمراحل العبور والإعداد الجيد لها، فالحقيقة أنها تمت كلها وبهذه الروح العالية الوثابة التى بلغت ذروة تأججها فى عهد السادات نتيجة لجو الحماسة الذى غمر الرجال فى هذا العهد، فكان أن اعتصروا كل ما فى جعبتهم من ذكاء وتعاون وإخلاص وكان أن برزت كفاءات من القادة والرجال يستطيع أن يضعهم التاريخ فى سجل القادة العالميين».

«هناك من يدعى أن السادات خدع الرئيس حافظ الأسد عندما اتفق معه قبل الحرب أنه لن يوقف القتال حتى تصل القوات المصرية إلى خط المضايق (الخطة جرانيت ٢) فإذا به ينقض عهده ويأمر بتوقف القوات بعد عبور القناة مباشرة، وعدم السماح لها بتطوير الهجوم إلى المضايق (كالخطة جرانيت ١) والتى لم تكن تقضى بهذا التطوير، الأمر الذى جعل القوات الإسرائيلية تركز هجومها على الجبهة السورية بكل قواتها وتمكنت من هزيمتها. باختصار إن هذا الإدعاء يريد أن يقول إن السادات ضلل الأسد ليشاركه المعركة ثم خذله بعد ذلك».

«وقبل أن أفند هذا الادعاء من واقع الأحداث أريد أن أوجه النظر إلى أن مثل هذه الافتراءات لم يقصد مصطنعوها إلى طعن السادات وحده، وإنما قصدوا أصلا إلى طعن مصر وإفقاد البلاد العربية ثقتهم بها وببعضهم البعض».

«ولقد سبق أن بينت فى فصل سابق مدى الحذر الزائد الذى تملّك السادات فى بادئ الأمر من نقل القوات المدرعة إلى شرق القناة نتيجة لنقص الإمكانات فى أسلحة الدفاع الجوى. فلما بلغته استنجادات الرئيس الأسد لتخفيف الضغط على الجبهة السورية لم يتوان الرجل: بل هو الذى أمر بنفسه بدفع القوات المدرعة وتطوير الهجوم مضحيا بالكثير من متطلبات الاتزان الإستراتيجى على الجبهة المصرية، الأمر الذى أدّى إلى كل هذه الخسائر الفادحة التى أصابت القوّات يوم تطوير الهجوم ثم أدّى إلى حدوث الثغرة بعد ذلك».

«ولو كان السادات فى نيته خذل حليفه السورى كما يدعى البعض، لأبقى الوضع متماسكاً على جبهة القناة دون تطوير للهجوم، موفراً كل الجهود والتضحيات حتى لحظة وقف إطلاق النار- وهو عكس ما حدث.. أما ما حدث من جدل حول تأخير موعد تطوير الهجوم فلا ينفى أن التطوير قد حدث بالفعل وإن لم يلاق النجاح بسبب تدخل أمريكا بالإمداد والتخطيط والاستطلاع».

ونعود إلى من نسميهم «المكتبيين العرب» ،ونكتفى من هؤلاء ـ على الرغم من كثرتهم ـ برجل مسئول أتاح له موقعه أن يسأل ويستفسر وأن يسجل هذه الأسئلة والأجوبة على نحو جيد وأمين.. وسنقرأ النصوص التى كتبها متأملين بقدر من العقل والتفكير العلمى مدى ما يحتويه حديثه من أفكار إيجابية وما يحتويه أيضاً من مغالطات وقع فيها بحسن نية فى الغالب، وبقصور فى الإدراك فى بعض الأحيان ،وبفساد فى الاستدلال والتسبيب فى أحيان أخرى. وقد آثرت أن يكون هذا الرجل بالذات محلا للمناقشة فى هذا الباب لأنه كان صاحب فضل على هذا الوطن حين تصدى بذكاء لمحاولة إبعاد أحمد إسماعيل عن القوات المسلحة إلى السلك الدبلوماسي، وهكذا فإن فضله فى هذه الناحية لا ينكر.

كذلك آثرت أن أختار نصوص محمود رياض بالذات لأنها تخلو إلى حد كبير من الديماجوجية والمغالطات القادرة على تزييف الحقائق، ولأن صاحبها كان عسكريا سابقا يعرف معنى الكلمات التى يوردها فى سياق حديثه.



حفلت مذكرات محمود رياض بروايات جيدة عن حواراته مع القادة العسكريين، ومنهم الفريق الشاذلى، حول التطورات التكتيكية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، ومن أبرز حواراته فى هذا العدد حواره مع الفريق الشاذلى، وقد كان الفريق سعد الشاذلى، بحكم منصبه كرئيس لأركان القوات المسلحة المصرية، أميناً عاماً مساعداً للجامعة العربية للشئون العسكرية، وسوف نفاجأ ـ كما فوجئنا من قبل على عكس المتوقع ـ بأن رؤية رئيس الأركان (الشاذلى) لم تكن تختلف عن رؤية القائد العام (أحمد إسماعيل) :

يقول محمود رياض:

«... بمجرد عودتى إلى القاهرة، عقب اختتام مؤتمر القمة بالجزائر لأعماله، دعوت الفريق سعد الشاذلى رئيس أركان حرب الجيش المصرى للاجتماع معى فى

٢ ديسمبر، وكان يتولى فى نفس الوقت منصب الأمين العام المساعد للجامعة العربية للشئون العسكرية، وكان الهدف من الاجتماع هو متابعة القرارات العسكرية التى تم اتخاذها فى اجتماع القمة».

«وفى الاجتماع تطرق الحديث إلى الطريقة التى أديرت بها معركة أكتوبر على الجبهة المصرية، والتطورات التى انتهت إليها. وكان من الطبيعى أن أسأل الشاذلى عن السبب فى عدم تقدم القوات المصرية إلى المضايق بسيناء، خصوصاً بعد نجاحها الرائع فى تحقيق عملية عبور قناة السويس».

«وقد أجابنى الشاذلى بأنه من الناحية المبدئية فإن الهدف الذى تم تحديده للقوات المسلحة هو فقط عبور قناة السويس، لأن التقدم إلى المضايق كان من المعتقد أنه يفوق الإمكانات العسكرية المتوافرة».

عند هذا الحد يستطرد محمود رياض إلى مناقشات نظرية من قبيل: «حتى لو كان هذا الافتراض قائما» كأنه غير مصدق لما يقوله رئيس الأركان المصرى ولكنه مع هذا يمضى معه إلى نهاية الخط ولنقرأ هذا الاستطراد العجيب فى مذكرات محمود رياض:

«وقد ناقشته فى هذه النقطة الأخيرة، على أساس أنه حتى لو كان هذا الافتراض قائماً ، فإنه بمجرد أن بدأ القتال ظهرت خلال الأيام الأولى عوامل جديدة تحتم توجيه القوات المصرية على الفور إلى احتلال مضايق سيناء. ومن تلك العوامل مثلاً عدم وجود قوات إسرائيلية كبيرة فى جبهة سيناء، والمفاجأة الكاملة التى أصيبت بها القوات الإسرائيلية الموجودة، وأخيراً أسرعت إسرائيل بحشد قواتها الضاربة لصد الهجوم السورى فى الجولان. لقد كانت إسرائيل تعطى أولوية عسكرية للجبهة السورية، لأن نجاح سوريا فى تحرير الجولان من الاحتلال الإسرائيلى يجعلها فى مركز عسكرى يمكنها من تهديد شمال إسرائيل بما فيه من

مستعمرات ومدن وكثافة سكانية كبيرة. وبالإضافة إلى ذلك فقد ثبت خلال الأيام الأولى من القتال على الجبهة المصرية كفاءة الأسلحة المصرية المضادة للطائرات، والتى تسببت فى إلحاق خسائر كبيرة فى الطيران الإسرائيلى، علاوة على المفاجأة باستخدام الصواريخ المضادة للدبابات بواسطة القوات المصرية الأمامية، مما تسبب فى تدمير مئتين وخمسين دبابة إسرائيلية خلال ثمانٍ وأربعين ساعة».



على هذا النحو المتدفق يواجه محمود رياض رئيس الأركان المصرى وكأنما كانت إسرائيل قد انتهت تماماً وكأنها لم تكن متترسة بما نعرف وبما لا نعرف.. وكأنما كانت سوريا قد نجحت فى تحرير الجولان... إلخ.

ومع هذا فإن الشاذلى، الذى لا يطيق صبرا فى العادة، قد تأنى وهو يرد على محمود رياض ويجابهه بأصعب حقيقة فى الموضوع، وهى أننا عانينا عندما تقدمنا بدباباتنا حتى إننا فقدنا مائتين وخمسين دبابة!! ولكن محمود رياض بحكم السن يرى نفسه فى موقع الأستاذية من الشاذلى ومن غيره ويواصل دروسه النظرية على نحو ما نرى من مذكراته التى يقول فيها:

«وقد أجابنى الفريق الشاذلى بأن ما حدث لإسرائيل فى الأيام الأولى من القتال قد جرى لنا عندما تقدمنا بدباباتنا يوم ١٤ أكتوبر، فقدنا مائتين وخمسين دبابة وتعاملت معها إسرائيل بنفس الأسلوب الذى استخدمناه نحن، أى باستخدام الصواريخ المضادة للدبابات».

«وسألت الشاذلى: وكيف نقع من جانبنا فى هذا الخطأ القاتل حيث كان المفروض أن يتغير تكتيك المعركة، حتى لا نعرض دباباتنا لتدمير إسرائيلى مؤكد؟ وحتى لو تجاوزنا عن ذلك، فكيف فشلنا إلى هذا الحد فى معالجة الثغرة الإسرائيلية فى الدفرسوار؟».

«وأجاب الشاذلى معلقاً بأن القيادة المصرية كانت مركزية إلى أقصى حد، مما أدى إلى عدم معرفة حقيقة الموقف فى الساعات الأولى حتى يمكن التصرف بسرعة على ضوء المعلومات التى ترد من الجبهة. أما بالنسبة للثغرة الإسرائيلية فإن القيادة المصرية لم تتبين الحقيقة إلا بعد ضياع وقت طويل تمكنت فيه إسرائيل من إقامة رأس كوبرى وتثبيت أقدامها فى غرب قناة السويس».

«وأضاف الشاذلى: إنه لم تكن هناك قوات احتياطية كافية لعلاج الموقف، فبعد أن أرسلت القيادة الاحتياطى الأساسى إلى سيناء، لم يبق سوى لواء مدرع واحد ولم يكن ليستطيع وحده مواجهة الاختراق الإسرائيلى. ثم ذكر أن مصر فقدت حوالى مائة وعشرين طائرة من جميع الأنواع ولم تستعض بعد كل خسائرها فى الطيران، أما بالنسبة للدبابات فقد تلقت مصر ما يكفى لتشكيل ستة ألوية مدرعة، وأن ما يلزم القوات المصرية بشكل عاجل، بالإضافة إلى تعويض خسائر الطيران، فهو الصواريخ المضادة للدبابات، وكذلك الصواريخ سام - ٦ وسام - ٧ المضادة للطائرات».



نتوقف هنا لنشير إلى أن هذا الحوار قد دار حسب رواية محمود رياض فى ٢ ديسمبر أى بعد أكثر من خمسين يوماً من اندلاع حرب أكتوبر، ومع هذا الوضوح الشديد الذى قدم به الفريق سعد الشاذلى المعلومات لمحمود رياض، ومع تنبيهه له إلى حقيقة أن مصر لم تستعوض بعد خسائرها فى الطائرات والدفاع الجوى والدفاع المضاد للدبابات، وإلى أن هذه الأسلحة كانت لازمة للقضاء على الجيش الإسرائيلى فى الثغرة.. مع هذا كله فإن محمود رياض مستمتع بأن يمارس مهام «الأمين العام» ويستمع من «الأمين العام المساعد» إلى حقيقة الموقف الحالى على نحو ما نرى:

يقول محمود رياض:

«وأضاف الشاذلى أنه يعتقد بإمكانية القضاء على الجيب الإسرائيلى بسهولة إذا توافرت تلك الأسلحة، وإذا أصبحت القيادة أقل مركزية».

«ثم بدأ الفريق الشاذلى يشرح لى الموقف الحالى للجيب الإسرائيلى، فذكر أنه يتشكل الآن من ثلاثة ألوية مدرعة ولواءين ميكانيكيين، وإن أقصى نقطة وصلت إليها القوات الإسرائيلية غرب القناة هى الكيلو ١٠١ على طريق السويس/ القاهرة، وهى تبعد حوالى ٣٥ كيلومتراً من السويس، والمتوسط العام لعرض الثغرة الإسرائيلية يبلغ حوالى عشرين كيلومترا».

«وعندئذٍ أبلغت الفريق الشاذلى بأن المطلوب الآن هو أن تعد مصر قائمة بطلباتها من الأسلحة للاتصال بشأنها مع الدول العربية، خصوصاً السعودية والكويت ودولة الإمارات التى أبدت استعدادها لشراء احتياجات مصر من الأسلحة، كما أن الرئيس هوارى بومدين تطوع بشراء المزيد من الأسلحة لمصر وسوريا إذا طلبت أى منهما ذلك».



على هذا النحو يمضى هذا الاستجواب الذى تطوع به محمود رياض وجاراه فيه أحد قادة حرب اكتوبر المجيدة ، وهو واثق من أنه يستطيع أن يجيب إجابات مشرفة حتى على ما يعتقده صاحب الاسئلة أنه يمثل أخطاء أو أداء أقل مما ينبغى أن يكون !

ولا يسعنى أن أترك هذه الفقرة دون أن أشيد بسعة صدر الفريق الشاذلى وثقته فى نفسه وفى القوات المسلحة التى ينتسب إليها ! .



وبعد صفحات معدودة يذكر محمود رياض حواره حول نفس النقطة مع قائد

عسكرى متميز كان قبل هذه الحرب قد ابتعد عن موقعه فى القوات المسلحة المصرية وهو الفريق طلعت حسن على، [وهو شقيق كمال حسن على نفسه مدير المدرعات فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ومدير المخابرات ووزير الدفاع بعد ذلك]، ويأتى حديث رياض عن هذا الحوار مع (زميله) الفريق طلعت حسن علىّ على النحو الذى يقدم له برواية فكرة أوحى له بها السفير السوفيتى:

«... وعندما تبادلنا الحديث عن حرب أكتوبر ذكر السفير (يقصد السفير السوفيتى) أنه بمجرد أن بدأت الحرب وقبلها حتى بوقت طويل، كان من رأى الخبراء السوفييت أن الهدف المصرى يجب أن يكون واضحاً من البداية فى ضرورة التقدم إلى مضايق سيناء، وأن مصر كانت تملك الإمكانات العسكرية الكفيلة بذلك».

هكذا عدنا إلى اكتشاف سر أو جوهر التفكير الذى فرض نفسه على المسئولين العرب الذين لم يشاركوا فى تحقيق النصر، وهو تفكير سوفيتى نظرى يتعارض مع ما صارح به القادة السوفيت أنفسهم القيادة المصرية من ضرورة التخلى عن فكرة شن حرب لأنها ستكون كارثة، ومع هذا فإن محمود رياض، وغيره، يستعذب ترديد أفكار السفير السوفيتى وإعطائها قيمة أعلى من قيمة العسكريين المصريين الأفذاذ الذين حققوا العبور والنصر..

وهكذا أصبح محمود رياض كما نرى أسير هذه الفكرة الخاطئة، وهو يقول فى هذا المعنى:

«والواقع أن تلك النقطة كانت نقطة جوهرية للغاية بحيث إننى لم أتوقف عن الاستفسار بشأنها فتحدثت يوم ١٠ ديسمبر إلى الفريق طلعت حسن، وكان مشرفاً على القيادة الموحدة للجامعة العربية، وذكر لى أنه من وجهة نظره كان يجب أن تتقدم القوات المصرية إلى مضايق سيناء بمجرد عبورها لقناة السويس خاصة بعد

أن تبين أن معظم أطقم الدبابات الإسرائيلية كانوا فى إجازة، وتبين أيضاً أن الخسائر المصرية فى العبور لم تتجاوز ٢٨٠ فرداً، أى أنه لم تكن هناك أية مقاومة إسرائيلية تذكر، وأن المفاجأة المصرية كانت كاملة. وأكد الفريق طلعت حسن أن المفاجأة المصرية كانت فى الواقع مفاجأة سياسية، لأن التحركات العسكرية المصرية كان من المستحيل إخفاؤها بالكامل، فقد كانت الطرق إلى الجبهة مكتظة بالدبابات والعربات المدرعة قبل ٦ أكتوبر بأيام، على أن إسرائيل رفضت أن تصدق أن مصر يمكن أن تتجه إلى الحرب. وباعتباره من خبراء المدرعات، فقد ذكر الفريق طلعت حسن أن المدرعات المصرية قد تم استخدامها بطريقة خاطئة عسكرياً يوم ١٤ أكتوبر، وهو الأمر الذى تسبب فى الخسائر الكبيرة التى لحقت بها. وقد اتبعت إسرائيل فى تدمير الدبابات المصرية نفس الأسلوب الذى كانت مصر قد استخدمته قبل ستة أيام لتدمير الدبابات الإسرائيلية، أى بواسطة الصواريخ المضادة للدبابات. ولذلك كان من الواجب أن يتغير الأسلوب العسكرى المصرى وألا يتم دفع الدبابات المصرية فى المعركة دون غطاء كافٍ من المدفعية والطيران، والتأكد من تدمير الصواريخ الإسرائيلية المضادة للدبابات».



هكذا يقول طلعت حسن على وينقل عنه محمود رياض دون أن يتأكد أحدهما مما إذا كان هناك غطاء كاف من المدفعية والطيران وإذا كان من الممكن تدمير الصواريخ الإسرائيلية المضادة للدبابات أم لا.. فإذا عرف هؤلاء الحقيقة وهى أن امكاناتنا لم تكن تسمح بهذا لم يعودوا إلى الصواب ويقروا بما انتبه إليه أحمد إسماعيل والشاذلى من خطورة تطوير الهجوم.. وإنما هم يهربون إلى فكرة جديدة وهى فكرة ضرورة وجود قيادة أمامية... وكأن المسألة كانت بحاجة إلى قيادات!! بينما كانت القيادات الموجودة كعادتنا أكثر مما هو مطلوب!!.

ولنقرأ ما يواصل به محمود رياض حديثه:

«ومثل كثيرين غيره، فإن الفريق طلعت حسن كان من رأيه ضرورة وجود قيادة أمامية للقوات المصرية المحاربة فى الجبهة، وكان هذا كفيلاً بتلافى كل الأخطاء التى وقعت فيها القيادة المركزية فى القاهرة. وأضاف قائلاً: إن أكبر خطأ وقعت فيه القيادة العسكرية هو فى سماحها بعبور الاحتياطى المصرى إلى شرق القناة، وهو السبب المباشر الذى أدى إلى نجاح الإسرائيليين فى إحداث الثغرة».



ومن المدهش الذى لم يطلع عليه محمود رياض وطلعت حسن على أن الفريق عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث قد نشر مذكراته بعد وفاتهما وصرح فيها بكل وضوح أنه هو وقائد الجيش الثانى صرحا بكل وضوح وبكل ما أمكنهما من ألفاظ واضحة وأرقام وتحليلات ... صرحا للقائد العام عن توقعهما لعجز الجيشين عن تطوير الهجوم وعن افتقادهما للإمكانات.. فإذا كانت هذه هى آراء القيادة الأمامية وإذا كانت هذه هى الحقيقة فكيف يمكن لنا قبول مثل هذه الآراء التى يسهل ورودها على قلم محمود رياض؟

لنقرأ هذه الفقرة من مذكرات عبد المنعم واصل:

«وبناءً على أوضاع الجيش والعدو وأعمال العدو المنتظرة، وبعد فشل محاولاتى أنا واللواء سعد مأمون قائد الجيش الثانى؛ لإقناع الوزير بتأجيل التطوير لحين استقرار موقف القوات فى رأس كوبرى الجيش، ونقل عناصر الدفاع الجوى إلى الشرق وإرهاق العدو بسلسلة من عمليات الصد القوية قبل البدء فى التطوير الذى كنا نفضل أن يتم بعد استطلاع دقيق للمحاور وتصوير الدفاعات الإسرائيلية عن الممرات مع توجيه ضربات جوية قوية للقوات التى تدافع عن الممرات، وهى إجراءات لم يتم تنفيذ معظمها، اتخذت قرارى لتطوير الهجوم فى اتجاه الممرات الجبلية فى قطاع الجيش الثالث».



ويتحدث الفريق عبد المنعم واصل بتفصيل أكثر عن حقيقة الموقف حين تم تطوير الهجوم فيقول:

«وكان الهدف الاستراتيجى من عمليات التطوير شرقاً يومى ١٤ ، ١٥ أكتوبر على طول المواجهة فى نطاق مسرح العمليات للجيشين هو تخفيف أعمال قتال العدو وضغطه على الجبهة السورية، وجذب جهده نحو الجبهة المصرية، وعندما تأكد للقيادة العامة أن العدو قد حول مجهوده الجوى والبرى فعلاً نحو مصر وسيناء - وهو ما أدى إلى فشل التطوير أوقفت القوات القائمة بالتطوير، وقامت بتعزيز رءوس الكبارى شرق القناة على أن يتم التطوير فى اتجاه الممرات الجبلية فيما بعد وطبقاً للتخطيط المسبق، وكان يفضل أن يعاد النظر فى قرار التطوير بعد تغير الموقف على الجبهة السورية بنهاية يوم ١٣ أكتوبر، وكان من الأفضل على القيادة العامة ألا تفرض أسلوباً محدداً على الجيوش الميدانية للعمل المطلوب؛ لتخفيف الضغط على سوريا، وكان يجب أن تعطى المهمة لقادة الجيوش، ثم يتم معرفة قراراتهم فى تنفيذها، وبالتالى يتم دعمهم أو تعديل قراراتهم؛ لتحقيق الهدف المطلوب».

ويعاود الفريق عبدالمنعم واصل الحديث عن هذه الفكرة بطريقة أخرى فيقول:

....

«إن ما حققته قواتنا من انتصارات كانت نتيجة للدراسة والتخطيط المحسوب والتخطيط الجيد والمسبق للعمليات، إلا أن الموقف الخطير للقوات السورية - التى كانت تشكل الخطر الداهم على العمق القريب لإسرائيل مما أجبر العدو على نقل جهودة الرئيسية تجاهها مع تثبيت الجبهة المصرية - هذا الموقف أجبر القيادة السياسية والقيادة العامة على اتخاذ قرارها بالتطوير واستمرار العمل الهجومى للقوات المصرية دون الإعداد الكافى لهذه العملية، وقد نتج عن ذلك أن أصبحت القوات القائمة بالتطوير خارج نطاق الحماية بالصواريخ المضادة للطائرات التى

كانت لا تزال فى مواقعها غرب القناة، فتعرضت بالتالى لهجمات العدو الجوية المركزة دون حماية من قواتنا الجوية أو عناصر الدفاع الجوى، مما أدى إلى فشل هجماتها، وتكبدها خسائر كبيرة».

....

«وضح افتقار قواتنا لعناصر الاستطلاع خفيفة الحركة وضعف المعلومات المسبقة المؤيدة بالصور الجوية لحجم وأوضاع العدو بعد ارتداده واتخاذه لخطوط دفاعية جديدة فى العمق، فلقد استعان اللواء ٣ مدرع أثناء قيامه بالهجوم والتطوير شرقاً بأدلاء من العرب يفتقرون للخبرة فى تحديد القوات المتحاربة وأنواع وأعيرة الأسلحة المعادية واتجاهات عملها المحتملة، إذ كان الغرض من استخدامهم فقط هو استغلال ما لديهم من معلومات عن طبيعة الأرض فى اتجاه الممرات الجبلية، وحتى هذه المعلومات لم تكن بالقدر وبالكفاءة المطلوبة، ونتج عن ذلك دخول اللواء ٣ مدرع فى مصيدة معادية من الستائر المضادة للدبابات».

....

«إن تكليف اللواء ١١ مشاة ميكانيكى بالاشتراك فى عمليات التطوير شرقاً فى اتجاه محور الجدى بعد قتاله المرير والمستمر لمدة ثمانية أيام متصلة، وتعرضه للخسائر فى أفراده ومعداته وأسلحته، علاوة على إجهاد قواته التى لا تزال تشترك فى تأمين رأس كوبرى الفرقة ٧ مشاة، نتج عنه خلق ثغرة تمكن العدو خلالها من توجيه هجمات مضادة متتالية بين كلّ من اللواء ١١ مشاة ميكانيكى واللواء ١٢ مشاة فى اليمين واللواء ٨ مشاة فى اليسار، ورغم نجاح قواتنا فى صد هذه الهجمات وإجبار العدو على الارتداد إلا أنها تكبدت خسائر فى سبيل ذلك كان من الممكن تجنبها فيما لو تم دفع قوات جديدة من الغرب، خاصة وأن هذا اللواء لم يحقق نجاحاً فى تقدمه أكبر من ٢كم شرقاً».

«لم تكن القوات المكلفة بالتطوير بالتشكيل والحجم الكافيين لتنفيذ مهام القتال المطلوبة مما أخل بمبدأ الحشد المطلوب للتفوق على العدو، فقد افتقرت هذه القوات لعناصر الصواريخ المضادة للطائرات والمدفعية ذاتية الحركة ولعناصر الاستطلاع المستمرة خلف خطوط العدو، علاوة على الحماية الجوية لتأمين تقدمها علما بأن وحدات المدفعية المرافقة كانت مجرورة، ولايتفق استخدامها مع طبيعة الأرض خاصة على محور متلا، ونتج عن ذلك تورطها فى مناطق الكثبان الرملية وغرزها فتعذر قيامها بتقديم المعاونة النيرانية السريعة أو المناورة بها».

....

«وتجدر الإشارة هنا إلى سياسة الدفاع التى اتخذها العدو بعد سقوط خط بارليف، فقد حصن المداخل الغربية للممرات الجبلية بستائر الأسلحة المضادة للدبابات والقوات المدرعة، باعتبارها مناطق حيوية ترتكز أجنابها على مناطق جبلية وعرة يصعب المناورة حولها، ومما لا شك فيه أن فشل القوات الإسرائيلية فى الاحتفاظ بدفاعات شرق القناة يبين لنا أهمية استمرار العمل الهجومى والسرعة فى دفع وحدات خفيفة الحركة وعناصر إبرار جوى أو مظلات؛ للاستيلاء على المداخل الغربية للممرات الجبلية؛ لحرمان العدو من السيطرة عليها، وبالتالى لتسهيل تقدم قواتنا شرقاً فيما بعد».



ها نحن أولاء بعد هذا النص الكاشف الذى كتبه القائد الميدانى قائد الجيش الثالث نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نسأل الفريق طلعت حسن على ومحمود رياض نفسه ، وماذا كانت تفعل القوات المصرية حين تتقدم إلى المضايق بينما الإسرائيليون فى إجازة عندما يعود هؤلاء من إجازتهم ، وتصبح قواتنا فى

الصحراء عرضة للتفوق الجوى الحاسم من فوقها، وعرضة لمصاعب لاتنتهى من حولها ، ومع آننا نشيد بهذا التعبير الجميل الذى وصف به طلعت حسن علىّ المفاجأة فى الحرب بأنها كانت مفاجأة سياسية ، وتحليله لهذا الوصف تحليل منطقى ومتميز فأننا فى ذات الوقت لا نأخذ حديثه عن قيادة أمامية مأخذ الأمور المسلم بها ، ونحن نعرف من طبائع المصريين المحدثين ما يجعلنا نتشكك تماماً فى كل تعدد للقيادات ، ولو أن الفريق طلعت حسن على نفسه على قيد الحياة لا ستشهدت له بخبرته هو فى اليمن ، وقد أشاد الفريق صلاح الحديدى فى مذكراته عن حرب اليمن بما تحقق على يدى طلعت حسن على فى اليمن بسبب توحد كل المسئوليات وتجمعها فى يديه بحيث أصبح فى ذلك الوقت مشابها للحاكم العسكرى البريطانى فى الهند ، وقد اجتمعت له القيادة السياسية والعسكرية معاً فاستطاع أن ينقذ قواتنا ووجودنا فى اليمن من مضاعفات أسوأ كنا نمضى فى طريقها دون توقف .



هكذا يبدو لنا الآن حديث محمود رياض عن هذه الجزئيات وعن تصوراته عن مجرى الحرب فى مصر وكأنه ترك صبيانه أو مساعديه يديرونها فى مصر بينما هو مشغول فى الأمم المتحدة فى نيويورك ولا ندرى بماذا كان مشغولاً ؟ ولكنه يجيب على سؤالنا هذا بما أجاب عن أسئلة وزراء الخارجية العرب الذين كانوا سعداء بالطبع بالنصر وظنوه على معرفة بما يدور فإذا به لا يزال عند الأفكار القديمة التى كان صديقه وزميله الفريق محمد فوزى يرويها له فى ١٩٦٨ وكأن خمس سنوات لم تمر ما بين ١٩٦٨ و١٩٧٣ أو فلنقل إنه لجأ إلى الأحلام القديمة يحاول أن يبنى بها مجداً فاتت فرصته فى مواجهة مجد ضخم وعظيم ولد على أرض الواقع:

ولنقرأ هذا الذى يرويه محمود رياض:

«...وفى صباح اليوم التالى اجتمعت مع الدكتور الزيات الذى أبلغنى نجاح قواتنا فى عبور القناة وتحطيم خط بارليف، وأنها تسيطر الآن على الضفة الشرقية لسيناء وتتقدم منها إلى داخل سيناء. وبعد قليل جاء لزيارتى عدد من وزراء الخارجية العرب الذين كانوا فى نيويورك لحضور دورة الجمعية العامة، وسألنى بعضهم عن الخطوة التالية بعد هذا النجاح المذهل فى عبور القناة وتحطيم خط بارليف، فأجبتهم بكل ثقة بأن قواتنا فى طريقها لاحتلال مضايق سيناء. وعندما قلت ذلك كانت ماثلة فى ذهنى طول الوقت الخطة ٢٠٠ التى وضعت خطوطها العريضة منذ سنة ١٩٦٨ وتقوم على أساس أن العبور فى حد ذاته ليس هدفاً، وأن القناة هى مجرد مانع مائى يجب اجتيازه لتحقيق الهدف الأول وهو احتلال مضايق سيناء، وهى الخطة التى كان قد أشرف على وضعها الفريق أول محمد فوزى [لا يذكر لنا محمود رياض لماذا لم يتم تنفيذ هذه الخطة فى ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ و١٩٧٠] ولكنه يواصل الكلام النظرى الجميل والسهل ويقول:

«ثم تذكرت ما سبق وأطلعنى عليه الفريق صادق الذى تولى وزارة الحربية عام ١٩٧١ بأن بعض القادة قد اقترح توقف القوات المصرية بعد العبور مباشرة وأنه رفض تلك الفكرة تماماً لأنها لا تحقق هدفاً سياسياً كما أنها من الناحية العسكرية عملية غير سليمة وتعرض قواتنا لهجمات مضادة ناجحة من القوات الإسرائيلية. ولذلك فإننى لم أتصور إطلاقاً أن يقوم المشير أحمد إسماعيل، الذى عينه الرئيس السادات وزيراً للحربية خلفاً لصادق فى أكتوبر ١٩٧٢ بإجراء تغيير جذرى فى الخطة التى تم تحديد أهدافها وخطوطها العريضة منذ ١٩٦٨ والتى كان يجرى تطويرها على ضوء الأسلحة التى تصل إلينا وكان يتم تدريب الجيش مرتين فى

السنة، منذ عام ١٩٦٨ فى شكل مناورات عامة للقوات المسلحة بالإضافة إلى المناورات التى تتم على مستوى القادة وبدون جنود، وقد أصبح لدى الجيش فى عام ١٩٧٣ قدرات قتالية تمكنه من تنفيذ هذه الخطة».

«ولذلك فإننى بدأت أشعر بالقلق عندما مرت الأيام الأولى بعد نجاحنا المذهل فى العبور بغير أن أسمع عن تقدم قواتنا إلى المضايق . لقد مر يومان على نجاحنا فى العبور وهى المدة الكافية لتعزيز مواقعنا الجديدة شرق القناة والبدء فى استغلال هذا النجاح الكبير لتحقيق هدف عسكرى وسياسى حقيقى » .

« ثم استبد بى القلق عندما علمت أن قواتنا لم تتحرك شرقاً لاحتلال المضايق بعد فشل هجوم إسرائيلى مضاد يومى ٨ و٩ أكتوبر ، خسرت فيه إسرائيل مائتين وخمسين دبابة ».

« وعندئذ تأكدت بأن القيادة العسكرية فى مصر قد اكتفت بالنجاح الذى حققته قواتنا فى عملية العبور واكتفت باتخاذ مواقع دفاعية داخل الشريط الضيق من الأرض الذى استولت عليه ولا يتجاوز عرضه عشرة كيلو مترات وكان ذلك يعنى انتشار قواتنا فى مواقع دفاعية مكشوفة على امتداد حوالى ١٧٠ كيلو متراً شرقى القناة مما يعرضها لهجمات مضادة ناجحة من القوات الإسرائيلية ».



كل هذا يحكيه محمود رياض لنا بينما هو فى نيويورك فى أروقة الأمم المتحدة كأمين عام للجامعة العربية يستقبل وزراء خارجية ليروى لهم ذكريات وتصورات.. ومع هذا فإنه يظلم نفسه حين يورد مثل هذا كله فى مذكراته .. ولكن هذا كله كان للأسف مطلوبا.. لهدف كبير هو التقليل من قيمة السادات وقيمة حرب أكتوبر وقيمة الانتصار المصرى فيها وبالتالى من قيمة أحمد إسماعيل.. وللأسف الشديد فإن محمود رياض لم ينتبه إلى كل هذا بما يجدر بمثله أن ينتبه.

بعد أن نقرأ هذا كله نجد أنفسنا متعجبين تماماً من أن يصل رجل مثل محمود رياض فى سنه وفى خبرته إلى الاعتقاد بأن فى إمكانه الإحاطة بوجه الصواب فى معركة مستعرة لمجرد أن يحظى بالإجابة على مجموعة محددة من الأسئلة النظرية على هذا النحو، بينما هو لا يعرف على وجه التحديد ما اتفق عليه القائد الأعلى للقوات المسلحة (رئيس الدولة) مع القائد العام (الوزير أحمد إسماعيل) ورئيس هيئة الأركان (الفريق الشاذلى)، وهل كان فى وسع القائد العام أن يتجاوز ما هو مطلوب منه حتى لو كان علمه يدفعه إلى مثل هذا التجاوز، وحتى لو كان حماسه يدفعه إلى مثل هذا التجاوز!!

هذه هى النقطة الجوهرية فيما أراه من قصور أحكام محمود رياض وقصور رؤيته، وللأسف الشديد فإن محمود رياض لم يكن وحده الذى عانى من هذا القصور، بل إن كثيرين آخرين من المصريين والعرب انساقوا إلى مثل هذا الدرب الضيق أو النفق المظلم الذى كان كفيلاً بتعذيب الذات بل جلدها فى بعض الأحيان..

ولنتأمل هذه التعبيرات المفعمة بالألم التى ترد على قلم محمود رياض وهو يتحدث عن ضياع الفرصة في تطوير الهجوم، بينما هو فى نيويورك.. سنقرأ هذه التحليلات وقد نجدها تبدو وكأنها منطقية ولكنها بالقطع لم تكن واقعية، ونحن لا نظن أن الأمور كان ينبغى لها أن تمضى على نحو ما يريده محمود رياض لسبب بسيط هو أن عقلنا البشرى أصبح اليوم قادراً على تصور مدى التعقيدات فى تشغيل الغسالة الأوتوماتيكية وموتور الدش وذاكرة التليفون المحمول، فما بالنا بإدارة الحرب كلها!! وهكذا سنفاجأ إذا أمعنا الفكر لدقيقة واحدة أن الأمور الاستراتيجية لم تكن أبداً بهذه السهولة، بل لم يكن من الممكن أن تكون بهذه السهولة..

وقد نتجاوز عن التهذيب قليلاً فنصف تفكير محمود رياض ومحاوراته على أنها شبيهة بآراء جنرالات المقاهى الذين كانوا يجلسون ليطوروا خطط الحرب العالمية الثانية بمنتهى التلقائية وهم يلعبون النرد وكأنهم أوتوا من الحكمة ما لم يؤت القواد الميدانيون من أمثال مونتجمرى وروميل، فضلاً عن القادة السياسيين من أمثال تشرشل وهتلر وروزفلت.



ويبدو من الضرورى ، بعد هذا كله ، أن أنقل للقراء فقرات من حوار محمد حسنين هيكل مع المشير أحمد إسماعيل وهو الحوار الذى كتب بطريقة فنية عالية ، وبألفاظ دقيقة، وتعبيرات مقتصدة محسوبة إن كان الحوار لا يرقى فى صياغته وروحه وإخلاصه إلى حوار روز اليوسف الذى أجرته مع المشير الأستاذة مهجة عثمان .

....

«هيكل: أريد أن أسألك، وقد تأذن لى أن أكون صريحاً، عن السبب الذى من أجله لم يجر تطوير هجومنا الشامل بالسرعة الواجبة... إن البعض من الخبراء يرون أن النجاح الهائل لعملية العبور لم يجر استغلاله بسرعة. وهناك تساؤلات كثيرة فى هذا الصدد: هل كان تخطيطنا المسبق لافتتاحية العبور العظيمة وحدها؟ هل لم نستطع أن نرى الفرصة المتاحة لنا؟ هل كنا أبطأ مما يجب أو ماذا حدث بالضبط؟

أحمد إسماعيل: إن هذه الأسئلة كلها يجب أن تطرح، وليس هناك ضرر فى رأيى من طرحها وسوف آخذ النقط التى أثرتها فى سؤالك واحدة بعد واحدة.

١ـ هل خططنا للعبور وحده؟: بالطبع لا. لقد كان لدينا خطط أوسع بكثير، لأن الحرب حوار بين تخطيط وتخطيط.. بين قوة نيران وقوة نيران... مقدرة حركة

ومقدرة حركة. وليس معقولاً أن تكون لدينا خطوة واحدة نتعطل بعدها، فلا نعرف كيف نواصل الحوار بالتخطيط وبالنيران وبالحركة. بالطبع فإن عملية العبور أخذت جزءاً كبيراً من اهتمامنا لأنها كانت المدخل، ولأنها كانت خطوة درسنا كل تفاصيلها لأننا عرفنا أننا سنبدأ بها، وهى ميزة الأخذ بزمام المبادأة. ما يجئ بعد ذلك... احتمالات متعددة ومدروسة، وقد حسبناها إلى أقصى حد، ولكن الأمر فى النهاية كان يتوقف على ما سوف يقوم به العدو. وبالتالى فإن خطة العبور كانت كاملة إلى النهاية، وكان ما بعدها قد شمله التخطيط، ولكن اختيار الاحتمالات كان متوقفاً على رد فعل العدو.

٢ـ **هل لم نستطع رؤية الفرصة ؟** : إن الموضوع بالنسبة لى لم يكن مسألة فرص، وإنما كان مسألة حسابات. **ومهما وجدت من فرص تبدو متاحة أمامنا فقد كان علىّ ألا أغامر.** إننا بدأنا العملية فى حماية شبكة الصواريخ الشهيرة. وإذا كان علىّ أن أتقدم بعدها، فقد كان لابد ـ سواء كانت هناك فرص يراها غيرى أو حتى أراها بنفسى ـ أن أنتظر حتى أتأكد أن قواتى وراءها الحماية الكافية. كان لابد أن أعطى الفرصة لمدرعاتى بالدخول. وكان لابد أن أعطى الفرصة لصواريخى المتحركة ا' ضادة للطائرات بالدخول. إن قواتنا الجوية قامت بعمل بطولى، ولكن لو أنى دفعت بقواتى وراء الفرصة المتاحة التى يتحدثون عنها، ولم تكن دفاعاتى ضد تفوق العدو الجوى جاهزة، لكان معنى ذلك أن ألقى العبء كله على الطيران وأحمله ما لا يطيق فى وقت أعرف فيه أن الساعات الصعبة ما زالت أمامنا.

٣ـ **هل كنا أبطأ مما يجب ؟** : لا أعرف.. ما أعرفه هو أننى التزمت بالتخطيط. كان التخطيط ـ الخطة الأصلية أقصد ـ يقتضى وقفة تعبوية بعد إتمام العبور وبعد تأمين رؤس الكبارى.. وقفة أعيد فيها تقدير الموقف على ضوء رد فعل

العدو، وأتأهب للخطوة التالية واتخذ لها احتياطاتها الكافية وأتقدم. إن الوقفة التعبوية لم تكن فترة سكون، ولكنها كانت فترة تقبل لهجمات مضادة من العدو وتدميرها... ومع ذلك - ولست أظننى بذلك أذيع سراً لا يعرفه العدو - فإننا اضطررنا إلى القيام بهجوم واسع بأسرع من الوقت المناسب. وكان هدفنا من ذلك تخفيف الضغط على سوريا. ولقد حدثت معارك ضخمة بالمدرعات، وكانت هذه المعارك خارج نطاق الصواريخ. وحينما أحسست أننا اضطررنا العدو إلى سحب جانب من قواته العاملة على الجبهة السورية إلى جانب تحويله لمجهود طيرانه من هناك إلى جانب إسراعه بالاحتياطى إلى ناحيتنا، فإنى فضلت العودة إلى رؤس الكبارى نواصل تدعيمها ونجعل منها صخرة تتحطم عليها الهجمات المضادة للعدو.

هيكل: سوف أسألك مرة أخرى ولعلك تقبل إلحاحى: هل كنا تقليديين أكثر مما يجب؟

أحمد إسماعيل: هل كان تخطيط وتنفيذ عملية العبور التى رأيت وسمعت بنفسك تقدير خبراء العالم لها... هل كان ذلك عملاً تقليدياً... إن الذين سمعونى أتحدث إلى القوات عرفوا أن أكثر ما كنت أحذر منه هو أن نكون تقليديين، وفى نفس الوقت لم أكن أريد أن نكون مغامرين.. الحرب قضية أكبر بكثير من المغامرة».



هكذا يتضح أن هيكل حين أجرى حواره عقب الحرب كان لا يزال بعيداً عن روح التعسف ولى الحقائق التى سيطرت عليه وعلى كتاباته بعد ما أخرجه السادات من الأهرام فى ١٩٧٤ ، وربما أن القارئ المحترف يدرك أن عبارات أحمد إسماعيل نفسها كانت هيكلية الصياغة، وأنها تنقض كل دعاوى هيكل نفسه فيما بعد ١٩٧٤ .

11

الثغرة

ما هو موقف أحمد إسماعيل بالضبط فى مسألة الثغرة؟

ربما نبدأ الإجابة على هذا السؤال بإشارة إلى أن الأدبيات المتاحة عن حرب أكتوبر قد صورت الخلاف حول التعامل مع الثغرة وكأنه قد انحصر بين السادات والشاذلى مع أن الحقيقة أن هذا الخلاف كان أهم خلاف اختلف به الشاذلى مع زملائه جميعاً بمن فيهم أحمد إسماعيل.



لعلى أبدأ هذا الفصل بأن أقتطف من حديث أحمد إسماعيل إلى روز اليوسف هذه الفقرة المهمة التى يلخص بها قيمة الثغرة بالنسبة للإسرائيلين حيث يقول المشير:

«..... اكتشفت إسرائيل، بعد سقوط خط بارليف وبعد أن قامت بعشرات من الهجمات والضربات المضادة فشلت فيها جميعا وتكبدت خسائر لم تحدث لها فى التاريخ سواء فى القوى البشرية أو المعدات والعتاد، وجدت إسرائيل من المستحيل إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه».

وهنا يستشهد المشير أحمد إسماعيل بتصريح لوزير الدفاع الإسرائيلية لجريدة إسرائيل ويقول:

«فى ٩ أكتوبر قال موشى ديان لجريدة «الجيروزاليم بوست»:

«إن الشيء الذى لا أستطيع عمله الآن هو رد المصريين على أعقابهم. إننا لا نملك هذه المقدرة الآن. والقول بأن إسرائيل أقوى من العرب لم تثبت صحته هذه المرة. يجب أن أقول هذا لأننا لن نجنى شيئا من وراء إخفاء الحقيقة. ومادمنا لا نستطيع رد المصريين، فإنهم سيواصلون تجميع قواتهم، وسينتهى الموقف بعجزنا عن وقف هجومهم، وضرورة إعادة انتشارنا على خطوط أخرى».

....

ويستطرد المشير أحمد إسماعيل فيقول:

«لم يكن هناك حل إذن أمام إسرائيل، إلا القيام بمغامرة يمكن أن يغطيها فيما بعد مجلس الأمن ووقف القتال».

«ماذا كان يمكن أن تفعل؟ ركزت كل قواها، بعد الدعم الأمريكى الذى لا نهاية له كما ونوعا، وقررت عبور القناة فى منطقة البحيرات المرة لتصل إلى رأس جسر فى الضفة الغربية تحت ستار أى قرار دولى مثل وقف إطلاق النار الذى كانت إسرائيل تضغط للإسراع به. وذلك بأية خسائر مهما كان حجمها حتى تجد شيئاً تساوم به».

«كان هذا هو الحل الوحيد لكى تحصل إسرائيل على شيء تساوم به، وتقول: لدينا قوات فى الغرب ولديكم قوات فى الشرق. أما أن تقوم [القوات الإسرائيلية] بتصفية رأس جسر أو حتى اثنين فى الشرق لو ركزت ضدها، فهذا لا يعنى [لها] شيئا إذ كنا نحتل فى ذلك الوقت ما بين ٥ آلاف و٧ آلاف كيلو متر مربع شرق القناة. [كانت هذه الأرض] محتلة بقواتنا ومتشبسة به، بل [إن قواتنا] احتلت أراض جديدة بعد وقف إطلاق النار».

لعلى أنتقل بعد هذا إلى قصة مهمة رواها الفريق أول يوسف صبرى أبو طالب فى حديثه مع الأستاذ أحمد فرغلى فى الأهرام العربى (أكتوبر ١٩٩٨).

«فى إبريل ١٩٨١ كلفنى الرئيس السادات، وكنت محافظاً لشمال سيناء. بمقابلة الجنرال شارون، لحل بعض المشاكل المعلقة حول استعادة بقية الأرض. وبدأ شارون الحديث عن الحرب بعجرفته المعروفة، وراح يقنع الجالسين بأن الثغرة حققت انتصاراً إسرائيلياً، فشعرت بالغيظ ونظرت إلى رأسه وسألته: من الذى أحدث هذه العلامة برأسك؟ وبتلقائية وضع يده على رأسه ونظر إلى الأرض وقال: المصريون!»

«وقلت لشارون أليست هذه آثار إصابة أكتوبر.. فلنتحدث بإنصاف لأننا أوقعنا بكم خسائر على كل المستويات بداية منك.. ثم حدثته عن خسائر إسرائيل فى الثغرة فاعتدل فى كلامه، وأراد الانتهاء من حديث الحرب».



وربما يكون من الأوفق أن ننتقل الآن إلى ما يرويه المشير الجمسى فى مذكراته عن موقف القيادة المصرية من أحداث الثغرة، لأنه يلتزم بأسلوبه الحريص على رواية ما حدث بالفعل دون إضفاء تفسيراته أو إضافة وجهة نظره أو تغليب رأيه، وسنرى أنه أى المشير الجمسى كان من الذكاء والوعى بحيث أدرك ما أدركه السادات وأحمد إسماعيل من خطورة تحريك القوات من الشرق!

والحق أن رواية المشير الجمسى فى مذكراته عن أحداث الثغرة تدلنا على أن معركة أكتوبر العظيمة كانت تدار بعقول راجحة، ويستمع القائد الأعلى فى أحلك لحظاتها إلى رأى القادة واحداً بعد آخر، وسنرى أيضا بوضوح كيف كانت هناك رؤية، ومعلومات، ووجهات نظر، ومناقشة.. ونحن نقارن هذا بالاندفاع المحموم إلى اتخاذ القرار بالانسحاب دون أدنى مبرر فى أول أيام حرب ١٩٦٧ فندعو

بالرحمة والمغفرة والجزاء الأوفى لهؤلاء القادة العظام الذين قادوا حرب ١٩٧٣ وحفظوا علينا كرامتنا وحريتنا ووطننا وانتصارنا.

ونحن حين نقارن ما يرويه المشير الجمسى بما يرويه الفريق سعد الشاذلى بحماس وصدق فى مذكراته عن هذه الأحداث نلمس مدى الصدق الشديد والدقة المتناهية اللذين التزم بهما الجمسى فى عرض وجهات النظر.



ومع أننا من موقع القراءة والتحليل والدرس نأخذ صف السادات وأحمد إسماعيل، إلا أن هذا لا يعنى أن نزدرى اجتهاد الشاذلى أو أن نعرض به، ولكننا نستطيع من قراءتنا لما حدث من قبل فى ١٩٥٦ و١٩٦٧ ولإمكانات الجيش المصرى وللتأثير المعنوى للقرارات الكبرى، نستطيع من هذا كله بل ومن بعضه أن نفهم أن الأخذ بوجهة نظر الشاذلى كان كفيلاً بأن يقود الجيش المصرى كله إلى سكة الندامة والتهلكة التامة على نحو ما حدث فى ١٩٦٧، ولم يكن الحديث عن انهيار القوات المسلحة المصرية يحتاج بعد قرار العودة إلى الغرب إلى أى مبرر آخر!!

ولم يكن من الممكن أبداً أن تنجح فكرة الشاذلى فى تحريك أربعة ألوية، بل لم يكن من المتوقع أن تنجح هذه الألوية الأربعة فى العودة إلى الغرب سالمة لأن أفرادها أنفسهم سيكونون قد هزموا بالفعل حين يطلب إليهم مثل هذا الطلب.

لنقرأ ما يرويه الجمسى تحت عنوان «أحداث مساء يوم ٢٠ أكتوبر» وسنلاحظ أنه، أى المشير الجمسى ، منتبه تمام الانتباه إلى أن هذا الاجتماع عقد مساء يوم ٢٠ أكتوبر على حين أن الفريق الشاذلى فى مذكراته يظن أن هذا الاجتماع عقد مساء يوم ١٩ أكتوبر على نحو ما روى الرئيس السادات نفسه هو الآخر فى مذكراته، وقد حقق اللواء جمال حماد تاريخ هذا الاجتماع وتوصل إلى أن الصواب

هو أن الاجتماع عقد مساء يوم ٢٠ أكتوبر، وقد اعترف الفريق الشاذلى فى خطابه الأول إلى جمال حماد والذى نشر كملحق فى كتاب اللواء جمال حماد «المعارك الحربية على الجبهة المصرية» بأنه أخطأ فى ذكر تاريخ الاجتماع لأسباب منها أنه اعتمد على ما رواه السادات نفسه فى كتابه البحث عن الذات.

وعلى كل الأحوال فلنقرأ ما يرويه المشير الجمسى عن مناقشات القادة وآرائهم فيما يخص الثغرة:

« ... عندما حضر الرئيس السادات إلى مركز العمليات حوالى الساعة العاشرة والنصف مساء يوم ٢٠ أكتوبر ، كان الفريق الشاذلى واللواء محمد حسنى مبارك واللواء محمد على فهمى وأنا [أى اللواء الجمسى رئيس هيئة العمليات] واللواء فؤاد نصار مدير المخابرات الحربية واللواء سعيد الماحى مدير المدفعية مجتمعين فى غرفة المؤتمرات داخل مركز العمليات».

«اجتمع الرئيس مع الفريق أول أحمد إسماعيل على انفراد لمدة حوالى ساعة قبل بدء المؤتمر [هذا هو اللفظ المستخدم فى العسكرية المصرية للتعبير عن الاجتماع]. ومن الطبيعى أن يكون الوزير أحمد إسماعيل قد قدم للرئيس تقريراً عن الموقف ، ووجهة نظره ، ورأى الفريق الشاذلى ، وهما رأيان متعارضان لمواجهة هذا الموقف. وكانت نقطة الخلاف الرئيسية هى أن الشاذلى كان يرى سحب أربعة لواءات مدرعة من الشرق إلى الغرب ، أما أحمد إسماعيل فكان يرفض ذلك».

«دخل الرئيس ومعه الوزير أحمد إسماعيل والمهندس عبد الفتاح عبد الله وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية غرفة المؤتمرات. طلب الرئيس رأى المجتمعين واحداً بعد الآخر».

«بدأ مدير المخابرات الحربية [أى اللواء إبراهيم فؤاد نصار] بشرح موقف العدو ونواياه التى أبرز فيها أن العدو يهدف من معركته غرب القناة إلى احتلال مدينة

الإسماعيلية أو السويس ، وهو ما يحقق له هدفاً سياسياً بالإضافة لتأثير ذلك على الموقف العسكرى لقواتنا».

«وكنت أنا [أى اللواء الجمسى رئيس هيئة العمليات فى ذلك الوقت] المتحدث الثانى ، حيث شرحت فى حديثى موقف قواتنا وأبرزت فيه أن قواتنا فى شرق القناة قوية بالقدر الكافى الذى يجعل منها صخرة تتحطم عليها أى محاولات للعدو ضدها. ونظراً لأن الإنجاز العسكرى الكبير الذى تحقق بوجود قواتنا فى سيناء ، لا يجب التنازل عنه أو تعريضه للخطر ،لذلك فإن المحافظة على قواتنا شرق القناة كما هى دون سحب أى قوات رئيسية منها أمر واجب. وكان رأيى أن سحب اللواءات المدرعة المصرية من الشرق إلى الغرب يترتب عليه اهتزاز دفاعات قواتنا فى الشرق الأمر الذى لايمكن قبوله. فضلاً عن ذلك فإن التأثير المعنوى على القوات بعد سحب اللواءات المدرعة من الشرق يصبح شديداً بطريقة سلبية. وأتذكر أنى قدمت أعداد الأسلحة الرئيسية من الدبابات والمدفعية وأسلحة المشاة ، وبصفة خاصة كميات الذخيرة الموجودة فى الشرق موضحاً أنها تكفى لتحقيق مهمة الاحتفاظ بمواقع قواتنا فى سيناء بكفاءة».

«وبعد أن استمع الرئيس لرأى باقى القادة ، لاحظت أن الفريق الشاذلى لم يتكلم. وقرر الرئيس ، عدم سحب أى قوات من الشرق مع احتواء قوات العدو فى الغرب».



على هذا النحو يذكر المشير الجمسى ويثبت بروايته أن الفريق الشاذلى لم يتكلم، ومن العجيب أن الشاذلى نفسه فى مذكراته يذكر أيضا أنه لم يتكلم [ولا نقول يعترف أنه لم يتكلم] ! بل إن الفريق الشاذلى نفسه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فيروى أن وزير شئون الرئاسة المهندس عبد الفتاح عبد الله محمود لكزه وطلب إليه أن يبدى وجهة نظره، ولكن الشاذلى رد عليه بالتساؤل عن جدوى كلامه بينما الرئيس لم يستمع إلى وجهة نظره !

وهكذا فإن فقرة الجمسى التى عرضناها لتونا وفقرة الشاذلى التى فى مذكراته لا تتناقضان بل تؤكدان على معنى واحد، وهو أن السادات فى ذلك اليوم كان قد وصل إلى ذروة من الذرى الرفيعة التى حققها فى حياته، وليس هناك محل للهجوم عليه أو لإثبات أن رؤية الشاذلى كانت أكثر صواباً، لا للسبب الذى أوضحناه فى تعليقنا السابق فحسب، ولكن لسبب أهم، وهو أن الشاذلى نفسه كان حريصا (باعترافه هو نفسه) على ألا ينتهز الفرصة للتعبير عن رأيه فلم ينبس ببنت شفة، ومن حُسن حظ مصر أن الشاذلى لم يكن القائد العام أو القائد الأعلى وإلا لتكررت بسهولة ويسر مأساة ١٩٦٧ بعد كل هذا الإنجاز الذى تحقق.



من ناحية أخرى يبدو للقارىء المنصف أن تورط الفريق الشاذلى فى إلقاء التبعة على المشير أحمد إسماعيل فى المسئولية عن خطة مواجهة الثغرة ، كان لايتوقف عند حد، وهذا هو ما يجب علينا أن ننتقده فيه، وقد حاول السادات نفسه أن يفهم الشاذلى أنه هو صاحب هذا القرار وليس أحمد إسماعيل بينما كان الشاذلى لا يزال مندمجاً فى سعيه أن يثبت للسادات أنه على صواب وأن أحمد إسماعيل على خطأ، وهو لا يدرى أن القرار قرار السادات، وفى الحقيقة فإن رواية الشاذلى للقصة فى تلك الأيام تتفوق على أية دراما قائمة على المفارقة!

ولنتأمل هذه اللقطات الأربع لحديث الشاذلى عن لقاء السادات السابق بالقادة فى المركز رقم ١٠ مساء يوم ١٦ أكتوبر:

○ اللقطة الأولى هامش فى مذكرات الشاذلى يتحدث فيه عن رفض الوزير أحمد إسماعيل سحب جزء من قواتنا من الشرق ويقول فى الهامش:

«لم أكن حتى هذه اللحظة على علم باللعبة السياسية، وكنت أعتقد أن معارضة الوزير فى سحب جزء من قواتنا فى الشرق هو جمود فكرى من قبله

وليس جزءاً من لعبة سياسية كبيرة، لذلك فكرت فى أن أستعين بالرئيس فى تصحيح الموقف».

○ اللقطة الثانية هامش آخر يتحدث الشاذلى فيه عن رفض الوزير أحمد إسماعيل سحب اللواء المدرع ٢٥ ليوجه ضربة ضد الثغرة من الغرب ويقول فيه الشاذلى:

«يبدو أن هذا الإصرار من جانب الوزير كان بناء على تعليمات من الرئيس ويمكن استنتاج ذلك من غضب الرئيس وثورته عندما فاتحته بهذا الموضوع من جديد».

○ اللقطة الثالثة يروى فيها الشاذلى ما حدث عند حضور الرئيس فى ذلك المساء إلى المركز ١٠:

«وبعد ساعات قليلة وصل الرئيس إلى المركز ١٠، لقد كان مازال هناك متسع من الوقت، وفكرت أن أستعين برئيس الجمهورية لكى ينقض قرار الوزير وأن يوافق على وجهة نظرى فيما يتعلق بسحب بعض القوات من الشرق وأن نقوم بتوجيه ضربتنا الرئيسية ضد الثغرة من الغرب، شرحت الاقتراحات السابق ذكرها، لكن الرئيس لم يمهلنى لكى أتم مقترحاتى وثار ثورة عارمة وفقد أعصابه وأخذ يصرخ فى وجهى بعصبية:

«أنا لا أريد أن أسمع منك مرة ثانية هذه الاقتراحات الخاصة بسحب القوات من الشرق، إذا أثرت هذا الموضوع مرة أخرى فإنى سوف أحاكمك».

«حاولت أن أشرح له أن المناورة بالقوات شيء والانسحاب شيء آخر، لكنه كان فى ثورة عارمة لا يريد أن يسمع ولا يريدنى أن أسترسل فى الكلام. لقد أصابنى كلام السادات بجرح عميق، جال بخاطرى أن أستقيل، ولكن سرعان ما استبعدت هذا الخاطر. كيف أترك القوات المسلحة فى أوقات الشدة ؟ ماذا سيقول عنى الخصوم؟ هرب عند وقوع أول أزمة ؟ لا لن أقبل ذلك على نفسى. لقد عشت مع القوات المسلحة فترة مجد، ويجب أن أقف معها وقت الشدة حتى لو لم أستطع أن

أنقذ ما أريد إنقاذه كله. ابتلعت كبريائى والتمست العذر للسادات وقلت لنفسى: «لابد أن السادات أعصابه متوترة، حتى أنه لم يستطع أن يواجه الموقف. يجب أن أتحمله ولو مؤقتاً من أجل مصر».

○ اللقطة الرابعة تأتى فى هامش من هوامش مذكرات الشاذلى يعقب به الفريق سعد الشاذلى بما فهمه فى النهاية ويقول :

«هذا يدل على أن المعارضة فى سحب جزء من قواتنا من الشرق إلى الغرب كان قراراً للسادات أكثر منه قرارا للوزير».

وأظن أننا قد استوعبنا الحقيقة الآن بعد هذه اللقطات الأربع وثلاث منها من الهامش أى أنها كتبت بعد أن انتهى الشاذلى من السرد، ووقف أمام ما سرده هو نفسه: وقفة تعبوية(!!) أو تأملية.

هل لى أن استسمح القارىء فى أن أكرر رأيى فى أن قرار السادات بعدم سحب قوات من الشرق كان قراراً موفقاً وعبقرياً لايقل أهمية عن قرار العبور نفسه!

هل لى أن أدل القارىء على دراسة اللواء جمال حماد القيمة عن سير المعارك الحربية على الجبهة المصرية ومجادلاته القائمة على العلم العسكرى مع الشاذلى حتى أثبت أن قرار السادات كان مصيباً، وأن اقتراحات الشاذلى لم تكن تؤدى إلا إلى التهلكة!!

هل لى أن أدل القراء أيضاً على أحاديث القادة العسكريين فى ذكرى مرور خمسة وعشرين عاماً على النصر المجيد لمجلة «الأهرام العربى» فى العدد الخاص الذى صدر بهذه المناسبة وكيف تناولوا هذا الموضوع بإنصاف شديد للسادات الذى رحل، ولوم للشاذلى الذى لايزال حيا بيننا!!



لعلى أشير أيضاً إلى حديث اللواء عبدالعزيز قابيل مع الأستاذ أشرف محمود (الأهرام العربى، ١٩٩٨) وفيه يقول ما نصه:

«.... اختلاف الرأيين كان لاختلاف التوجه والهدف، فالرئيس السادات كان يتحدث من ناحية سياسية استراتيجية، والفريق سعد الشاذلى كان يتحدث من ناحية تعبوية تكتيكية، السادات كان يناور من أجل الوصول إلى حل سياسى، أما سعد الشاذلى فكان عسكريا بحتا، طلب سحب بعض اللواءات المدرعة من الشرق، لكن السادات وبقية القادة رفضوا، لأن سحب أية دبابة كان معناه نسف نجاح العبور العظيم، أما إبقاء الوضع على ما هو عليه فسيدفع السادات لاستغلال الموقف سياسيا، وكان مهتما جدا بفرقتى، ويتابع الموقف بنفسه، وكان يتصل بى يوميا أكثر من مرة، ويشجعنى ويطمئن على الرجال».

....

....

«وأعتقد أن السادات كان الأصوب فى موضوع الثغرة حتى إنه قال بعد المعركة: إنه أخذ قرارا فى أثناء المعركة كان من وجهة نظره أهم من قرار بدء الحرب، هو ألا ينسحب أى جندى أو دبابة من شرق القناة إلى غربها، ولو كان الرئيس السادات قد وافق على اقتراح الشاذلى، لحدثت خلخلة فى الوضع المصرى، كانت ستؤدى إلى عدم الصمود أمام أى هجوم مضاد للعدو، وكانت رءوس الكبارى التى أقمناها وجيوشنا فى الجبهة ستتأثر كثيرا».

«أما سبب الثغرة الذى تسأل عنه، فأعتقد أنه خطأ أو نقص فى المعلومات التى وصلت عن العدو بعد أيام المعركة الأولى».

....

«العدو كان يبحث عن انتصار وهمى يرفع به معنويات جنوده وشعبه، وأعتقد أن الهدف كان دعائيا ومنافيا لحقيقة الواقع الذى حدث فى أرض المعركة، والعدو كان يبحث عن ٣ أهداف استراتيجية: أولها إفشال عملية العبور المصرى، وثانيها زعزعة الثقة بين القادة والقوات المصرية، وثالثها منع التعاون بين قوات الشرق

وقوات الغرب فى الجيش المصرى، لكنه لم يحقق أى هدف من الأهداف الثلاثة، ويكفى أن إمداده كان يتم من إسرائيل إلى سيناء، ومنها إلى السويس، وهذه عملية صعبة جدا تستغرق وقتا طويلا، وأرهقتهم كثيرا، والدليل على أن الأمر لم يكن أكثر من دعاية لإسرائيل، أن جولدا مائير حضرت إلى الجبهة وصورت، وعلق الرئيس السادات على هذا الأمر بأنها «حاجة تليفزيونية».



وأحب أيضا أن أشير إلى ما ذكره الفريق فؤاد عزيز غالى فى حديثه للأهرام العربى حيث قال:

«فى يوم ١٧ أكتوبر بعد أن استقرت الأمور فى القنطرة، اتصل بى فؤاد خليل [يقصد عبد المنعم خليل] الذى حل محل اللواء سعد مأمون، قائد الجيش الثانى، بعد أن أصيب بأزمة قلبية، وطلب منى سحب اللواء المدرع الموجود معى، فأبديت له وجهة نظرى، فقال لى: معك الفريق سعد الدين الشاذلى، وأبلغه بوجهة نظرك، لأنه هو الذى أبلغنى، فتحدث معى الفريق الشاذلى، فاعتذرت بطريقة أو بأخرى، وكانت لى أسبابى التى ربما لم يكن الفريق الشاذلى مستوعبا لها، وملخص ما قلته له: إنه لن يخرج عسكرى حى أو دبابة سليمة من القنطرة، لأن معنى ذلك هدم الدفاع عن شرق القناة، وانتهى الحديث بيننا على أساس أنه سيتباحث فى الأمر مع القيادة العامة، ويبلغنى بالقرار، الذى كنت سأنفذه، سواء اتفق أو تعارض مع وجهة نظرى، ولكننى فوجئت بعد ساعات قليلة بالرئيس السادات يتصل بى كعادته كل ليلة ليطمئن على الموقف، فأخبرته بما دار بينى وبين الفريق الشاذلى، فقال لى «برافو عليك يا فؤاد» لا يسحب عسكرى واحد من رءوس الكبارى شرق القناة، ولا تنفذ هذا الأمر، وموجود تسجيل صوت وصورة للكيفية التى اعترضت بها على قرار الشاذلى، وسبب رفضى أننا استعدنا القنطرة على جثث ودماء رجال عظماء، ولا يمكن التهاون فى الاحتفاظ بها».

«أنا شخصيا لم أفارق سيناء ٦ سنوات كاملة بعد ٦٧، وقضيت هناك فى الخنادق

كل هذه الفترة، لدرجة أننى اعتذرت عن حضور زفاف ابنة السادات الكبرى، لأننى لم أكن أملك بدلة مدنية، وكانت آخر بدلة أمتلكها فى عام ٦٠، ٦١ أيام خدمتى فى سوريا، ونفس الأمر ينطبق على أحمد بدوى رحمه الله، وأمام إصرار المشير إسماعيل على حضورنا، تم تفصيل بدل مدنية لنا فى ثمانى ساعات».



لنخرج الآن عن دائرة هذين الرجلين الذين تناوبا على رئاسة الأركان (أى الشاذلى والجمسى) وعن دائرة هؤلاء القادة العظام الذين كانوا يتولون قيادة الأسلحة فى حرب أكتوبر (يوسف صبرى أبو طالب، وقابيل، وفؤاد عزيز غالى) ولنوسع من دائرة معلوماتنا عن الانطباعات الآنية عن هذه المواقف من خلال قراءة حوار دار بين محمود رياض [عند عودته من نيويورك] مع المشير أحمد إسماعيل على، منتهزاً فرصة لقاء عابر بينهما فيما بعد الحرب، ولنتأمل هذه الثقة وهذا التواضع فى إجابات أحمد إسماعيل على أسئلة محمود رياض التى لا يمكن وصفها بأنها أقل من قلقة وربما أنها مستفزة أيضاً، ومع أن الرواية لمحمود رياض وليست لأحمد إسماعيل إلا أن هاتين الصفتين المزعجتين فى أسئلة محمود رياض لأحمد إسماعيل تظهران بوضوح:

«... وبمجرد انتهاء مقابلة السفير السوفيتى اجتمعت مع الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الحربية، وذكرت أنه يجب ألا نعتبر أن المعركة قد انتهت وأنه يمكن الحصول على مساندة قوية من الدول العربية فى مؤتمر القمة المقبل، ثم أشرت إلى المعركة والأخطاء التى حدثت بإشراك قواتنا الاحتياطية فى الهجوم بدلاً من الاحتفاظ بها للقيام بواجبها الأصلى وهو صد الهجوم المضاد، وذكرت أنه من الضرورى الإسراع بتشكيل احتياطى كبير وأشرت إلى خطأ آخر أظهرته المعركة وهو عدم تعيين قائد للجبهة، فقد تبين أنه لا يمكن إدارة المعركة من القاهرة، وقائد الجبهة كان يستطيع أن يعالج مشكلة الثغرة مباشرة ودون انتظار تعليمات من القاهرة».

«فأجابنى أحمد إسماعيل بأنه هو شخصياً قائد الجبهة. وشرح لى ظروف الثغرة بأنه حدث للأسف تعديل فى القيادة المحلية فى نفس اليوم الذى بدأت فيه الثغرة، مما أحدث نوعاً من الخلل فى القيادة، وأنه أصدر أمراً باستخدام لواء مدرع لمواجهة الثغرة فى بدايتها، إلا أن القائد المحلى أبلغه أن موضوع الثغرة بسيط للغاية، وأنها مجرد دورية إسرائيلية نجحت فى عبور القناة، وأنه يستطيع معالجتها دون استخدام اللواء المدرع. وعندما تبينا ضخامة حجم القوات الإسرائيلية التى عبرت القناة، أصدرت أمراً إلى لواء ميكانيكى بالتصدى للثغرة، ولكنه لم ينجح فى أداء تلك المهمة بعد أن دعمت إسرائيل رأس الكوبرى بقوات كبيرة».

« قلت لأحمد إسماعيل: إنى أفهم أنك قائد عام للقوات العربية وأنك مسئول عن التنسيق بين الجبهتين المصرية والسورية، ومازلت أرى ضرورة وجود قائد عام للجبهة على أن يكون مركز قيادته خلف قواته مباشرة».

«ثم انتقلت بعد ذلك إلى شكوى الرئيس حافظ الأسد من تناقض المعلومات التى كانت تبلغ إليه عن الموقف فى الجبهة المصرية وما لديها فعلاً من احتياطى حقيقى، ورد علىّ أحمد إسماعيل بأنه كان لديه فرقة مدرعة لحماية القاهرة ورأى عدم استخدامها لمواجهة الثغرة الإسرائيلية. وأضاف أحمد إسماعيل إن القوات المصرية تطوق الآن الجيب الإسرائيلى وتستطيع القضاء عليه تماماً وهو فى انتظار تعويض خسائره من الطائرات والصواريخ المضادة للطائرات والمضادة للدبابات».

لست أستطيع أن أنفى تحيزى لقائد معركة ٦ اكتوبر ولكل قادتها ولكنى أعجب كل العجب من أن يجد انسان كائنا مَنْ كان الجرأة ليثبت كل هذا الذى يرويه على نحو ما فعل محمود رياض، وسوف ينزعج القراء من مثل هذا الذى يقرأونه لهذا الرجل ، وهنا لابد لى أن أذكر لهم أن مثل هذا الأسلوب ذى النظرة العلوية أو الفوقية كان موجوداً بشدة وقد عانى منه قادتنا أضعاف ما عانوا من إداره المعركة نفسها ..وإنى لأدعو الذين يقرأون الفاتحة على روح أحمد إسماعيل أن يكرروا قراءتها وهم يرون صبر هذا القائد العظيم على مثل هذه « الدروس الإجبارية » التى يتلقاها من رجل ترك العسكرية منذ أكثر من عشرين عاما!!.

12

أحمد إسماعيل والسادات

من المهم أن نشير فى بداية هذا الباب إلى أن أحمد إسماعيل كان واحداً من سبعة وزراء للحربية فى عهد السادات، وقد كان هو ثالثهم بعد محمد فوزى ومحمد صادق وقبل الجمسى وكمال حسن على وأحمد بدوى ومحمد عبدالحليم أبو غزالة.

ومن المهم أن نشير إلى أن أحمد إسماعيل دون عن الباقين كان على علاقة مبكرة بالرئيس السادات فقد كان السادات شاويشا على أحمد إسماعيل فى الكلية الحربية.

وهنا نذكر القراء بأن سنة ١٩٣٨ شهدت تخريج دفعتين فى الكلية الحربية فى الأولى تخرج عبد المنعم رياض وأنور السادات، وفى الثانية تخرج أحمد إسماعيل وجمال عبدالناصر.

من المهم، ثالثا، أن نشير إلى حقيقة ربما تكون غريبة ومدهشة وهى أن أحمد إسماعيل كان الضابط الوحيد من دفعة الرئيس عبدالناصر الذى وصل إلى مواقع

قيادية فى القوات المسلحة على حين أن الباقين تسربوا [أو سُربوا] من خدمة القوات المسلحة واحداً بعد الآخر على مدى تاريخ عهد الثورة، وقد وصل كمال هنرى أبادير إلى رتبة اللواء وخرج ليتولى منصب وزير المواصلات. أما أحمد إسماعيل فقد وصل إلى رتبة اللواء فى مطلع عام ١٩٦٢ وظل فى القوات المسلحة حتى وصل إلى رئاسة الأركان (وهو أعلى منصب فى القوات المسلحة) خلفا لعبد المنعم رياض فى ١٩٦٩ أى بعد سبع سنوات وشهور فى رتبة اللواء.

ومن المهم، رابعاً، أن نشير إلى حقيقة أن أحمد إسماعيل لم يكن من الضباط الأحرار على الرغم من أنه كان بحكم الموقع الوظيفى مناظراً تماماً لجمال عبدالناصر فقد كانا معاً فى الكلية الحربية حين قامت الثورة.

ومن المهم، خامساً، أن نشير إلى أن أحمد إسماعيل بحكم شخصيته العسكرية والتزامه وأفكاره التى تحدثنا عنها فى الباب الثانى والباب الثالث من هذا الكتاب كان بعيداً تماماً عن صراعات أجنحة السلطة فى عهد الرئيس عبد الناصر، وإن كان قد ظل على علاقة ود بكل من عبد الناصر والسادات وغيرهما من زملائه فى مرحلة الشباب.

ومن المهم، سادساً، أن نشير إلى أن السادات كان يدرك مبكراً حقيقة الشخصيات التى يمكن أن تتعاون معه بكفاءة فى سبيل تحقيق النصر أو المجد.. وهكذا فإنه فى وقت مناسب استطاع السادات أن يعيد أحمد إسماعيل من التقاعد ليكون رئيساً للمخابرات قبل أن يختاره قائداً عاماً للقوات المسلحة ووزيراً للحربية ولم يكن مثل هذا القرار بالقرار السهل، ولا اليسير فى عصر اتسم بالتجريف المستمر وعدم إعادة السابقين إلى أى موقع.. فضلاً عن موقع كموقع رئيس المخابرات العامة.

ولهذا فإن التاريخ وهو يتأمل اختيار السادات لأحمد إسماعيل لمنصب القائد العام فى أكتوبر ١٩٧٢ لا يعجب بقدر ما يعجب من الخطوة الأذكى التى نفذها السادات فى مايو ١٩٧١ بتهيئته لهذا الموقع من خلال رئاسة المخابرات العامة.

ومع أننا قد نستسهل القول بأن السادات أعطى أحمد إسماعيل فرصة العمر فى قيادته لهذه الحرب المجيدة إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أو نتغاضى عما أثبتناه فى الباب السادس من هذا الكتاب من أن أحمد إسماعيل كان بمثابة القائد المصرى الوحيد القادر على أن يقود الحرب الناجحة أو أن يحقق هذا النصر الوحيد.

ومن حسن الحظ أن المشير الجمسى وكذلك الفريق الشاذلى يلقيان فى مذكراتيهما الضوء على طبيعة العلاقة بين القائد العام (أحمد إسماعيل)، والقائد الأعلى (أنور السادات) ونستطيع من قراءة وتحليل ما قدماه من نصوص وروايات، من زوايتى رؤية مختلفتين، أن ندرك كيف تبدت حصافة أحمد إسماعيل وكياسته وخبرته فى تطويع هذه العلاقة (بينه كقائد عام، وبين السادات كقائد أعلى) من أجل تحقيق الهدف الوطنى الكبير.

يؤكد الجمسى بما يرويه عن الساعات الأخيرة التى سبقت حرب أكتوبر ١٩٧٣ مدى الحنكة والحكمة اللتين تمتع بهما المشير أحمد اسماعيل فى كل الأوقات، فالجمسى يروى قصة صدور توجيه استراتيجى فى ٥ أكتوبر بعد أن صدر توجيه سياسى وعسكرى فى أول أكتوبر (التوجيهان من الرئيس السادات إلى الفريق أول أحمد اسماعيل). ولا يزعم الجمسى أنه أعجب بالتوجيه ولا سُرّ منه ولا قدره، إنما هو يعترف فى أدب شديد بأنه سأل القائد العام عن سر إرسال القائد الأعلى لهذه الوثيقة فإذا بالمشير أحمد اسماعيل نفسه يخبره **بأنه هو الذى طلب هذا التوجيه حتى تكون الأمور محددة بوضوح.**

وللقارئ أن يقارن الآن وهو يقرأ ما ننقله من رواية الجمسى بين هذا، وبين ما يرويه أى قائد من القادة وأى سياسى من السياسيين عن الحوار الذى دار فى لحظة مماثلة بين الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر حين قال المشير: « برقبتى ياريس» ولم يعقب الرئيس بشىء إلا الاطمئنان.



والحق أننا نفهم من مذكرات المشير الجمسى أنه كان فى وسع المشير أحمد إسماعيل أن يتعامل بكفاءة وبدقة مع الرئيس أو القائد الأعلى دون أن يتنازل عن حقوقه السياسية أو العسكرية، وربما يضيف البعض إلى هذه الصورة أن أحمد إسماعيل نفسه كان قد عانى من الظلم ومن الاستبعاد من القوات المسلحة مرتين لم يلبث أن عاد بعدهما إلى القوات المسلحة، ومع أن هذا قد يبدو مبرراً قابلاً للاستناد إليه فى فهم خلفيات تصرفاته هذه، إلا أن العقل البشرى المنصف يعجز فى النهاية عن أن يظن أن كل هذا كان من باب النتائج والأسباب، وإنى لأعترف بأن كل هذا لم يكن إلا أسباباً سببها الله لكى يحقق لنا النصر بعد جهادنا من أجله.

ولنقرأ فى هذا الصدد ما يرويه الجمسى بالتفصيل عن مواقف حازمة ومتعقلة ومبصرة قدمتها ومارستها قيادة قواتنا المسلحة فى الساعات القليلة التى سبقت الحرب:

«وفى هذا اليوم أصدر الرئيس السادات توجيهاً إستراتيجياً إلى الفريق أول أحمد إسماعيل ـ مؤرخاً ٩ رمضان ـ ٥ أكتوبر ١٩٧٣ ـ نصه الآتى:

١ـ بناء على التوجيه السياسى العسكرى الصادر لكم منى فى أول أكتوبر ١٩٧٣، وبناء على الظروف المحيطة بالموقف السياسى والإستراتيجى، قررت تكليف القوات المسلحة بتنفيذ المهام الإستراتيجية الآتية :

أ - إزالة الجمود العسكرى الحالى بكسر وقف إطلاق النار اعتباراً من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

ب - تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة فى الأفراد والأسلحة والمعدات .

جـ - العمل على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نمو وتطور إمكانيات وقدرات القوات المسلحة.

٢- تنفذ هذه المهام بواسطة القوات المسلحة المصرية منفردة أو بالتعاون مع القوات المسلحة السورية».

وهنا يعقب المشير الجمسى فيقول:

«عندما أطلعنى الفريق أول إسماعيل على هذا التوجيه الاستراتيجى ، طلبت منه معرفة الأسباب التى من أجلها أرسل الرئيس السادات هذه الوثيقة ، برغم أن لدينا التوجيه الإستراتيجى المؤرخ أول أكتوبر ١٩٧٣ الذى يقضى بالحرب ، وأن الهدف الاستراتيجى محدد فيه ، وأن خطة العمليات التى ستنفذ معروفة له تماما ، وأن الحرب تبدأ يوم ٦ أكتوبر».

«قال لى الفريق أول أحمد إسماعيل إنه هو الذى طلب هذا التوجيه حتى تكون الأمور - للتاريخ - محددة بوضوح. ففى الوثيقة الجديدة نص صريح بكسر وقف إطلاق النيران اعتباراً من يوم ٦ أكتوبر ولم يكن ذلك محدداً من قبل، علما بأن هذا القرار سياسى قبل أن يكون قراراً عسكرياً. كما أن الوثيقة الجديدة تنص صراحة على العمل على تحرير الأرض على مراحل متتالية حسب نمو وتطور إمكانيات وقدرات القوات المسلحة، حتى لا يفهم مستقبلاً أنه كان مطلوباً تحرير سيناء بالكامل . وهذا يؤكد مرة أخرى - للتاريخ - المهام الاستراتيجية المحددة من القيادة السياسية للقوات المسلحة».



ومن أعجب ما يمكن أن الجمسى لم يكن وحده الذى تعجب لموقف المشير أحمد اسماعيل وإنما تعجب أيضاً الفريق الشاذلى (رئيس الأركان والرجل الثانى فى القوات المسلحة بعد أحمد اسماعيل) ، ومصدرى فى هذا هو مذكرات الفريق الشاذلى نفسه ، وحسبما روى الشاذلى، الذى لم يكن على وفاق مع أحمد اسماعيل فقد أوضح له أحمد اسماعيل ما أوضحه للجمسى بكل صراحة وثقة ووضوح.

وها هو ذا الفريق سعد الشاذلى يحدثنا فى مذكراته عن حوار دار بينه كرئيس للأركان وبين المشير أحمد إسماعيل قبيل حرب أكتوبر ويتعلق هذا الحوار بالجزئية التى رواها أيضا المشير الجمسى وهى جزئية استصدار الأمر الاستراتيجى لحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، ويرى الفريق سعد الشاذلى (أو هو يريد أن يرينا) أن هذا الحوار كان هو السبب فى استصدار الأمر الاستراتيجى لحرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وإذا قرأنا رواية الفريق سعد الشاذلى واضعين فى الاعتبار أن الذى رواها هو الفريق سعد الشاذلى نفسه فسوف نجد أنفسنا ـ دون عناء ـ نعجب بأحمد إسماعيل بأكثر مما نستجيب لانتقادات سعد الشاذلى، وهذا هو نص فقرات سعد الشاذلى فى مذكراته :

« فى خلال شهر سبتمبر ١٩٧٣ قال لى أحمد إسماعيل: « إننا سوف نقوم بالحرب فإذا سارت الأمور على ما يرام فإن أحداً لن يهتم بتوجيه كلمة شكر لنا، أما إذا تطورت الأمور إلى موقف سيئ فإنهم سيبحثون عن شخص يلقون عليه التبعة».

وهنا مباشرة يندفع الفريق سعد الشاذلى إلى التعليق بقوله:

«... لقد كان أحمد إسماعيل منزعجا، وكان يخشى وقوع الهزيمة، ويريد أن يؤمن نفسه ضد هذا الاحتمال ، لقد طُرد من قبل الرئيس جمال عبد الناصر مرتين المرة الأولى عقب حرب ١٩٦٧ حيث كان يشغل منصب أركان حرب جبهة

سيناء، والمرة الثانية فى سبتمبر ١٩٦٩ حيث كان يشغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة وقد أثرت هاتان الحادثتان على نفسيته تأثيراً كبيراً. لقد أصبح رجلاً يخشى المسئولية ، ويفضل أن يتلقى الأوامر ، ويخشى أن يصدرها، يفكر فى احتمالات الهزيمة قبل أن يفكر فى احتمالات النصر. قلت له : أنا شخصياً لا يهمنى أن أتلقى كلمة شكر أو لا أتلقى، إذ أن سعادتى فى إرضاء نفسى، وإنى لا أخشى كلمة لوم ، لأنى متيقن بأننا سننتصر بإذن الله».

« لم تطمئنه كثيراً كلماتى المتفائلة وقال : إنه من الأفضل أن يصدر رئيس الجمهورية توجيهاً يحدد فيه واجب القوات المسلحة ، حتى لا يكون هناك خلاف فى المستقبل حول هذه الأمور، وانتهت مناقشتنا على أساس أنه سيطلب إلى الرئيس أنور السادات إصدار هذا الأمر، وفى نهاية سبتمبر (قبل بدء العمليات بحوالى أسبوع) استدعانى الوزير إلى مكتبه، وسلمنى كتاباً لقراءته فأخذت فى قراءته فإذا هو توجيه بتوقيع السادات، يحدد واجب القوات المسلحة فى العمليات بشكل عام ، ولكن هناك جملة واحدة لفتت نظرى وهى **«حسب امكانيات القوات المسلحة»** كانت هذه الجملة من الناحية النظرية **تعنى أن القيادة العامة للقوات المسلحة هى التى تملك القرار الأخير فى تحديد ماهو ممكن وما هو غير ممكن »**.



وعند هذا الحد يبدأ الفريق سعد الشاذلى فى توجيه انتقاداته غير المبررة إلى المشير أحمد إسماعيل ويقول:

« لقد كان أحمد إسماعيل سعيداً بهذه الجملة، وإن كان تطور الأحداث فيما بعد قد أثبت أن الرئيس أنور السادات كان أكثر ذكاء عندما كتب هذه الجملة ، لأنها

تعطيه حق التنصل النهائى من أى عمل تقوم به القوات المسلحة، وهى تعلم أنه ليس فى طاقتها. وبعد أن قرأت التوجيه قلت لأحمد إسماعيل ضاحكاً :«مبروك لقد حصلت على ما تريد» وأعدت الكتاب لأنه كان باسمه، ولكن أحمد إسماعيل بطبيعته الحذرة أعاد الكتاب إلىّ مرة أخرى قائلاً : « أرجو أن توقع على هذا الكتاب بأخذ العلم » فأخرجت قلمى دون تردد وكتبت عليه «علِم، وسننتصر بإذن الله» ووقعت باسمى وتاريخ التوقيع على الوثيقة، ثم أعدته إلى الوزير».

وبعد هذا الحديث الرومانسى الجميل عن تصرفات جميلة ولكنها مسرحية فى الوقت ذاته، يعقب الفريق الشاذلى فى مذكراته بثقة ويقول:

« هذه هى قصة التوجيه الاستراتيجى التى ذكرها الرئيس أنور السادات فى الصفحة ٣٣١ من مذكراته، بأسلوب روائى يقول فيه «كنت قبل ذلك فى سبتمبر ١٩٧٣ قد أصدرت الأمر الاستراتيجى للقائد العام ووضعت فى تصورى الهدف الاستراتيجى وقد كان الأمر هو الأول من نوعه، فى تاريخ مصر الحديث» نعم لقد كان الأمر الأول من نوعه ولكن لماذا ؟ لأنه كانت هناك شكوك خفية - مهما حاول الطرفان إخفاءها - بين رئيس الدولة ووزير الحربية ».

هكذا يختزل الفريق الشاذلى عظمة التحديد والتوثيق والالتزام إلى حدود لا تتصل إلا بالشكوك، ولا يكلف الفريق الشاذلى نفسه التفكير فى البديل مع أن البدائل المرة كانت لاتزال تلقى بظلالها على حياة كل فرد من أفراد مجتمعنا بل أمتنا كلها.



ويستطرد الفريق الشاذلى إلى موضوع مسرحى آخر ليس له علاقة بهذه العظمة التى مارسها أحمد إسماعيل فيقول:

• وإن التناقض فى أقوال الرئيس السادات واضح فى هذه النقطة كما هو واضح فى نقاط أخرى كثيرة، ففى كتابه فى الصفحة ٣٣١ يقول إنه حرر التوجيه الاستراتيجى فى سبتمبر ووقع أمر القتال فى ٢ أكتوبر فى حين أن الصور الزنكوغرافية المنشورة فى الكتاب نفسه - بعد استبعاد الأخطاء اللغوية ، فى صفحة ٤٤٣ و ٤٤٤ تقول إن تاريخ الوثيقتين هو أول أكتوبر و ٥ أكتوبر على التوالى. بماذا يفسر لنا السادات هذا التناقض الغريب فى وثيقتين تاريخيتين يقول عنهما قمة العلم العسكرى !!».

ربما يبتسم القارىء الآن وهو يدرك حقيقة التفصيلات المتعلقة بهذا الموضوع من واقع ما قرأناه من قبل فى مذكرات المشير الجمسى، وهكذا يجد القارىء نفسه على درجة من العلم تفوق ما يريد الفريق الشاذلى أن يقدمه إليه مختزلاً. بينما رواية المشير الجمسى تبدو منطقية فضلاً عن إلمامها بكل التفصيلات والحوارات المتعاقبة.. ولكن هذا الطراز المختزل الذى كتب به الشاذلى مذكراته كان مطلوباً لتصوير شخصياتنا على هذا النحو الذى يظهر نقائصها.. ويظن أن هذا، بطريقة حتمية تلقائية، سوف يخدم عظمة الشاذلى وتصويره لنفسه.. بينما الأمر فى ضوء قراءة المذكرات الأخرى أو قراءة القصة كاملة يدلنا على مدى التجلى الذى يمارسه الشاذلى على نفسه أولاً، وعلى السادات ثانياً، وعلى أحمد إسماعيل ثالثاً، وعلى الإنجاز الذى شارك هو نفسه فيه رابعاً.

ثم تأخذ الفريق الشاذلى الحماسة ليحدثنا بدون مبرر وبدون مناسبة عن قضية مصطنعة هى تلك التى يطلق عليها اسم «تزوير الوثيقتين»، دون أن يعنى بأن يبين وجه التزوير الذى حدث للوثيقتين، هل يمكن اعتبار كتابة الوثيقتين على ورق متناسب مع طول وعرض مذكرات السادات (أو تصغيرهما - أو إعادة كتابتهما)

تزويرا؟ أم أنه يريد أن يقول إن المضمون قد تم تزويره، وإذا كان الأمر كذلك فما هى الجملة أو الفقرة التى زورت؟ ثم - وهذا هو الأهم - ماذا يستفيد السادات أو ماذا استفاد السادات بالفعل من هذا التزوير الذى يشير الشاذلى إلى حدوثه، ولن نقول يزعم الشاذلى حدوثه (؟!)

يبدو لى، والله أعلم، أن هذه الجملة التى يتهم فيها الشاذلى السادات بتزوير الوثيقتين لم تكن فى ذهن الشاذلى وهو يُملى مذكراته على مَنْ كتبها، لكن الذى كتب هذه المذكرات - حتى لو كان الشاذلى نفسه قد أقره - وجدها فرصة مواتية لاتهام الخصم (أى السادات) بالتزوير فى غمرة الهجوم عليه كما يحدث فى العادة فى حواراتنا الشرقية (أو فلنقل حواراتنا العربية حتى لانظلم الشرق كله ففى الشرق شعوب تبرأ من هذا الحماس المندفع) ولنقرأ هذا النص الحماسى (أو الساخن) للشاذلى:

«وإنى أعلن للملأ بأن هاتين الوثيقتين مزورتان، ليس لأن الوثائق الرسمية عليها توقيعى الشخصى فحسب، بل لأن هذه الوثائق كُتبت على أوراق يتناسب طولها وعرضها مع طول وعرض صفحات الكتاب الذى نشرت فيه مذكرات السادات».

هل لى أن أعقب هنا تعقيبا طريفاً فأذكر أن كتاب البحث عن الذات نفسه قد نشر فى حجمين مختلفين فنشرت الطبعة الشعبية فى الحجم ١٤ × ٢٠ على حين نشرت الطبعة الفاخرة فى حجم ١٧ × ٢٤ وهكذا فإن الوثيقتين اللتين تحدث الشاذلى عن تزويرهما بسبب اختلاف حجم الورق متاحتان (حتى فى الكتاب المطبوع) فى حجمين مختلفين لا فى حجم واحد!!!

هل يليق إذاً بكاتب أياً ما كان حتى لو كان كاتب مذكرات شخصية أن يندفع

إلى إلقاء الاتهام بالتزوير لمجرد اختلاف حجم الورق مع ما نعرفه الآن جميعاً من إمكانية تصغير وتكبير أى وثيقة.. وهل يكفى هذا الاختلاف لإقامة دعوى الاتهام بالتزوير دون أن يكون هناك اختلاف فى النص أو فى حروف الكتابة؟..

مع هذا فإننا نجد مذكرات الشاذلى تلجأ إلى نفس الأسلوب وإلى نفس الوصف تقريباً حين تتحدث عن الصور السينمائية التى نشرت للجنود وهم يعبرون القناة، وكلنا يعرف أنها صورت بعد الحرب لا فى أثناء العبور، ولكن الفريق الشاذلى حين يريد التعبير عن هذا الذى نعرفه جميعاً ونعرف أن الجدية الشديدة والسرية الأشد كانت السبب وراءه ونقدر من أجله وصول القوات المسلحة إلى منتهى الجدية فى أنها لم تتح فرصة لأى ثغرة فى سرية العمليات بسبب التصوير، حين يريد الشاذلى وصف هذا الخلق العظيم فإنه يقول إن الصور «مزيفة». وقد انتقدنا هذا اللفظ منه فى عرضنا لمذكراته فى كتابنا «النصر الوحيد».



وربما ندرك الآن وقد تباعدت الأحداث حقيقة مهمة وهى أن أحمد إسماعيل كان يتمتع بقدر من الحنكة يفوق ما يتمتع به رئيسا الأركان اللذان عملا معه على التوالى (الشاذلى والجمسى)، وليس هناك محل للحديث اللاوى لعنق الحقيقة عن بيروقراطيته أو خوفه استنادا إلى مثل هذا الموقف الواعى والذكى، ولسنا نستطيع أن ننكر أن أحمد إسماعيل كان قد تمتع بخبرة قيادية تفوق خبرات الشاذلى والجمسى بمراحل كثيرة، فقد عمل قائداً للجبهة كلها بعد حرب ١٩٦٧، كما عمل رئيساً للأركان فى ١٩٦٩، كما تولى رئاسة المخابرات العامة، وفيما قبل هذا فقد كانت فرصته للاحتكاك بعبدالناصر وبالسادات وبفهم عقليات وتصرفات هذين الرئيسين أكبر بكثير جداً من خبرة أى قائد آخر من قادة القوات المسلحة فى ذلك الوقت، فهو فى الأصل من دفعة جمال عبدالناصر، كما أنه منذ قيام الثورة أصبح

أحد القادة المتقدمين والمحترفين الذين تولوا قيادات متعاقبة مهمة على مدى العشرين عاما (١٩٥٢ ـ ١٩٧٢) التى سبقت توليه لمنصب القيادة العامة للقوات المسلحة وليكون خامس مَنْ تولى هذا المنصب فى عهد الثورة بعد اللواء **محمدنجيب** والمشير **عبدالحكيم عامر** والفريق أول **محمد فوزى** والفريق أول **محمد صادق**.



ولسنا نستطيع أن ننكر أن الجو العام للعلاقات السياسية فى بداية عهد الرئيس السادات كان حافلاً بالفرص والاحتمالات الكفيلة بافساد أى علاقة ثنائية على أى مستوى من المستويات الموجودة، ومع أن العلاقة بين القائد الأعلى والقائد العام أسمى وأعلى من أن تخوض فيها الأقلام والألسنة فإننا نجد فى بعض الأدبيات ما يشير إلى محاولات كثيرة لافساد العلاقة بين الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل، بيد أنه لابد لنا أن نعترف بأن حكمة الرجلين قد انتصرت على مثل هذه المحاولات وعلى سبيل المثال فاننا نجد فى كتاب الأستاذ موسى صبرى «السادات: الحقيقة والأسطورة» هذه الواقعة التى رواها فى معرض حديثه عن أشرف مروان ومثالبه.

....

«وقد تسبب أشرف مروان فى أزمة خطيرة بين الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل. كان المشير قد استقبل عضو مجلس الثورة الليبى ووزير الدفاع.. وحدث حوار عنيف بينهما وقد لقنه المشير أحمد إسماعيل درساً قاسياً. وغضب القذافى وأرسل إلى الرئيس السادات يطلب إخراج المشير أحمد إسماعيل. وأراد السادات أن يمتص غضب القذافى وأن يسايره فى تفكيره حتى تنتهى الأزمة، وأرسل إليه بما

يعلى أن المشير أحمد إسماعيل لن يكون عقبة فى العلاقات بين مصر وليبيا. تم هذا دون علم المشير أحمد إسماعيل.. وكان هدف الرئيس السادات هو إنهاء الأزمة. ولكن أحمد إسماعيل علم بالواقعة وصرح بأن أشرف مروان هو الذى أبلغها له. وغضب، وكتب استقالته وهو فى قمة الألم.. وهو متصور فعلاً أن الرئيس السادات يمكن ان يضحى به.. لإرضاء القذافى، ولكن شخصاً غاقلاً تدخل لدى المشير أحمد إسماعيل وهدأ من خاطره.. وأوضح له كل الظروف المحيطة بالموضوع.. وانتهى غضب أحمد إسماعيل.. ولم يعلم الرئيس السادات بما جرى حتى موته».



على كل الأحوال فإن تعاقب الأحداث بعد حرب أكتوبر لم يدع فرصة لظهور خلافات بين الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل (نقول ظهور ولا نقول نشوب خلافات فذلك أكبر من طاقاتنا على التوصل إلى حقيقة ما حدث على هذا المستوى)، لكن القارىء الجيد للتاريخ يستطيع أن يلمح أن أحمد إسماعيل لم ينل ما كان ينبغى أن يناله من تكريم يليق بالإنجاز الكبير الذى حققه لوطنه، وربما أسهم أحمد إسماعيل نفسه فى هذا فقد كان يترك الفرصة لمرءوسيه ليتصلوا بالصحافة والإعلام أكثر منه، وكانت ثقته فى الله أكبر من ثقته فى البشر، وليس سراً أن موسى صبرى (على سبيل المثال) كان يظن أن الشاذلى هو صاحب الإنجاز، وظل يستمع إلى الشاذلى دون أن يكلف نفسه عناء البحث الحقيقى عن دور أحمد إسماعيل.. وفى المقابل فإن أحمد إسماعيل اكتفى من الأحاديث الصحفية بحديث مع هيكل فى ١٩٧٣ وحديث ثان فى ذكرى النصر ١٩٧٤ مع أحمد بهاء الدين الذى كان قد حل محل هيكل فى الأهرام وعندما ذهب إليه عبدالستار الطويلة بتكليف من السادات ليحصل منه على بعض المعلومات عن الحرب والعبور صارحه بقوله إنه يعتذر أنه لا يعرفه فهو لا يكاد يعرف من الصحفيين إلا موسى

صبرى وحسنين هيكل وأنيس منصور، وهذا هو عبد الستار الطويلة يروى هذه الواقعة فى كتابه «السادات الذى عرفته» فيقول:

«مرة واحدة قال لى المشير أحمد إسماعيل في دهشة وهو يضحك: يا أخويا إيه اللى مخلى سيادة الريس يحط الوثائق والمعلومات دى كلها معاك! مين اللي موصيه عليك؟!».

«كان السيد سيد مرعي جالساً معنا.. فقال له كلاماً طيباً فى حقى.. وكيف أن هذا هو سبب ثقة الرئيس فىّ».

«فقال المشير: والله أنا آسف يا ابنى أصل ما سمعتش عنك قبل كده.. أنا أسمع عن موسى صبرى وحسنين هيكل وأنيس منصور.. أما أنت دى أول مرة أعرفك وأسمع عنك!».



وفى رأيى المتواضع أن أحمد إسماعيل شغل بصنع النصر عن صنع المجد..

ولم يكن الرئيس السادات غافلاً عن هذا بالطبع، ولكنه لم يكن ليكلف نفسه عناء تحقيق الصورة أو توضيحها على نحو ما ينبغى أن يوضحها، بل ربما إن السادات كعادته فى ترك الأمور تصطرع ترك البعض يوجه الانتقادات بالحذر والتريث إلى القوات المسلحة فى إدارتها لحرب أكتوبر ١٩٧٣ وكأنما كانت القوات المسلحة فريقاً يلعب مباراة رياضية ليس إلا.



وعلى كل الأحوال فقد كان السادات يعرف قدر أحمد إسماعيل جيداً سواء قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ وبعدها.

ويكفى أن نقرأ بيان السادات فى نعيه لندرك هذه المعانى:

«ينعى رئيس الجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة إلى الشعب المصرى والأمة العربية ابنا من أبنائها سيظل اسمه مقترنا فى التاريخ بالأمجاد العسكرية المصرية وبطولات العبور العظيم إلى النصر، المشير أحمد إسماعيل على نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية، مضت نفسه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية بعد ملحمة من الألم والشجاعة طواها على الناس جميعا وهو يبذل آخر شعاع من نفسه فى تدعيم وتطوير القوات المسلحة لتظل الدرع الحامية لكل حقوق ومنجزات شعبنا العظيم».

«مضى إلى ربه الرجل الذى أشرف معى ومع الأخوة السوريين على إعداد وتدريب جيوش النصر وأسهم بقدرته العسكرية الفذة فى تحويل الهزيمة إلى نصر وفى تحطيم خط بارليف وأسطورة جيش إسرائيل الذى لا يهزم».

«لقد كانت القوة الحقيقية لأحمد إسماعيل على فى أنه بعد إيمانه بالله آمن بالجندى المصرى وبشجاعته وبطولته واستعداده للتضحية، كما كان - رحمه الله - يرى أن إيمان الجندى بالله هو نصف المعركة، وأن إيمان الجندى بالوطن هو نصفها الآخر».

«لقد كان أحمد إسماعيل فى أيام الهزيمة قائد خط الدفاع الأخير، وكان فى أيام النصر قائد خط الهجوم الأول، وسيبقى فى وجدان الأمة كلها وفى تاريخها رمزا شامخا للعسكرية المصرية والشجاعة المصرية».

13

أحمد إسماعيل
وسعد الشاذلى

ربما يجدر بنا أن نبدأ هذا الباب بالإشارة إلى حقيقة مهمة أشرنا إلى أجزاء منها في كتابنا «النصر الوحيد» ذلك أن وضع الفريق سعد الشاذلي في القوات المسلحة المصرية كان وضعا استثنائياً خاصاً خلقه الرئيس أنور السادات بإرادته ومعرفته وطريقته التي ربما لا نفهمها جيداً ولكننا جميعاً نقدرها حق قدرها حتى إن بعضنا يصفها بالعبقرية.

كان الفريق الشاذلي قد تخرج في الكلية الحربية في دفعة أول يوليو ١٩٤٠ وهكذا كان تالياً في كشف الأقدمية لمجموعة كبيرة من القادة الذين أصبح رئيساً عليهم بفضل قرار السادات اختياره رئيساً للأركان عقب حركته التصحيحية في مايو ١٩٧١ ، وقد خرج بعض هؤلاء من الخدمة في الفترة ما بين مايو ١٩٧١ واندلاع الحرب في أكتوبر ١٩٧٣ ولكن بعضهم بقيَ أيضاً في الخدمة حتى اشترك في الحرب في ظل رئاسة الشاذلي للأركان وربما كان المشير الجمسي نفسه أبرز هؤلاء، فالرجل الذي تخرج في دفعة ١٩٣٩ وصل إلى مناصب رئيسية ومتقدمة

جداً فى القوات المسلحة منذ ١٩٦١ حيث عين قائداً للمدرعات كما عين رئيسا لهيئة العمليات فى القوات البرية (١٩٦٦) ورئيساً للعمليات فى مركز القيادة المتقدم فى حرب ١٩٦٧ ثم رئيساً لأركان الجبهة عقب هزيمة ١٩٦٧ (حين عين أحمد إسماعيل نفسه قائداً لهذه الجبهة)، ثم أصبح نائباً لمدير المخابرات الحربية (١٩٦٨) ورئيساً لهيئة التدريب (١٩٧١) ثم رئيساً لهيئة العمليات (بداية ١٩٧٢).. هكذا فإن الجمسى الذى كان رئيساً للعمليات فى حرب أكتوبر كان قد مرّ برئاسات عديدة على مدى السنوات العشر السابقة حيث رأس من الإدارات الرئيسية: المدرعات، والتدريب، والعمليات فضلاً عن رئاسته للعمليات وللأركان فى الجبهة وعمله كنائب لمدير المخابرات الحربية.. أما الفريق الشاذلى فإنه فى مقابل هذا كله تولى قيادة وحدات المظلات عقب هزيمة ١٩٦٧ ثم أصبح رئيسا للمنطقة العسكرية فى البحر الأحمر، وكان فى حرب اليمن قبل هذا قد تولى قيادة قوة خاصة فى الجوف.. كما كان فى حرب ١٩٦٧ قد تولى قيادة قوة خاصة جُمعت مع بعضها دون أن تؤدى شيئاً ذا بال على نحو ما يروى الفريق أول مرتجى فى مذكراته.

لكن المفاجأة الكبرى حدثت عند إجراء السادات لحركته التصحيحية فى مايو ١٩٧١، حيث قفز اللواء سعد الشاذلى خريج دفعة يوليو ١٩٤٠ ليكون رئيساً للأركان وليسبق بهذا عدداً كبيراً من القادة الذين كانوا يتولون مواقع قيادية فى القوات المسلحة لم يمر بها سعد الشاذلى نفسه، ومع أن التقليد العسكرى قد يتطلب فى مثل هذه الحالة خروج كل مَنْ هم أقدم من سعد الشاذلى، إلا أن هذا لم يحدث ولا حتى بطريقة جزئية، ويبدو أنه كان هناك أكثر من سبب لهذا، فقد كان المناخ العام مناخ انكسار لا يسمح بالتفكير فى مثل هذه الترتيبات، كما كانت الظروف المحيطة فى ذلك الوقت تشهد توترا لا مثيل له، وقد خرج معظم أقطاب السلطة الفعلية فى الوطن فى أسبوع واحد أو فى يوم واحد من مناصبهم إلى المعتقل بمن فيهم وزير الحربية نفسه، ومدير المخابرات العامة، ووزير الداخلية، فضلاً عن عدد آخر من الوزراء وأعضاء اللجنة التنفيذية العليا، كذلك فقد كان القادة الذين تخطاهم سعد

الشاذلى بتعيينه فى هذا المنصب يشغلون بالفعل مناصب قيادية كبيرة تكاد تقترب فى أهميتها بالطبع من منصب رئيس الأركان نفسه، وكان عدد كبير من هؤلاء القادة أنفسهم قد شهدوا اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة الذى عقده الفريق أول محمد فوزى فى أبريل ١٩٧١ واستطاع أن يحصل من أعضائه على تأييد شبه جماعى على رأيه فيما يتعلق باتفاقية الوحدة مع سوريا ومع ليبيا، وكان رأيه معارضاً لرأى رئيس الجمهورية نفسه الرئيس السادات، وقد قلنا إنه حصل على تأييد شبه جماعى لأن واحداً من الحاضرين أيد الرئيس السادات ولم يؤيد الفريق فوزى، وكان هذا الواحد هو سعد الشاذلى نفسه!



ويرى الفريق أول محمد أحمد فوزى وآخرون أن هذا هو السبب الذى صعد بالشاذلى إلى رئاسة الأركان، بينما يعارض الشاذلى نفسه فى مذكراته هذا الرأى دون أن يقدم الدليل، لكنه يذكر (ولا نقول كما يقول الآخرون يعترف) أنه بهذا الاختيار قد تخطى أكثر من ثلاثين من القادة السابقين عليه فى كشف الأقدمية.

قد يكون من المهم هنا أن نشير إلى أن المشير الجمسى والمشير محمد على فهمى هو الآخر، وهما رئيسا الأركان التاليان للشاذلى فى هذا المنصب، كانا سابقين عليه فى الدفعة حيث تخرجا فى الكلية الحربية فى نوفمبر ١٩٣٩، وبالإضافة إليهما كان لا يزال فى الخدمة من نفس الدفعة كل من: اللواء على عبدالخبير أحد رجال الفريق أول صادق وقائد المنطقة العسكرية المركزية، واللواء أحمد مدير عبدالرحيم مدير شئون الضباط الشهير، واللواء محمد أحمد فائق البوريني.. وعدد آخر من كبار القادة.

ويبدو لى أن الشاذلى لم يتجاوز زملاءه الباقين فى خدمة الجيش فقط، لكنه تخطى أيضاً عدداً من اللواءات فى الأفرع الأخرى للقوات المسلحة كانوا قد سبقوه إلى رتبة اللواء طبقاً لظروف هذه الأفرع.

سعد الشاذلى إذاً هو رجل السادات فى القوات المسلحة، على نحو أو آخر شبيه، مع الفارق، بكون عبدالحكيم عامر رجل عبدالناصر فى القوات المسلحة، ومع أن عبد الحكيم استمر سنوات أطول ونال دَفْعة أبعد من دَفْعة سعد الشاذلى، فإن سعد الشاذلى جاء على غير معرفة أو صداقة ممتدة مع السادات، وجاء من رتبة متقدمة هى رتبة اللواء، أى أنه جاء بإمكانات عسكرية وقيادية متميزة على النقيض من موقف عبدالحكيم عامر الذى لم يكن بنفس القوة حين جاء، وجاء الشاذلى إلى موقع عمل شاق لا إلى موقع نفوذ ومجد فحسب.



ولكن يبدو أنه فى كلتا الحالين (عامر والشاذلى) كان الموقف فيما يتعلق بكشف الأقدمية قلقا وباعثاً على التفكير، وفيما يبدو فإن أنور السادات بطريقته المنفتحة على كل الجبهات استشعر هذا بين القادة، ولهذا فإنه لم يستطع تصعيد سعد الشاذلى إلى موقع الفريق صادق رغم ضجره الشديد من الفريق أول محمد أحمد صادق وتصرفاته وآرائه وسياساته ومخالفاته، لهذا فكر السادات أن يعود خطوة إلى الأقدم، أو هكذا عبر عبدالمنعم خليل عن إحساس القادة المخضرمين فى مرحلة مبكرة بتفكير السادات فى إسناد منصب الوزير القائد العام إلى أحد الرجلين: محمد حافظ إسماعيل (دفعة يوليو ١٩٣٧)، أو أحمد إسماعيل (دفعة يوليو ١٩٣٨).

ويبدو أن الشاذلى المتحالف تماماً مع السادات كان يتفهم دوافع السادات فى أكتوبر ١٩٧٢ حين قرر عزل الفريق صادق وأخبره بهذا قبل أن يخبر صادق، وأخبره أيضاً باختياره أحمد إسماعيل ليكون خلفاً للفريق صادق، معبراً للشاذلى عن توقعه أن يكون تعاونه مع أحمد إسماعيل أفضل بكثير من تعامله مع صادق، وكل هذا على حد رواية الفريق الشاذلى نفسه، وإن كان هذا لا يمنع من صواب الرأى القائل بأن الفريق الشاذلى كان يتطلع بشدة إلى أن يحتل هو نفسه موقع القائد العام فى أقرب فرصة، وفى الحقيقة فإنه رغم كل الذى نشره الفريق سعد الشاذلى عن

خلافه مع المشير أحمد إسماعيل، فإن هذا الخلاف يبقى فى حدود أقل من خلافه مع الفريق صادق، كما نرى فى مذكراته.



وعلى الرغم من أنه مضى من الزمان ما كان كفيلاً بأن ينصف الشاذلى من السادات، فإن العكس هو الذى حدث، فقد مضى الزمن فإذا بالبطولات المنسوبة إلى الشاذلى تتضاءل، وإذا بالحقائق التى تذاع عن حرب أكتوبر ترفع من قيمة نظرة السادات، وإذا الناس ينتبهون إلى ما ذكره الشاذلى نفسه فى مذكراته من أنه لم يكن - كما أشيع - صاحب فكرة الإسراع بتطوير الهجوم، بل إنه بصريح عبارته كان ضد فكرة تطوير الهجوم نفسه وقد أشرنا إلى هذا من قبل.



وأحب أن أبدأ بإلقاء إضاءة سريعة تمثل رأيى المتواضع فى طبيعة الخلاف بين الرئيس السادات وبين الفريق الشاذلى، وهو الرأى الذى ذكرته فى كتابى «النصر الوحيد» حيث قلت إنى أعتقد بكل وضوح أن الرجلين كانا حتى وقع الخلاف بينهما يحب بعضهما بعضا، بل ربما كانا متيمين ببعضهما، إذ لا تكفى كلمة الحب للتعبير عن إخلاص بعضهما لبعض ولوطنهما، لكن السبب الرئيسى كما تكشف عنه مذكرات الشاذلى نفسها كان الاختلاف فى مجال الرؤية أمام الرجلين، وليس للشاذلى مسئولية عن هذا ولا يد له فيه، وعلى حين كان مجال الرؤية أمام السادات واسعاً وعريضاً وممتداً، فإن مجال الرؤية أمام الشاذلى كان أضيق بكثير، ولكن طموح الشاذلى لوطنه وشعبه وجيشه (ولنفسه أيضاً) كان أكبر بكثير جداً من مجال رؤيته، وعلى حين كان السادات يستشرف بكل وسيلة أن يكسب الحرب كلها، فإن الشاذلى كان حريصاً بكل وسيلة على أن يكسب معركة الثغرة، ويبدو لى أن السادات كان بدهائه يخشى أن يكسب معركة الثغرة ويخسر الحرب، لهذا فإنه لم يكن على أى استعداد للمضى مع الشاذلى فى مشورته ولا اقتراحاته.

على أن هذا كله لم يفسد للود الكبير قضية، ويبدو أن قدرة كل من الرجلين على تحمل الآخر ظلت تحتفظ بحدود أكثر بكثير من الحدود الدنيا الكفيلة ببقائها إلى أن تمكن فيروس الإعلام من أن يهدد هذه العلاقة فى ديسمبر ١٩٧٣ حين أدلى الشاذلى بحديث إلى مندوب مجلة «النيوزويك» الأمريكية اعترضت المخابرات الحربية على بعض ما فيه، ثم فوجئ بالأهرام يصدر وبه عناوين تصريحات منسوبة إلى قيادة قوات الطوارئ بأن مصر تقدمت عشرة كيلومترات.. وبوسع القارىء إلى أن يعود إلى تفاصيل القصة على نحو ما يرويها الشاذلى نفسه وتعليقى عليها فى الباب الثانى من كتابى «النصر الوحيد»، ولازلنا حتى الآن لا نعرف الوجه الآخر لهذه القصة التى كانت بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير فى علاقة الشاذلى لا بالسادات وحده ولكن بالدولة والقوات المسلحة والمخابرات الحربية.. وربما تكون وثائق كواليس هذه القصة ضمن الوثائق التى يحتفظ بها أصحابها خارج مصر.. ولكنى لازلت أجد السياق الذى قدمه الشاذلى عنها غير كاف حتى لإقناعه هو بما حدث يومها بالضبط.



ونعود إلى موضوع هذا الباب وهو علاقة أحمد إسماعيل بسعد الشاذلى، ونحن نفهم أن أحمد إسماعيل حين تولى منصب القائد العام للقوات المسلحة ووزير الحربية فى أكتوبر ١٩٧٢ لم يكن مطالب بالتغلب على صعوبة مثل هذا المنصب فحسب، ولكنه كان فى الوقت ذاته مطالباً أن يحل مشكلات زمنية خلقها الرئيس السادات (بذكاء وبحسن نية أو بغير حسن نية) على قمة الهرم القيادى فى القوات المسلحة.. ومن حسن حظ مصر أن أحمد إسماعيل كان على مستوى المسئولية فى هذه الجزئية كما كان شأنه فى الجزئيات الأخرى.

ولكن المشكلة كانت فى إمكانية صبر سعد الشاذلى على اللحظة التى يتحينها ليتوج حياته العسكرية بما لم يكن، فى الواقع، فى حاجة إليه، وهو منصب القائد

العام.. ولو أن الشاذلى أخرج الطموح إلى هذا الموقع من حساباته لظل فى وجدان أمته فى مكانة رفيعة جداً.. ولكنه لم يكن قادراً على هذه الخطوة.. لا نقول الجبارة ولا البسيطة.. ولكن نقول المطلوبة.

وحين تأزمت أمور سعد الشاذلى أثناء حرب أكتوبر وبعدها فقد كان من السهل عليه أن يلقى بأعباء مشكلته على أحمد إسماعيل وبخاصة أن أحمد إسماعيل كان قد انتقل إلى رحمة الله عقب الحرب بأربعة عشر شهراً فقط.

ومن العجيب أننا نرى الشاذلى حسبما كتب فى مذكراته مندفعاً إلى تأصيل الخلاف بينه وبين أحمد إسماعيل، وليس هذا بالأمر العجيب، فقد كان فى وسع الشاذلى، بظروفه التى خلقها الرئيس السادات، أن يجد نواة لخلافه مع أى قائد من قادة حرب أكتوبر، وعلى سبيل المثال فإنه على نحو ما أوضحنا فى الفقرات السابقة كان قد سبق كثيرين من القادة وبهذا فقد كان بوسعه أن يفسر اختلاف هؤلاء معه على أنهم كانوا ينفسون عليه مكانته الجديدة، بل إنه على سبيل المثال كان معارضاً لكل زملائه الأقدم منه فى الاجتماع الذى سبق أحداث ١٤ مايو ١٩٧١ .

بل إنه، للمرة الثالثة، كان قادراً على أن يجد بذوراً كثيرة لمشروعات خلافات مع زملائه الأحدث منه، وعلى سبيل المثال فإنه حين نتأمل علاقته بعبد المنعم خليل الذى هو تالٍ له فى الدفعة نجده (أى الشاذلى) قد خلف عبدالمنعم خليل (الأحدث منه) فى منصبه كقائد للمظلات على الرغم من الشهرة التى تمتع بها الشاذلى نفسه كمظلى!! أى أن الضابط الأحدث الذى لم يشتهر كمظلى كان قد تولى قيادة المظلات نفسها قبل سعد الشاذلى نفسه.. وهكذا يمكن أن نتأمل الشاذلى حين ذهب إلى الجبهة وهو رئيس للأركان بينما عبدالمنعم خليل، قائد للجيش الثانى، فاذا به يتصرف كقائد للجيش الثانى بدلا منه.

وهكذا كانت نواة الاختلاف بين الشاذلى وبين غيره من القادة الأقدم والأحدث

موجودة على الدوام ولم تكن هذه النواة مقتصرة على علاقته مع أحمد إسماعيل كما قد يتوهم بعض القراء.



ونعود، مرة ثانية، إلى موضوع هذا الباب وهو طبيعة العلاقة بين المشير أحمد إسماعيل والفريق الشاذلى. ربما كان من الأوفق أن نبدأ الاجابة على هذا السؤال بايراد شهادة الرجل الثالث فى القيادة (أى المشير الجمسى) حول هذا الموضوع.. وفى الواقع فإن المشير الجمسى لا يجد أى حرج فى أن يقيم [من وجهة نظره بالطبع] علاقة المشير أحمد اسماعيل بالفريق سعد الشاذلى قبل حرب أكتوبر وبعدها، وهو يؤكد أن الاستعداد للحرب كان يستنفد كل طاقتهما ولكن الأمور اختلفت أثناء الحرب... وفى هذا المعنى يقول الجمسي:

« ... وبرغم الخلافات التى كانت قد ترسبت فى نفس كل من الفريق أول أحمد إسماعيل والفريق الشاذلى ، إلا أنى أقرر أن الاستعداد للحرب كان يستنفد جهد كل منهما ، كما كان الشغل الشاغل لكل القوات المسلحة ، ولذلك لم تظهر أمامى خلافات هامة بينهما تؤثر على ا حضير والإعداد للحرب».

« أما أثناء إدارة العمليات الحربية خلال حرب أكتوبر ، فقد اختلف رأى كل منهما عن الآخر فى معالجة المواقف التى واجهتنا فى المرحلة الأخيرة من الحرب. ففى هذه الفترة ظهرت شخصية كل منهما التى تختلف عن الأخرى، وظهر تفكير كل منهما الذى يختلف عن الآخر ، وأصبح واضحاً تماماً أن كلا منهما فقد ثقته فى الآخر، الأمر الذى كان له أثر سلبى ـ عسكرياً ـ فى الأيام الأخيرة من الحرب».



بعد هذه الشهادة الموجزة يبدو لى أن أشير إلى أن فهم طبيعة العلاقة بين المشير أحمد إسماعيل والفريق سعد الشاذلى تستدعى العودة إلى الوراء قليلا لتأمل علاقة الفريق الشاذلى بالفريق صادق..

ذلك أنه فى ١٤ مايو ١٩٧١ أصبح الفريق أول صادق وزيراً وقائداً عاماً، وأصبح الشاذلى رئيسا للأركان، فهل كان من المتوقع أن تستقر الأمور؟

يبدو أنه كان من الطبيعى - تبعا للشواهد والخلفيات - أن يصطرع الوزير الجديد (صادق) ورئيس الأركان الجديد (الشاذلى)، وهو ما حدث بالفعل، وكان المنطق يفترض أن رئيس الأركان الجديد قد يحل محل الوزير فى أول تغيير قادم من تغييرات السادات المتكررة والسريعة الإيقاع، ولكن القدر لا يداوم اللعب لصالح فرد واحد.. وهكذا فإنه بعد سبعة عشر شهرا استدعى السادات رئيس الأركان لينهى إليه أنه أقال الوزير.. وليخبره فى الوقت نفسه بأنه اختار وزيرا جديدا للحربية كان هو الفريق أحمد إسماعيل الذى احتك به الشاذلى نفسه فى فترة سابقة من شبابهما.. ولم يكن خلافهما قد وصل أبدا إلى مرحلة أنهما خصمان لدودان كما تحب بعض الأقلام أن تصور الموقف، فقد كانت الفجوة (الوظيفية) بينهما كبيرة بحيث لم يكونا أبدا فى موقعين متوازيين أو متكافئين، وكانت هذه الفجوة الوظيفية والبروتوكولية أكبر بكثير من الفجوة بين دفعتيهما، ذلك أن دفعة أحمد إسماعيل كانت محظوظة بكثير عن دفعة الفريق الشاذلى فالأولى هى دفعة الرئيس عبدالناصر، وهى سابقة على دفعة المشير عبدالحكيم عامر الذى وصل إلى رتبة المشير، وهكذا كان مَنْ بقوا منها فى خدمة القوات المسلحة قد وصلوا إلى مواقع متقدمة فى فترة زمنية سابقة، وليس هذا هو الحال مع الشاذلى ودفعته. وفضلا عن هذا فإنهما (أى أحمد إسماعيل والشاذلى) لم يخدما بعد خلافهما المبكر فى الكونغو فى سلاح واحد أو مكان واحد يتيح لخلافهما أن يظهر أو يتفاقم.

ولهذا فإنى أميل بكل قوة إلى أن أحصر التعبير عن علاقة أحمد إسماعيل والشاذلى فيما بين أكتوبر عام ١٩٧٢ وأكتوبر عام ١٩٧٣ فى إطار أنهما كانا متعاونين إلى أقصى ما يمكن لبشرين أن يتعاونا، وقد استمر هذا التعاون حتى فى

أثناء العمليات الحربية، على الرغم من وجود مرارة خلاف مبكر أو ذكرى خلاف مبكر مضى عليه أكثر من عشر سنوات، حين كانا لا يزالان فى نهايات الشباب.

بل إننى أستطيع أن أذهب إلى ماهو أبعد من ذلك، فأزعم أن علاقة الرجلين كانت أفضل بكثير جدا من العلاقات السابقة، سواء فى ذلك علاقة صادق (كوزير) بسعد الشاذلى (كرئيس أركان)، أو علاقة محمد فوزى (كوزير) بصادق (كرئيس أركان).

ولست فى حاجة إلى أن أستهلك وقت القارئ فى تحليلات نفسية واجتماعية وسياسية، ولكنى سأكتفى فى تأييد وجهة نظرى بالإشارة إلى ما تضمنته وجهة نظر المشير الجمسى، التى أوردتها فى فقرة سابقة من هذا الباب، حيث يؤكد أن العمل الجاد من أجل المعركة كان يستغرق وقت الرجلين بحيث لم يظهر خلافهما أبدا على السطح.



على أن هذا لا ينفى حقيقة أن الشاذلى قد صعّد من خلافاته مع الرئيس القائد الأعلى، ومع الوزير القائد العام على نحو ما يرويه هو نفسه فى مذكراته بتفصيل تام، وبوسع القارىء أن يعود إلى مذكرات الشاذلى أو أن يعود إلى مدارستنا لها فى الباب الثانى من كتابنا «النصر الوحيد»، وقد أوصل الشاذلى الأمور إلى حد أنه لم يكن هناك بد من أن يترك الشاذلى نفسه موقعه المتقدم فى القوات المسلحة، وقد نال الشاذلى (بفضل حرص السادات على الصورة العامة المواكبة للانتصار) موقعا يليق به وبماضيه العسكرى وعين سفيرا ممتازا فى لندن، ولكنه مع ذلك لم يكن سعيدا ولا راضيا وإن احتفظ بغضبه بينه وبين نفسه.

وفيما بعد شهور قليلة بدأ الشاذلى سلسلة من المبادرات (أو التصرفات) الفردية التى يمكن وصفها بأنها تخرج عن حدود الالتزام، ووصلت هذه المبادرات إلى

أثناء العمليات الحربية، على الرغم من وجود مرارة خلاف مبكر أو ذكرى خلاف مبكر مضى عليه أكثر من عشر سنوات، حين كانا لا يزالان فى نهايات الشباب.

بل إنى أستطيع أن أذهب إلى ماهو أبعد من ذلك، فأزعم أن علاقة الرجلين كانت أفضل بكثير جدا من العلاقات السابقة، سواء فى ذلك علاقة صادق (كوزير) بسعد الشاذلى (كرئيس أركان)، أو علاقة محمد فوزى (كوزير) بصادق (كرئيس أركان).

ولست فى حاجة إلى أن أستهلك وقت القارئ فى تحليلات نفسية واجتماعية وسياسية، ولكنى سأكتفى فى تأييد وجهة نظرى بالإشارة إلى ما تضمنته وجهة نظر المشير الجمسى، التى أوردتها فى فقرة سابقة من هذا الباب، حيث يؤكد أن العمل الجاد من أجل المعركة كان يستغرق وقت الرجلين بحيث لم يظهر خلافهما أبدا على السطح.



على أن هذا لا ينفى حقيقة أن الشاذلى قد صعّد من خلافاته مع الرئيس القائد الأعلى، ومع الوزير القائد العام على نحو ما يرويه هو نفسه فى مذكراته بتفصيل تام، وبوسع القارىء أن يعود إلى مذكرات الشاذلى أو أن يعود إلى مدارستنا لها فى الباب الثانى من كتابنا «النصر الوحيد»، وقد أوصل الشاذلى الأمور إلى حد أنه لم يكن هناك بد من أن يترك الشاذلى نفسه موقعه المتقدم فى القوات المسلحة، وقد نال الشاذلى (بفضل حرص السادات على الصورة العامة المواكبة للانتصار) موقعا يليق به وبماضيه العسكرى وعين سفيرا ممتازا فى لندن، ولكنه مع ذلك لم يكن سعيدا ولا راضيا وإن احتفظ بغضبه بينه وبين نفسه.

وفيما بعد شهور قليلة بدأ الشاذلى سلسلة من المبادرات (أو التصرفات) الفردية التى يمكن وصفها بأنها تخرج عن حدود الالتزام، ووصلت هذه المبادرات إلى

استطاع أن يتسنم فى أقل من خمس سنوات قمتى الحرب والسلام معا بينما الشاذلى من خارج وطنه يحاول أن ينتقص بكل وسيلة من قدر السادات.

وقد واجه الشاذلى بسبب نشره كثيراً مما نشر من أسرار عسكرية فى هذه المذكرات أحكاما عسكرية صدرت عن قضاء عسكرى ملتزم بالقانون العسكرى الذى يضمن لنا جميعا العيش فى وطن آمن منتصر.



يخصص الفريق الشاذلى عديداً من فقرات مذكراته لانتقاد المشير أحمد إسماعيل، ويمكن القول بأن مذكرات الفريق سعد الشاذلى تعد بمثابة قصيدة هجاء طويلة فى ذلك القائد العظيم الذى انتقل إلى رحمة ربه قبل أن ينشر الفريق سعد الشاذلى مذكراته ، وربما أجد من الصعب علىّ أن أبدو محايداً فى نقل آراء الفريق سعد الشاذلى فى المشير أحمد إسماعيل، وربما لو كنت تركت الأمر لعقلى الباطن ، لوجدتنى على الاقل أندفع من دون أن أدرى إلى اختصار انتقادات الفريق سعد الشاذلى التى يوجهها إلى المشير أحمد إسماعيل أو إلى إهمال بعضها أو إلى التقليل من قيمة بعضها الآخر، ولكنى فى الواقع حريص على أن أكون متوافقا تماما مع منهجى فى كل كتب التراجم التى وضعتها، وكل الكتب التى خصصتها لدراسة وتحليل ونقد الكتب التى تتناول التجارب الذاتية.

ومع هذا فإنى أحب أن أذكر القارئ بحقيقة بسيطة ومتواضعة وهى أن كل ما نقرؤه للفريق سعد الشاذلى فى مذكراته يمكن للفريق سعد الشاذلى نفسه أن يرد عليه بمنتهى البساطة لو كان قد وصل إلى ما وصل إليه المشير أحمد إسماعيل من خبرة طويلة بالمواقع القيادية ، وبعلاقة القيادات العسكرية بالقيادة السياسية، وللقارىء أن يتصور نفسه وهو ينتقد رؤساءه القدامى، وللقارىء أن يتصور نفسه مرة أخرى مُنتقَداً من زملائه الأحدث منه، إذا تمكن القارىء من هذا التصوير أو

من هذا التصور فسوف يدرك حقيقة ما كان بين الرجلين حتى وإن كان خلافهما الشخصى قديماً جداً منذ أيام الكونغو أو منذ أيام الفراعنة، ولعلى أشير هنا إلى أنى فى كتابى «شمس الأصيل فى أمريكا» ترجمت فقرة رائعة من دراسة لأنماط السلوك الإنسانى تظهر رأى المدير أو القائد الأعلى فيمن هم دونه من مديرين أو قادة ، وتظهر فى ذات اللحظة رأى هؤلاء فى القائد الأعلى نفسه، وأظن بلا مبالغة أن هذه الفقرة تنطبق تمام الانطباق على الحالة التى بين أيدينا لأحمد إسماعيل وسعد الشاذلى.

ذلك أن الفريق سعد الشاذلى كان لا يزال فى أكتوبر ١٩٧٣ يستمتع بنشوة المكانة التى حققها فى مايو ١٩٧١ حين أصبح فجأة رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية. وإذا هو قد شارك فى خلع الفريق فوزى ثم إذا هو يخلع الفريق صادق كما تصور أو كما صور السادات له الأمر فلم لا يخلع مَنْ هو أهون منهما قوة وشراً فى نظره وهو المشير أحمد إسماعيل(!!) .

ولم تتح هذه النشوة بالطبع للفريق سعد الشاذلى أن ينمى فى شخصيته وتصرفاته تلك الحنكة الاستراتيجية العميقة التى كانت قد تكونت مع تراكم الخبرات والقيادات والمواقع الكبرى فى شخصية أحمد إسماعيل صاحب التجربة الطويلة والعريضة الذى وصل إلى رئاسة الأركان بعد تدرج طويل بل ومستمر فى كل المناصب القيادية وقد أتيح له أن يصبح فى الصف الأول من قادة القوات المسلحة المصرية منذ نهاية الخمسينيات، أى أنه وصل إلى ما وصل إليه الشاذلى قبل حوالى ١٢ عاماً، مع أن الفارق بينهما فى التخرج عامان فقط، ولكن هكذا كانت ظروف ذلك الجيل، كما أن أحمد إسماعيل عمل مديراً للمخابرات العامة ولهذا كان من أهم السمات فى أدائه وضوح الرؤية الشديد فى تقاريره عن المعركة القادمة كما يشهد بذلك (من بين السطور، ودون قصد) الفريق سعد الشاذلى نفسه فى مذكراته.

ونأتى إلى ما يرويه الفريق الشاذلى فى مذكراته، بدءاً من الفصل التاسع عشر حيث يطلعنا على ما يسميه خلفيات الخلاف بينه وبين أحمد إسماعيل فيقول :

« لم أكن قط على علاقة طيبة مع أحمد إسماعيل، لقد كنا شخصين مختلفين تماماً لا يمكن لهما أن يتفقا» .

هكذا يبدأ الشاذلى بتقرير أنهما كانا شخصين مختلفين تماما لا يمكن أن يتفقا مع أنهما قد اتفقا فى بعض الأوقات بالفعل ... وهو يردف هذا مباشرة بقوله:

«وقد بدأ أول خلاف بيننا عندما كنت أقود الكتيبة العربية التى كانت ضمن قوات الأمم المتحدة فى الكونجو عام ١٩٦٠».

« كان العميد أحمد إسماعيل قد أرسلته مصر على رأس بعثة عسكرية لدراسة ما يمكن لمصر أن تقدمه للنهوض بالجيش الكونجولى. وقبل وصول البعثة بعدة أيام سقطت حكومة لومومبا التى كانت تؤيدها مصر بعد نجاح انقلاب عسكرى دبره الكولونيل موبوتو الذى كان يشغل وظيفة رئيس أركان حرب الجيش الكونجولى ، وقد كانت ميول موبوتو والحكومة الجديدة تتعارض تماماً مع الخط الذى كانت تنتهجه مصر . وهكذا وجدت البعثة نفسها دون أى عمل منذ اليوم الأول لحضورها».

«وبدلاً من أن تعود البعثة إلى مصر أخذ أحمد إسماعيل يخلق لنفسه مبرراً للبقاء فى ليوبولدفيل على أساس أن يقوم بإعداد تقرير عن الموقف .. وتحت ستار هذا العمل [تأمل مثل هذه الألفاظ وهى تصدر عن قائد عسكرى كبير لا يمانع فى أن يقول تحت ستار وهو يعلم أنها ألفاظ تستخدم فى الغالب فى تعامل البوليس مع المجرمين] بقى مع اللجنة ما يزيد على شهرين».

هكذا يروى الشاذلى وكأن أحمد إسماعيل كان صاحب نفوذ وصل إلى هذه الدرجة فى استبقاء نفسه فى الكونغو، وكأنما كانت الكونغو بمثابة الجنة التى يستبقى الناس فيها أنفسهم مع أنها كانت فى حقيقة الأمر فى ذلك الوقت قطعة من

العذاب على نحو ما نفهم من مذكرات سفير مصر فيها فى ذلك الوقت الدكتور محمد مراد غالب.. ولكن الفريق الشاذلى فى سبيل تصويره ما يراه داعماً لوجهة نظره لا يكلف نفسه عناء البحث عن المعقول ولا عن الحقيقة.

ونعود إلى ما يرويه الشاذلى:

«وفى خلال تلك الفترة حاول أن يفرض سلطته علىّ باعتبار أنه ضابط برتبة عميد بينما أنا وقتئذ برتبة عقيد، وبالتالى تصور أن من حقه أن يصدر إلىّ التعليمات والتوجيهات».

هنا يستأنف الشاذلى حديثه وقد ظهرت ملامح شخصيته المعروفة فيقول:

« رفضت هذا المنطق رفضاً باتاً وقلت له إننى لا أعترف بأية سلطة علىّ أو على قواتى. وقد تبادلنا الكلمات الخشنة حتى كدنا نشتبك بالأيدى . وبعد أن علمت القاهرة بذلك استدعت اللجنة إلى القاهرة ، وانتهى الصراع فى ليوبولدفيل ولكن آثاره بقيت فى أعماق كل منا . كنا نتقابل فى بعض المناسبات مقابلات عابرة ولكن كل منا كان يحاول أن يتحاشى الآخر بقدر ما يستطيع».

«واستمر الحال كذلك إلى أن عين اللواء أحمد إسماعيل رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية فى مارس ١٩٦٩ . وبتعيين اللواء أحمد إسماعيل رئيسا للأركان اختلف الوضع كثيراً، إذ لم يعد ممكناً أن أتحاشى لقاءه وألا يكون هناك أى اتصال مباشر بينى وبينه. إن وظيفته هذه تجعل سلطاته تمتد لتغطى القوات المسلحة كلها، لذلك قررت أن أستقيل. وبمجرد سماعى بنبأ تعيين أحمد إسماعيل رئيساً للأركان تركت قيادتى فى أنشاص وتوجهت إلى مكتب وزير الحربية حيث قدمت استقالتى وذكرت الأسباب التى دفعتنى إلى الاستقالة ثم توجهت إلى منزلى».

«مكثت فى منزلى ثلاثة أيام بُذلت فيها جهود كبيرة لتثنينى عن الاستقالة ولكنى تمسكت بها، وفى اليوم الثالث حضر إلى منزلى أشرف مروان زوج ابنة

الرئيس وأخبرنى بأن الرئيس عبدالناصر قد بعثه لكى يبلغنى الرسالةالتالية: «إن الرئيس عبدالناصر يعتبر استقالتك كأنها نقد موجه إليه شخصياً حيث إنه هو الذى عين أحمد إسماعيل رئيسا للأركان»، أوضحت وجهة نظرى فى أحمد إسماعيل وأننى لا أعنى مطلقاً أن أنتقد الرئيس، ولكنى لا أستطيع أن أعمل تحت رئاسة أحمد إسماعيل، وإن الثقة بينى وبينه معدومة».

«نقل أشرف مروان إجابتى إلى الرئيس عبدالناصر ثم عاد مرة أخرى ليقول «إن الرئيس تفهم جيداً وجهة نظرك. إنه يطلب إليك أن تعود إلى عملك وإنه يؤكد لك أن أحمد إسماعيل لن يحتك بك» وبناء على هذا الوعد عدت إلى عملى فى اليوم الرابع».



على هذا النحو يروى الشاذلى موقفاً لايدل على شيء يدين أحمد إسماعيل أو يفخر هو به، بل ربما كان العكس هو الصحيح.. ونواصل قراءة ما يرويه الشاذلى:

«وهنا يجب أن أؤكد أن جمال عبدالناصر قد وفى بما وعدنى به. ففى خلال الأشهر الستة التى قضاها اللواء إسماعيل فى وظيفته، لم تطأ قدماه قط قاعدة إنشاص حيث كانت تتمركز القوات الخاصة التابعة لى، كما أنه لم يحاول قط أن يحتك بى».

هل رأى القارىء نموذجاً أبلغ من هذا للتورط فى الحديث عن الجزر المنعزلة وعن الرغبات الخطرة فى الاستقلال بكيانات داخل كيانات، وهل نستكثر على أنفسنا بعد هذا أو بعد بعض هذا الأسلوب حدوث الكوارث والنكسات؟

ونأتى الآن إلى الفقرات التى يصور بها الشاذلى كيف علم من الرئيس السادات بتعيين أحمد إسماعيل وزيراً للحربية وكيف أنه قرر فى النهاية أن يستمر معه كرئيس للأركان :

«... فى منتصف يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٧٢ أبلغنى مكتب الرئيس أن الرئيس يطلب حضورى إلى منزله فى الجيزة فى تمام الساعة ١٥,٣٠ من اليوم نفسه وفى هذه المقابلة أبلغنى الرئيس أنه قرر إقالة وزير الحربية وأنه يعتبرنى منذ هذه اللحظة قائداً عاماً للقوات المسلحة بالنيابة ، ونظر فى ساعته . سألته عما إذا كان قد أخطر الفريق صادق بهذا القرار فقال لا، سألته عما إذا كان ينوى إخطاره بذلك أم أنه سيترك لى ذلك ؟ أجاب بأنه سيرسل له سكرتيره الخاص بعد حوالى ساعتين من لقائه معى لكى يعطى لى الفرصة لاتخاذ بعض الإجراءات الأمنية» .

«أخطرنى الرئيس بعد ذلك بقراره بطرد كل من الفريق عبد القادر حسن، واللواء على عبد الخبير ولم أستطع أن أجادله فيما يتعلق بهذا القرار حيث إنه كان يعتبر هذا القرار تأميناً شخصياً له، باعتبارهما من مؤيدى الفريق صادق .



وبعد فقرة يتحدث فيها الشاذلى عن مناقشاته مع الرئيس السادات حول اللواءين محمود فهمى وعبدالمنعم واصل [وقد أوردناها فى كتابنا: النصر الوحيد] فإنه يعود إلى رواية ما يهمنا عن الطريقة التى أنهى بها الرئيس السادات إليه نبأ اختياره لأحمد إسماعيل وزيراً للحربية، ونحن نروى ما رواه الشاذلى على نحو ما رواه أو على نحو ما أراد تصويره:

....

«وبعد فترة سكون قال الرئيس: «والآن لنفكر معاً فيمن سيكون وزيراً للحربية» لم أعلق، واستمر الرئيس «إنى أفكر فى أحمد إسماعيل»! لقد فوجئت بالاسم وعلقت بطريقة فورية : «سيادة الرئيس إن هناك تاريخاً طويلاً من الخلافات بينى وبين أحمد إسماعيل يمتد حوالى ١٢ سنة مضت منذ أن تقابلنا فى الكونجو عام ١٩٦٠، وإن علاقتنا حتى الآن تتسم بالفتور والبرودة . وأعتقد أن التعاون بيننا سيكون صعباً» .

« قال الرئيس : « إنى أعلم تماماً بتاريخ هذا الخلاف وتفاصيله، ولكنى أؤكد لك أن علاقته بك ستكون أفضل بكثير من علاقتك بصادق » .

«كررت وجهة نظرى وأبديت مخاوفى من أن هذه العلاقة قد تؤثر على الموقف العسكرى بينما نقوم بالإعداد للمعركة التى سوف تحدد مصير بلدنا لعدة سنوات قادمة، ولكنه كرر وجهة نظره وأكد لى أنه لن يحدث شىء من هذا الذى أتخوف منه . لقد كان الموقف يتطلب منى قراراً فورياً ،إما أن أقبل أو أن أستقيل» .



وعند هذا الحد يطلعنا الفريق الشاذلى عما دار فى ذهنه فى تلك اللحظات وقد أخذ يفكر فيما يفعل وهو يقدم لنا قطعة رائعة من الأدب الذى يُعنى بترجمة ما يدور فى الذهن من صراع بين التطلعات والتحفظات، والانتصار للتطلعات أو الانحياز إليها وهو يلخص الموقف الذى وجد نفسه فيه فى تلك اللحظات فيقول:

«لقد كان علىّ أن أجرى فى ذهنى تقديراً سريعاً للموقف وأن أصل إلى قرارى بهذا الخصوص أثناء تلك المقابلة . لقد كنا قائمين بالإعداد لمعركة المصير، ولقد بذلت مجهوداً خلال عام ونصف العام كرئيس للأركان العامة ، لقد مضت الأيام الصعبة وإن الأيام الباقية لن تكون مثل الأيام الماضية» .

« وإنه ليصعب علىّ أن استقيل وأترك خلفى الجهد والعرق اللذين بذلتهما دون أن أستمتع بنصر تحققه القوات المسلحة بعد هذا العناء كله . قلت لنفسى قد تتحقق تأكيدات السادات بأنه لن يحدث خلاف بيننا كما تحققت تأكيدات الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٦٩ . وعموماً فإذا لم تتحقق تأكيدات السادات فإنه يمكننى أن استقيل عندئذ» .



ثم يحدثنا الفريق الشاذلى عن سببين آخرين لإيثاره الاستمرار، الأول ألا يظهر

كمؤيد أو كمتضامن مع الفريق صادق، وكأنه كان يكره هذا الرجل وفكره إلى هذا الحد مع أننا نراه فى فقرات أخرى يتحدث عن صداقته به وأنه عنصر وطنى يمكن أن يخطئ !! والسبب الثانى ألا يبدو وكأنه لا يريد دخول الحرب! وهكذا فقد كانت هناك ثلاثة أسباب للبقاء فى مقابل سبب وحيد للخروج:

ولنواصل قراءة نص الفريق الشاذلى حيث يقول:

«وعلاوة على ذلك فلو أننى استقلت الآن فإن هذه الاستقالة سوف تفسر على أنها تضامن مع الفريق صادق فى الاستقالة . وقد يفسرها بعضهم بأنى لا أريد دخول الحرب فى حين أن الحقيقة هى عكس ذلك تماماً. وهكذا اقنعت نفسى بعدم الاستقالة، وانصرفت من منزل الرئيس بعد أن امتدت مقابلتنا إلى حوالى الساعة».

«وبينما أنا فى مكتبى تلقيت أول مكالمة هاتفية من أحمد إسماعيل فى حوالى الساعة ٢٢٣٠ يخطرنى فيها أن الرئيس قد استدعاه إلى منزله ، وعينه وزيراً للحربية وقائداً عاما للقوات المسلحة».



ومع أن الشاذلى يعترف فى مذكراته بأن طرد صادق وتعيين أحمد إسماعيل مكانه كان خطوة مهمة اتخذها السادات لتدعيم مركزه فإنه مع هذا يحرص على أن يخصص جزءاً من مذكراته لحديث طويل مسهب يعدد فيه ما يظن أنه أسباب اختيار الرئيس أنورالسادات للمشير أحمد إسماعيل كوزير للحربية وهو يصمم على أن يكتب هذه الأسباب فى صورة أرقام ١ و٢ ويصل إلى أن عدد هذه الأسباب فى رأيه يبلغ ستة أسباب(!!) يعددها على النحو التالى مع تقديم نبذة مطولة عن كل سبب :

١- كراهيته الشديدة للرئيس جمال عبد الناصر.

٢- ولاؤه المطلق للرئيس أنور السادات.

٣- شخصيته الضعيفة.

٤- مرضه.

٥- شخصيته غير المحبوبة.

٦- خلافه مع رئيس الأركان !!!!!.

على هذا النحو يصور الشاذلى بطريقة غريبة أسباباً ستة لهذا الاختيار، وكأن سببا واحدا أو اثنين لا يكفيان، مع أن مثل هذا الاختيار فى العادة يكفيه سبب أو سببان .. ولكن شهوة الهجوم على السادات وعلى أحمد إسماعيل تدفع الفريق الشاذلى إلى هذا الموقف الذى قد يجعلنا نعيد النظر فى تقدير طريقة تفكيره، ولست فى حاجة إلى تفنيد الأسباب الستة ، ولكن السبب السادس طريف جداً وهو يوحى - بما لا يقبل الشك - بما أشرنا إليه فى موضع سابق من أن الشاذلى ظل يظن نفسه مركز الكون حتى إن القائد الأعلى يحرص على اختيار القائد العام لأنه على خلاف معه! وتبدو المفارقة واضحة من أن الشاذلى شهد بنفسه فى نفس اليوم واقعة الاستغناء عن نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية السابق دون أن يشكل هذا صعوبة على السادات!! ولكنه مع هذا الذى رآه لا يزال يظن نفسه مركز الكون (!!) .

ومن العجيب أن الشاذلى نفسه يعترف فى مذكراته بطريقة غير مباشرة أن التعاون بينه وبين القائد العام قد مضى على قدم وساق حتى تحقق النصر فى معركة ٦ اكتوبر المجيدة ، وهكذا كان الواجب عليه أن يستدرك توضيح الصورة حتى لا يظلم نفسه قبل أن يظلم الآخرين .

أما حديثه عن مرض أحمد إسماعيل (السبب الرابع) فقد تناولته فى موضع آخر من هذا الكتاب، وهو فى كثير من الروايات لم يكن مريضا بالسرطان حين اختير وزيراً للحربية على نحو ما روج الشاذلى ونقل كثيرون عنه، وإذا صح مرضه بالسرطان فان هذا مما يضاعف من قيمة إنجازه، ولكن ما بالنا بقائد عسكرى وصل إلى رئاسة الأركان لايستنكف إيراد مثل هذه الأفكار فى مناقشة .

أما حديثه عن ضعف شخصية أحمد إسماعيل (السبب الثانى) وانعدام الحب لها (السبب الخامس) فلا أظن أن رئيسا (أيا كان) يلجأ إلى هذه الصفات فى مَنْ يعهد إليه بمهمة على هذا المستوى ، فإذا كان هذا حقيقياً فهى مسئولية الرئيس، وعليه تدور عاقبتها .

بقى السببان الأول والثانى ومع أنهما يبدوان وجيهين فى الوقت الذى نشرتِ فيه المذكرات فإن التأمل البسيط فيهما لا يكاد يقر رأى الشاذلى فى أن يكونا بمثابة السببين الأوليين ، ومع أن من حق السادات أن يختار مَنْ يدين له بالولاء المطلق فلربما كان ولاء سعد الشاذلى للسادات حتى هذه اللحظه أقوى بكثير من ولاء أحمد إسماعيل، فقد وقف الشاذلى مع السادات حين كان هذا الوقوف يمثل خطورة أو مقامرة على حين لم يتعرض أحمد إسماعيل حتى ذلك الوقت لمثل هذا الاختبار ! ولو تعرض لما ضمن السادات أن يكون ولاؤه كولاء الشاذلى.

وأما كراهية أحمد إسماعيل لعبد الناصر فلا أظن أنها كانت من مؤهلات اختيار السادات لمن يوليه مثل هذا المنصب فضلاً عن أن تكون بمثابة المبرر الأول! فهل كانت قيادة الجيش المصرى فى ذلك الموقف تهدف إلى محاربة عبد الناصر؟ بالعكس... فقد كانت فى إطار سياق عام يستكمل ما بدأه ويقضى على إزالة آثار عدوان تعرض له الوطن كله بسبب الرئيس عبد الناصر نفسه، ولهذا لم يكن المجال يسمح أبداً بإبداء كراهية لعبد الناصر أو تحفظ عليه وإلا فقدت التعبئة أهم عناصرها وانهار البنيان المعنوى للقوات المسلحة كلها .. ولكن الشاذلى يتجاوز هذا كله ويقفز عليه دون أدنى مبرر منطقى غير كراهية وانتقام ملآ عليه نفسه (أو على مَنْ تولى كتابة مذكراته) .



وعلى الرغم من هذا كله فإن سعد الشاذلى حريص على أن يوحى فى مذكراته

أن موقف أحمد إسماعيل منه كان أفضل بكثير من موقف السادات منه، وإن كان الشاذلى يقدم هذا التحليل فى صورة أن أحمد إسماعيل كان «يريد أن يطهر نفسه من الأوزار» قبل وفاته.

وهكذا يضعنا الشاذلى فى حيرة شديدة، هل يعتقد هو أن السادات كان حاقدا عليه إلى هذا الحد على نحو ما يرويه هو وينسبه إلى لسان أحمد إسماعيل، هل يعتقد فى أن أحمد إسماعيل هو الذى أوغر صدر السادات عليه!! وهكذا يصبح الذنب ذنب أحمد إسماعيل!

أما أنا فبعد قراءاتى لما كتبه الشاذلى فإنى أظن أن الذنب لم يكن ذنب السادات ولا أحمد إسماعيل (وهما الآن فى رحاب الله) ولكنه كان ذنب الشاذلى (وهو بيننا حى يرزق)، وهذا ـ على أى حال ـ هو نص حديث الشاذلى عن هذه الجزئية:

«... بينما كنت سفيراً لمصر فى لندن حضر المشير أحمد إسماعيل إلى لندن للعلاج عام ١٩٧٤ ، وقد قمت بزيارته فى المستشفى عددا من المرات . وفى زيارتى الأخيرة له كانت حالته قد تدهورت ولا بد أنه (كان) يشعر بقرب منيته. وأراد أن يطهر نفسه من الأوزار التى ارتكبها ضدى فقال : «إننى أعلم أنك كنت هدفاً لهجوم شرس وظالم، ولكنى أريد أن أؤكد لك أننى لست أنا الذى وراء ذلك. إنه الرئيس والرئيس شخصياً. وحتى الفيلم التسجيلى الذى أعددناه عن حرب أكتوبر، فقد أمر بإسقاط اسمك وصورك منه ، ولكنى قلت له إن الفريق سعد الشاذلى جزء من تاريخ هذه الحرب ولا يمكن إسقاطه، وقد تمكنت بصعوبة أن أقنعه بأن تظهر فى عدد من الصور» .

هكذا يروى الشاذلى بالنص، ثم هو يردف بقوله:

«كنت أنظر إلى رجل يتكلم وهو على فراش الموت وشعرت وقتئذ بتفاهة الحياة، وقلت لنفسى لماذا يتصارع الناس فى هذه الحياة؟ إن الصراع الشريف هو فى

مصلحة البشرية أما الصراع غيرالشريف والادعاء الباطل على الخصوم فهما عاملان لا أخلاقيان سوف يحاسب المرء عليهما فى دنياه وآخرته».

ورغم هذه العظة البالغة التى يعظنا بها الفريق الشاذلى فإنه كتب كثيراً وكثيراً جداً مما قرأناه!!



على أنى فى النهاية أستطيع أن أقول بكل اطمئنان إن هذا الخلاف بين الرجلين وادائهما قد صب فى النهاية فى مصلحة الوطن ولم يصب ضد هذه المصلحة. وظنى أن نأمل الأحداث التاريخية مع مضى الوقت سيكفل لنا التحقق من هذه الفكرة.

وأظن أن واجبنا أن ندعو لهما ولزملائهما بالرحمة والمغفرة فى الدنيا والآخرة.

كتب للمؤلف

□ **فى التراجم**

- الدكتور محمد كامل حسين (جائزة مجمع اللغة العربية) (طبعتان) ١٩٧٨، ٢٠٠٣
- مشرّفة بين الذرة والذروة (جائزة الدولة التشجيعية)(طبعتان) ١٩٨٠ ، ٢٠٠١
- الدكتور أحمد زكى - (طبعتان) ١٩٨٤ ، ٢٠٠٣
- مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل - ١٩٨٤
- سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض - ١٩٨٤
- الدكتور على باشا إبراهيم - ١٩٨٥
- الدكتور سليمان عزمى باشا - ١٩٨٦
- الدكتور نجيب محفوظ باشا - ١٩٨٦
- توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية - ١٩٨٨

- اسماعيل صدقى باشا ـ ١٩٩٨
- سيد مرعى ـ ١٩٩٩
- يرحمهم الله ـ ١٩٨٤
- مصريون معاصرون ـ ١٩٩٩

▢ دراسات أدبية ولغوية

- كلمات القرآن التى لانستعملها (طبعتان) ـ ١٩٨٤
- على هوامش الأدب ـ ٢٠٠٣
- أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى(طبعتان) ـ ١٩٩٠
- من بين سطور حياتنا الأدبية ـ ١٩٨٤
- فى ظلال السياسة: نجيب محفوظ الروائى بين المثالية والواقع ـ ٢٠٠٣

▢ دراسات نقدية لكتب السير والمذكرات

- فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين ـ ١٩٩٧
- مذكرات وزراء الثورة ـ ١٩٩٤
- الثورة والحرية: مذكرات المرأة المصرية (طبعتان) ـ ١٩٩٥ ، ٢٠٠٣
- نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار (طبعتان) ـ ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء ـ ١٩٩٩
- الأمن القومى لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث ـ ١٩٩٩

- من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية. ١٩٩٩
- الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧) . ٢٠٠٠
- النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٧٣) . ٢٠٠٠
- فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧ - ١٩٧٢). ٢٠٠٠
- على مشارف الثورة : مذكرات وزراء الملكية (١٩٤٩ - ١٩٥٢) . ٢٠٠١
- فى خدمة السلطة : مذكرات الصحفيين . ٢٠٠٢

◻أعمال موسوعية

- القاموس الطبى نوبل [بالاشتراك مع د. محمد عبد اللطيف] . ١٩٩٨
- الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء) . ١٩٨٩ . ١٩٩١
- دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث. ١٩٨٧
- مجلة الثقافة [١٩٣٩ . ١٩٥٢]: تعريف وفهرسة وتوثيق. ١٩٩٣

◻ أدبيات التاريخ المعاصر

- التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة . ١٩٨٦
- الوزراء (طبعتان) . ١٩٩٥، ١٩٩٧
- المحافظون (طبعتان) . ١٩٩٥
- البنيان الوزارى فى مصر [١٨٧٨ . ١٩٩٦] (طبعتان) . ١٩٩٦، ٢٠٠٠
- النخبة المصرية الحاكمة [١٩٥٢ . ٢٠٠٠] . ٢٠٠١

- قادة الشرطة في السياسة المصرية [١٩٥٢ - ٢٠٠٢] - ٢٠٠٣
- كيف أصبحوا وزراء .. دراسة في صنع القرار السياسي - ٢٠٠٣

◻ في الفكر السياسي

- الفلسطينيون ينتصرون أخيراً - ٢٠٠٣
- المسلمون والأمريكان في عصر جديد - ٢٠٠٣

◻ في الفكر التربوي

- مستقبل الجامعة المصرية - ٢٠٠٠
- آراء حرة في التربية والتعليم - ٢٠٠١
- تكوين العقل العربي : مذكرات المفكرين والتربويين - ٢٠٠٣

◻ في الشئون العامة

- القاهرة تبحث عن مستقبلها - ٢٠٠٠
- مستقبلنا في مصر: دراسات في الاعلام والبيئة والتنمية (طبعتان) - ١٩٨٥
- الصحة والطب والعلاج في مصر - ١٩٨٧
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار - ٢٠٠١

◻ وجدانيات

- أوراق القلب [رسائل وجدانية] - ١٩٩٤
- أوهام الحب [دراسة في عواطف الأنثى] - ١٩٩٩

▫ من أدب الرحلات

- رحلات شاب مسلم(ثلاث طبعات) ـ ١٩٨٩ ، ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- شمس الأصيل فى أمريكا (طبعتان) ـ ١٩٩٤ ، ٢٠٠٣

▫ فى طب القلب

- أمراض القلب الخلقية الصمامية ـ ٢٠٠١
- أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ـ ٢٠٠١

الفهرس